

محقّوهُ عَنْ نَسْخَةٍ خَطِيَّةٍ كَامِلَةٍ ، وَعَنْ مَطْبُوعَةِ الثَّعْبِ وَأَكْثَرِ مَنْ
عَشَرَ نَسَخٍ خَطِيَّةٍ أُخْرَى يَسْتَوْعِبُ مَجْمُوعَهَا التَّفْسِيرَ كُلَّهُ .

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْحَافِظِ

أَبِي الْفَتْحِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدِّمَشْقِيِّ

(٧٠٠ - ٧٧٤ هـ)

تَحْقِيقُ

سَامِي بْنِ مُحَمَّدٍ السَّلَامَةِ

الْجُزْءُ السَّادِسُ

النُّور - يَس

دار طيبة للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨م - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية

١٤٢٠م - ١٩٩٩م

(تم فيها استدراك السقط الحاصل بالمجلد الأول من طبعة الشعب)

 دار طبية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السعودي - ش. السعودي العام - غرب النفق

ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تفسير سورة النور

وهي مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

يقول تعالى : هذه ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ ، فيه تنبيه على (١) الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ : قال مجاهد وقتادة : أى بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والحدود .

وقال البخارى : ومن قرأ « فَرَضْنَاهَا » يقول : فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وعلى من بعدكم .

﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسرات واضحات ، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً ، وهو الذى لم يتزوج . أو محصناً ، وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكراً لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة (٢) ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغَرَّبَ عاماً [عن بلده] (٣) عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام ، إن شاء غَرَّبَ وإن شاء لم يغَرَّبَ .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابني كان عسيفاً - يعنى : أجيراً - على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت [ابني] (٤) منه بمائة شاة ووكيدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن (٥) على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردُّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (٦) .

ففى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إن كان محصناً فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

(١) فى أ : « إلى » .

(٢) فى ف ، أ : « جلد مائة » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى أ : « إنما » .

(٥) زيادة من ف ، أ ، وصحیح البخارى ومسلم .

(٦) صحیح البخارى برقم (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) وصحیح مسلم برقم (١٦٩٧) .

حدثني ابن شهاب ، أخبرنا ^(١) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره ، أن عمر ، رضى الله عنه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن ^(٢) الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف .

أخرجه في الصحيحين من حديث مالك مطولا ^(٣) ، وهذا ^(٤) قطعة منه ، فيها مقصودنا هاهنا .
وروى الإمام أحمد عن هُشَيْم ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : حدثني عبد الرحمن بن عوف ؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعه يقول : ألا وإن أناسا ^(٥) يقولون : ما بال رجم ؟ في كتاب الله الجلد . وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده . ولولا أن يقول قائلون - أو يتكلم ^(٦) متكلمون - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه ^(٧) ، لأثبتها كما نزلت . وأخرجه النسائي ، من حديث عبيد الله بن عبد الله ، به ^(٨) .

وقد روى أحمد ^(٩) أيضاً عن هُشَيْم ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تُخْذَعْنَ ^(١٠) عنه ؛ فإنه حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه ، لكتبت في ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده . ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالديال ^(١١) وبالشفاعة وبعبذاب القبر ، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا ^(١٢) .

وروى أحمد ^(١٣) أيضاً عن يحيى القطان ، عن يحيى الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب ^(١٤) : إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم .

الحديث رواه الترمذي ، من حديث سعيد عن عمر ، وقال : صحيح ^(١٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا ابن ^(١٦) عون ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : بُنِيتُ عن كثير بن الصلت قال : كنا عند

(١) في ف : « عن » . (٢) في ف : « إن » .

(٣) الموطأ (٢ / ٨٢٢) وصحيح البخاري برقم (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) وهو عندهما بهذا السياق من حديث ابن شهاب الزهري .

(٤) في ف ، أ : « وهذه » . (٥) في ف : « ناساً » . (٦) في ف : « ويتكلم » . (٧) في أ : « فيه » .

(٨) المسند (١ / ٢٩) والنسائي في السنن الكبرى (٧١٥٤) .

(٩) في ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٠) في أ : « لا تحيد عنه » . (١١) في ف : « والديال » .

(١٢) المسند (١ / ٢٣) .

(١٣) في ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٤) في ف ، أ : « عمر رضى الله عنه » .

(١٥) المسند (١ / ٣٦) وسنن الترمذي برقم (١٤٣١) .

(١٦) في ف : « أبو » .

مروان وفيما زيد ، فقال زيد : كنا نقرأ : « والشيخ والشيخة فارجموهما ^(١) البتة » . قال مروان : ألا كتبتَها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفيما عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك . قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم ، فقال : يا رسول الله ، أكتبني آية الرجم : قال : « لا أستطيع الآن » . هذا أو نحو ^(٢) ذلك .

وقد رواه النسائي عن محمد بن المنثني ، عن غُندَر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جُبَيْر ، عن كَثِير بن الصَّلْت ، عن زيد بن ثابت ، به ^(٣) .

وهذه طرق كلها متعددة ^(٤) ، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها ، وبقي حكمها معمولاً به ، والله الحمد ^(٥) .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير . ورجم النبي ﷺ ^(٦) ماعزاً والغامدية . وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدَهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد ؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد ، رحمه الله ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين ^(٧) الجلد للآية ، والرجم للسنّة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه لما أتى بشرأحة ^(٨) ، وكانت قد زنت وهى مُحَصَّنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حطّان ^(٩) بن عبد الله الرقاشي ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة ^(١٠) ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » ^(١١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع الله ، وليس المنهى عنه ^(١٢) الرأفة الطبيعية [ألا تكون حاصلة] ^(١٣) على ترك الحد ، [وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد] ^(١٤) ، فلا ^(١٥) يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا روى عن سعيد بن جبّير ، وعطاء بن أبى رباح . وقد جاء فى الحديث :

(١) فى ف ، أ : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما » .

(٣) النسائي فى السنن الكبرى برقم (٧١٤٨) .

(٤) فى ف ، أ : « متعاضدة » . (٥) فى ف ، أ : « والله أعلم » .

(٦) فى أ : « من » .

(٨) فى أ : « بسراجة » . (٩) فى أ : « عطاء » .

(١٠) فى أ : « عام » .

(١١) المسند (٥ / ٣١٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤١٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٣٤) والنسائي فى

السنن الكبرى برقم (١١٠٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٥٠) .

(١٢) فى ف : « النهى عن » . (١٣ ، ١٤) زيادة من ف ، أ . (١٥) فى ف : « فإنه لا » .

«تَعَاَفَوْا الْخُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ» (١) . وفى الحديث الآخر : «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» (٢) .

وقيل : المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ : فلا تقيموا الحد كما ينبغي ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح .

قال عامر الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة (٣) فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح . وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن حماد بن أبى سليمان : يجلد (٤) القاذف وعليه ثيابه ، والزانى تخلع ثيابه ، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، فقلت : هذا فى الحكم ؟ قال : هذا فى الحكم والجلد - يعنى فى إقامة الحد ، وفى شدة الضرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى (٥) ، حدثنا وكيع ، عن نافع ، [عن] (٦) ابن عمر ، عن (٧) ابن أبى مليكة ، عن عبيد الله (٨) بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فضرب رجلها - قال نافع : أراه قال : وظهرها - قال : قلت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخذتني بها رافة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جلدها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٩) .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك : أقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١٠) .

وقوله : ﴿ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردعهما ، فإن فى ذلك توبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضورا .

قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية . ثم قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، الطائفة : الرجل فما فوقه .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد .

وقال عطاء بن أبى رباح : اثنان . وبه قال إسحاق بن راهويه . وكذا قال سعيد بن جبير : ﴿ طَائِفَةٌ

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٣٧٦) والنسائى فى السنن (٧٠ / ٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) المسند (٣٦٢ / ٢) والنسائى فى السنن (٧٥ / ٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « رحمة الله » . (٤) فى أ : « تجلد » . (٥) فى ف : « الأزدى » ، وفى أ : « الأزمى » .

(٦) زيادة من ج ، أ . (٧) فى ف ، أ : « وعن » . (٨) فى ف ، أ : « عبد الله » .

(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٥٢) من طريق نافع عن ابن عمر فذكره .

(١٠) المسند (٤٣٦ / ٣) من حديث قرة المزنى ، رضى الله عنه .

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ قال : يعنى : رجلين فصاعدا .

وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثني ابن وهب ، عن الإمام مالك فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : الطائفة : أربعة نفر فصاعدا ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى .

وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّةٌ قال : سمعت نصر بن علقمة فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لا يَطَأُ إِلَّا زانية أو مشركة . أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إِلَّا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ ﴾ أى : عاص بزناه ، ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ : لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزنى بها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضا . وقد روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وعروة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومقاتل بن حيان ، وغير واحد ، نحوه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفاف بالفجار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا قيس ، عن أبى حصين ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرّم الله الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حيان : حرّم الله على المؤمنين نكاح البغايا ، وتقدّم فى ذلك فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿ مُحْصَنِينَ غَيْرُ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت

كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ^(١) ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي : حدثنا الحضرمي ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، أن رجلا من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة - يقال لها : « أم مهزول » - كانت تسافح ، وتشتري له أن تنفقه عليه - قال : فاستأذن رسول الله ﷺ - أو : ذكر له أمرها - قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .

وقال النسائي : أخبرنا عمرو بن علي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرمي ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة - يقال لها : « أم مهزول » - وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ^(٤) أن يتزوجها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) .

[و] ^(٦) قال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا روح بن عبادة بن عبيد الله بن الأخنس ، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبي مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بغية ^(٧) بمكة يقال لها « عناق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد ^(٨) رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجنبت حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتي ^(٩) ، فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد . فقالت : مرحباً وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : فقلت ^(١٠) : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت ^(١١) : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعني ثمانية ودخلت الخندمة ^(١٢) ، فأنتهيت إلى غار - أو : كهف - فدخلت فيه ^(١٣) ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى - قال : ثم رجعوا ، فرجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهت إلى الإذخر ، ففككت عنه أكبله ^(١٤) ، فجعلت أحمله ويعينني ، حتى أتيت به ^(١٥) المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ - مرتين - فأمسك رسول الله ﷺ ، فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ » .

(١) في ف ، أ : « عارم بن الفضل » .

(٣) المسند (١٥٩ / ٢) .

(٤) في ف : « النبي » .

(٥) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٥٩) .

(٦) زيادة في ف ، أ . (٧) في أ : « تغنى » . (٨) في ف : « وعد » . (٩) في ف ، أ : « عرفت » .

(١٠) في ف : « قلت » . (١١) في ف : « قالت » . (١٢) في ف ، أ : « الخديقة » . (١٣) في أ : « به » .

(١٤) في أ : « أكبله » . (١٥) في ف : « قدمت » .

[وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ] ^(١) ، فلا تنكحها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد رواه أبو داود والنسائي ، فى كتاب النكاح من سنتهما ^(٢) ، من حديث عبيد الله بن الأحنس ، به ^(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مُسَدَّدُ أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثنى عمرو بن شعيب ، عن سعيد المقبري ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » .

وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر - عبد الله بن عمرو - كلاهما عن عبد الوارث ، به ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أخيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال : أشهد لسمعت سلماً يقول : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة - المتشبهة بالرجال - والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومُدمِن الخمر ، والمنان بما أعطى » .

ورواه النسائي عن عمرو بن على الفلاس ، عن يزيد بن زريع ، عن عمر بن محمد العُمري ، عن عبد الله بن يسار ، به ^(٥) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قطن بن وهب ، عن عويمر بن الأجدع ، عن حدثه ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثنى عبد الله ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذى يقر فى أهله الخبث » ^(٦) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة ، حدثنى رجل - من آل سهل بن حنيف - عن محمد بن عمار ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة ديوث » ^(٧) . يستشهد به لما قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سلام بن سَوَّار ، حدثنا كثير بن سليم ، عن الضحاك بن مزاحم : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ [يقول] ^(٨) : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً ، فليتزوج الحرائر » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٧) وسنن أبى داود برقم (٢٠٥١) وسنن النسائي (٦ / ٦٦) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٢) .

(٤) المسند (٢ / ١٣٤) وسنن النسائي (٨ / ٨٠) .

(٥) المسند (٢ / ٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٤٧) : « فيه راوٍ لم يسم » .

(٦) مسند الطيالسى برقم (٦٤٢) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) زيادة من ف ، أ .

فى إسناده ضعف (١) .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري فى كتاب « الصحاح فى اللغة » : الديوث القنْذُع وهو الذى لا غيرة له (٢) .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب « النكاح » من (٣) سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون ابن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه - قالوا : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن عندى امرأة [هى] (٤) من أحب الناس إلى (٥) ، وهى لا تمنع يد لامس . قال : « طلقها » . قال : لا صبر لى عنها . قال : « استمتع بها » .

ثم قال النسائى : هذا الحديث غير ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوى ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم (٦) .

قلت : وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رثاب ، وهو تابعى ثقة من رجال مسلم ، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى . لكن قد رواه النسائى فى كتاب « الطلاق » ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شُمَيْل (٧) ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس مسندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائى بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسل » (٨) . ورواه غير النضر على الصواب .

وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حُرَيْث ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن عُمارة بن أبى حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره . وهذا إسناد جيد (٩) .

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مُضَعَّف له ، كما تقدم عن النسائى ، وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاها النسائى فى سننه عن بعضهم فقال : وقيل : « سخية تعطى » ، وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا تردّ يد ملتمس .

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٨٦٢) وجه ضعف إسناده ؛ لأن فيه كثير بن سليم ، وهو ضعيف ، وسلام هو ابن سليمان بن سوار المدائنى ، قال ابن عدى : « عنده مناكير » ، وقال العقيلي : « فى حديثه مناكير » ، قال ذلك البوصيرى فى مصباح الزجاجه (٧٣/٢) .

(٢) الصحاح (١ / ٢٨٢) .

(٣) فى ف ، أ : « فى » . (٤) زيادة من ف ، أ ، والنسائى . (٥) فى ف : « لى » .

(٦) سنن النسائى (٦ / ٦٧) .

(٧) فى ف ، أ : « إسماعيل » .

(٨) سنن النسائى (٦ / ١٧٠) .

(٩) سنن النسائى (٦ / ١٦٩) .

وقيل : المراد أن سجيتها لا تَرُدُّ يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة ؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها . فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ديوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أَرادها لو خلا بها أحد ، أمره رسول الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها ؛ لأن محبته لها محققة ، ووقوع الفاحشة منها متوهم ^(١) ، فلا يُصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم ، رحمه الله :

حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا أبو خالد ، عن ابن أبي ذئب ، قال : سمعت [شعبة] ^(٢) - مولى ابن عباس ، رضى الله عنه - قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال ^(٣) : إني كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرّم الله ، عز وجل ، على ، فرزق الله ، عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزانى لا ينكح إلا زانية . فقال ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ ، قال : كان يقال : نسختها [الآية] ^(٤) التى بعدها : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] ، قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب . ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رحمه الله .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقدوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضا ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله ، ردّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(١) فى أ : « يتوهم » .

(٣) فى أ : « فقال » .

صحة ما قاله ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة .

الثانى : أنه ^(١) ترد شهادته دائماً .

الثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف - فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . ومن ذهب إليه من السلف القاضى - شريح ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد ابن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٢) .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ^(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ^(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ^(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ^(١٠) ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل ^(٣) ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانث منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ، ويعطى مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيما رماها به ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ ﴾

(٣) فى أ : « الله تعالى » .

(٢) فى ف : « جابر » .

(١) فى ف : « أن » .

عَنْهَا الْعَذَابُ ﴿١﴾ يعنى : الحد ، ﴿٢﴾ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣﴾ . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحدد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، وشرعه ^(١) لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴿٥﴾ أى : لخرجتم ^(٢) ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿٦﴾ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴿٧﴾ [أى] ^(٣) : على عباده - وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة - ﴿٨﴾ حَكِيمٌ ﴿٩﴾ فيما يشرعه ^(٤) ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴿١١﴾ قال سعد بن عباد - وهو سيد الأنصار - : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط [إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط] ^(٥) فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيظه . فقال سعد : والله - يا رسول الله - إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل ، لم يكن لى أن أهيجه ولا أحرکه حتى أتى بأربعة شهداء ، فوالله لا أتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيجه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعينى ، وسمعت بأذنى . فكره رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا ^(٦) : قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين ^(٧) . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما ^(٨) جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحي - وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك ، فى تربد وجهه ^(٩) . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي - فنزلت : ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴿١١﴾ الآية ، فسرى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » .

(١) فى ف ، أ : « فى شرعه » . (٢) فى ف : « خرجتم » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى أ : « فيما شرعه » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (٦) فى ف : « فقلت » .

(٧) فى هـ : « ويبطل شهادته فى الناس » والمثبت من ف ، أ ، والمسنَد . (٨) فى ف : « فيما » .

(٩) فى أ : « جلده » . (١٠) فى ف ، أ : ﴿١٠﴾ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴿١١﴾ .

فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله - يا رسول الله - لقد صدقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » . فقليل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان في الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها ، كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل [(١) لها : اتقي الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى ألا [بيت لها عليه ولا] (٢) قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به أصيَّه أريَّسح حمش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورك جعداً جُماليّاً خدلج الساقين سابغ الأليتين ، فهو الذي رميت به » . فجاءت به أورك جعداً جُماليّاً خدلج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب .
ورواه أبو داود عن الحسن بن عليّ ، عن يزيد (٣) بن هارون ، به نحوه مختصراً (٤) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخاري :

حدثني محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عديّ ، عن هشام بن حسان ، حدثني عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحّماء ، فقال رسول الله ﷺ (٥) : « البينة أوحد في ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا أرى (٦) أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : « البينة وإلا حد في ظهرك » . فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، وليتزلن (٧) الله ما يُبرئ ظهري (٨) من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل (٩) عليه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فانصرف النبي ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبي ﷺ يقول : « الله يشهد أن أحكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها مُوجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم . فمضت ، فقال النبي ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحّماء » . فجاءت به كذلك ، فقال النبي ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » .

(١) ، (٢) زيادة من ف ، أ ، والمُسند . (٣) في ف : « زيد » .

(٤) المُسند (١ / ٢٣٨) وسنن أبي داود برقم (٢٢٥٦) .

(٥) في ف ، أ : « النبي » .

(٦) في ف ، أ : « رأى » .

(٧) في أ : « وليتزل » .

(٨) في ف : « ما يطهرني » .

(٩) في ف : « فأنزل » .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ^(١) ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الزياى ^(٢) ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعنى : ابن كليب - عن أبيه ، حدثنى ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله ، فرمى امرأته برجل ، فكره ذلك رسول الله ﷺ ، فلم يزل يُردّده حتى أنزل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ [إِلَّا أَنْفُسُهُمْ] ^(٣) ﴾ ، [فقرأ] ^(٤) حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : « إن الله ، عزّ وجل ، قد أنزل فيكما » . فدعا الرجل فقرأ عليه ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه ، فقال له : « كل شيء أهون عليه من لعنة الله » . ثم أرسله فقال : ﴿ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ثم دعا بها ، فقرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها ، وقال : « ويحك . كل شيء أهون من غضب الله » . ثم أرسلها ، فقالت : ﴿ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلا » . قال : فولدت ، فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر غاشية منه ، فقال : « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » . فجاءت به يشبه الذى قُذفت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال : سمعت سعيد بن جبيرة قال : سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما - فى إمارة ابن الزبير ؟ فما دريتُ ما أقول ، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت : أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله ، أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد ابتليت به . فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ^(٥) فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقال : والذى بعثك بالحق ما كذبتك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى بعثك بالحق ^(٦) ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرّق بينهما .

رواه النسائي فى التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبى سليمان ، به ^(٧) . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس ^(٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٧) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى أ : « الرمادى » .

(٤) زيادة من ف ، أ : « والذى بعثك بالحق ما كذبتك » .

(٥) فى أ : « الآية » .

(٦) زيادة من ف ، أ : « والذى بعثك بالحق ما كذبتك » .

(٧) المسند (١٩ / ٢) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٧) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٣١٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٣) .

علقمة ، عن عبد الله قال : كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت عن غيظ ؟ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول الله ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فأنزل آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طُرُق ، عن سليمان بن مهران الأعمش ، به (١) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو كامل : حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال : سَلْ رسول الله ﷺ : أرايت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل . قال : فلقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتني بخير ؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل . فقال عويمر : والله لأتينا رسول الله ﷺ فلا سألناه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فلاعن بينهما . قال عويمر : لئن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحمت أدعج العينين عظيم الألتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة فلا أراه إلا كاذباً » . فجاءت به على النعت المكروه .

أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ، من طرق ، عن الزهري ، به (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد (٣) بن يثيع ، عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به ؟ قال : كنت والله فاعلاً به شراً . قال : « فأنت ياعمر ؟ » . قال : كنت والله فاعلاً ، كنت أقول : لعن الله الأعجز ، وإنه خبيث . قال : فتزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ .

ثم قال : لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل ، عن يونس بن أبي إسحاق ، ثم رواه من حديث الثوري عن [أبى] (٤) أبى إسحاق ، عن زيد بن يثيع مرسل ، فالله أعلم (٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجرمي ، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحمة قذفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إن الله يعلم إنى لصادق ، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد . فأنزل الله آية اللعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية . قال : فدعاه النبي ﷺ فقال : « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع

(١) المسند (١ / ٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣٣٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٥) وسنن النسائي

(١٤٣ / ٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٦٦) .

(٣) فى أ : « يزيد » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٣٧) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٧٤) : « رجاله ثقات » .

شهادات ، ثم قال له فى الخامسة : « ولعنة الله عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ، ففعل . ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال : « قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها فى الخامسة : « وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » ، فقالت : فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت : لا أفصح قومى سائر اليوم . فمضت على القول ، ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقال : « انظروه ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين ، فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا فضى ^(١) ، العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به آدم جعداً حمش الساقين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » ^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ .

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله تعالى ^(٣) لها ولنبهه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل [الله عز وجل] ^(٤) براءتها صيانة لعرض الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ^(٥) ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم فى هذه اللعنة ^(٦) عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر ، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى ، وبعض حديثهم يصدق بعضاً : ذكروا أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سقراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاهما ، فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه مسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقممت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب - وهم يحسبون أنى فيه - قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهلبهن ولم يغشن اللحم ، إنما يأكلن العلقمة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ،

(١) فى أ : « قضى قصير » .

(٢) مسند أبى يعلى (٢٠٧ / ٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد ، به .

(٣) فى أ : « جل شأنه » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « ﷺ » . (٦) فى أ : « العصبه » .

ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فقيمتم منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فنمت - وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش - فادّلع فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يضرب على الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمّرت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤجرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول . فقدّمت المدينة فاشتكت حين قدمنا شهرا ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يرينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تيكُم ؟ » فذلك يرينى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقَهْتُ وخَرَجْتُ معى أم مسطح قبل المناصع - وهو مُتَبَرِّزًا - ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن عبّاد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : « تعس مسطح » . فقلت لها : بشما قلت . تسين رجلا [قد] (١) شهد (٢) بدرا ؟ قالت : أى هتّاه ، ألم (٣) تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتني (٤) بقول أهل الإفك ، فازددت مرضًا إلى (٥) مرضى . فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تيكُم ؟ » قلت : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حيثنأ أريد أن أتقن الخبر من قبلهما - فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمّاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بنية (٦) ، هونئى عليك ، فواللّه لقلما كانت (٧) امرأة قطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ عليًا (٨) ، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدّقك . الخبر . قالت (٩) : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : « أى بريرة ، هل رأيت من شيء يرريك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قطّ أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فواللّه ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ،

(٣) فى ف : « أولم » .

(٢) فى أ : « شاهد » .

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٦) فى ف ، أ : « يا بنية » .

(٥) فى أ : « على » .

(٤) فى ف ، أ : « وماذا قال ؟ قالت : فأخبرتني » .

(٩) فى ف : « قال » .

(٨) فى المسند : « على بن أبى طالب » .

(٧) فى ف : « ما كانت » .

وما كان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله^(١) ، ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت ! لعمر الله^(٢) لنقتله ، فإنک منافق تجادل عن المنافقين . فتناور الحیان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ [قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ]^(٣) يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكى يومئذ ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالتى كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكى ، استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك^(٤) ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل [لى]^(٥) ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه فى شأنى شيء - قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئک الله ، وإن كنت أُلِّمْتَ بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت^(٦) لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى : أجبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن ، لا أحمظ^(٧) كثيراً من القرآن - : [إنى]^(٨) والله لقد عرفت أنکم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر^(٩) فى أنفسکم وصدقتم به ، ولكن^(١٠) قلت لکم إنى بريئة - والله يعلم إنى بريئة - لا تصدقونى [بذلك . ولكن اعترفت لکم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى]^(١١) ، وإنى والله ما أجد لى^(١٢) ولکم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مُبرئى براءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقل القول الذى أنزل عليه . قالت^(١٣) : فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله^(١٤) فقد برأك^(١٥)» . فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى^(١٦) ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى . قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقربته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز

(١) فى ف : « لعمر الله لنقتله » . (٢) فى ف : « والله » . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .
 (٤) فى ف ، أ : « كذلك » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (٦) فى ف ، أ : « قلت » .
 (٧) فى ف ، أ : « لا أقرا » . (٨) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (٩) فى ف ، أ : « استقرت » .
 (١٠) فى ف : « وإن » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (١٢) فى ف : « والله إنى لا أجد لى » .
 (١٣) فى ف : « ذلك » . (١٤) فى ف ، أ : « والله » . (١٥) فى ف ، أ : « فقد برأك الله » .
 (١٦) فى أ : « هو الذى برأنى » .

وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر (١) : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمرى : يا زينب ، ما علمت ، أو : ما رأيت [أو ما بلغك] (٢) ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسامينى من أزواج النبي ﷺ (٣) ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطَفِقَتْ أختها حَمْنَةُ بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط .

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه ابن إسحاق ، عن الزهرى كذلك ، قال : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة . وحدثنى عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، عن عمرة ، عن عائشة (٥) بنحو (٦) ما تقدم ، والله أعلم (٧) .

ثم قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرنى أبى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكر من شأنى الذى ذُكر وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ فى خطيبا ، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أشيروا علىّ فى أناس أبئوا أهلى ، وأيم الله ما علمت على أهلى من سوء (٨) ، وأبئوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ائذن يا رسول الله أن تضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان [بن ثابت] (٩) من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ فى المسجد ، وما علمت . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثرت فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أى أم ، أتسبين ابنك ؟ وسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أى أم ، تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تعس مسطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت : فَبَقَرْتُ لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعت إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ، ووُعِكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان فى السفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت [لى] (١٠) أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، [فقالت : يا بنية ، خَفَضَى عليك الشأن ؛ فإنه - والله - لَقَلَّمَا كانت امرأة

(١) فى ف ، أ : « فقال أبو بكر : أى والله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (٣) فى ف ، أ : « رسول الله » .

(٤) المسنَد (٦ / ١٩٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٠) .

(٥) فى ف ، أ : « عمرة ، أخبرنى أبى عن عائشة » . (٦) فى ف : « نحو » .

(٧) رواه ابن هشام فى السيرة (٢ / ٢٩٧) من طريق ابن إسحاق ، ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (٢) من طريق أبى أويس عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة عن عائشة .

(٨) فى ف ، أ : « ما علمت على أهلى إلا خيرا ، أو ما علمت على أهلى من سوء » . (٩) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(١٠) فى ف ، أ : « فقالت لى أمى » .

حسناً ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني ، فقلت : وقد علم به أبي ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، ورسول الله ﷺ [١] . فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال (٢) : أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك . فرجعت ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي ، فسأل عني خادمي (٣) ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها عيباً ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها - أو : عجينة - وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقي رسول الله ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان الله . والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله . والله ما كشفتُ كَنَفَ أثني قط - قالت عائشة : فقتل شهيدا في سبيل الله - قالت : وأصبح أبوأي عندي ، فلم يزا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفتني أبوأي عن يميني وعن شمالي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهي (٤) جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوعظ رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى أبي ، فقلت له : أجبه . قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت : أجيبه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيبها ، تشهدت فحمدت الله وأثنت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فوالله لئن قلت لكم إنني لم أفعل - والله عز وجل يشهد إنني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشربته قلوبكم ، وإن قلت : إنني قد فعلت - والله يعلم أني لم أفعل - لتقولن : قد باءت به على نفسها ، وإني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فرفع عنه وإنني لأتبين السرور في وجهه ، وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » ، قالت : وكنت (٥) أشد ما كنت غضباً ، فقال لي أبوأي : قومي [إليه] (٦) . فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدینها ، فلم تقل إلا خيراً . وأما أختها حمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم به (٧) مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق عبد الله بن أبي بن سلول فهو الذي [كان] (٨) يستوشيه ويجمعه ، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ، يعني : أبا بكر ، ﴿ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ يعني : مسطحاً ، إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقاً بصيغة الجزم (٩) ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة [أحد

(١) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٢) في ف : « فقال » .

(٣) في ف ، أ : « خادمتي » .

(٤) في ف : « وهي » .

(٥) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٦) في ف : « فكنت » .

(٧) في ف : « فيه » .

(٨) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٩) صحيح البخاري برقم (٤٧٥٧) .

الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وكيع ، عن أبى أسامة [(١)] ، به مطولا ، مثله أو نحوه (٢) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، ببعضه . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ (٣) بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما نزل عُذْرَى من السماء ، جاءنى النبى ﷺ فأخبرنى بذلك ، فقلت : نَحْمَدُ اللهَ لا نَحْمَدُكَ (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنى ابن أبى عدى ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عُمَرَةَ ، عن عائشة قالت : لما نزل عُذْرَى قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أَمَرَ برجلين وامرأة فَضْرَبُوا حُدُومَهُمْ (٥) .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثه ، وحمئة بنت جحش . فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها (٦) .

وقد روى من حديث أمها أم رومان ، رضى الله عنها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، أخبرنا حُصَيْنٌ عن أبى وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها (٧) امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله - بابنها - وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حَدَّثَ الحديث . قالت عائشة : وأى حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى الله عنها ، مغشيا عليها ، فما أفافت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقامت فدرتها ، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تُحَدِّثُ به . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعَذِّرُونِى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : وخرج رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عُذْرَهَا ، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر ، [فدخل فقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عُذْرَكَ » . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر [(٨)] ، فحلف أبو بكر ألا يصله ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، قال أبو بكر : بلى . فوصله .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٤) ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (١) من طريق إسماعيل بن أبى أويس عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مثله .

(٣) فى أ : « عمرو » .

(٤) المسند (٦ / ٣٠) .

(٥) المسند (٦ / ٣٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨١) والسنن الكبرى برقم (٧٣٥١) وسنن

ابن ماجه برقم (٢٥٦٧) .

(٦) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٧) فى ف : « علينا » .

(٨) فى ف : « وغيرهم » .

تفرد به البخارى دون مسلم ، من طريق حُصَيْن (١) . وقد رواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عَوَانَةَ - وعن محمد بن سلام - عن محمد بن فضيل ، كلاهما عن حصين ، به (٢) . وفى لفظ أبى عوانة : حدثنى أم رومان . وهذا صريح فى سماع مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادى ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمان النبى ﷺ ، قال الخطيب : وقد كان مسروق يرسله فيقول : « سئلت أم رومان » ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب «سئلت» بألف ، فاعتقد الراوى أنها «سألت» ، فظنه متصلا . قال الخطيب : « وقد رواه البخارى كذلك ، ولم تظهر (٣) له علته » . كذا قال ، والله أعلم .

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أى : بالكذب والبهت والافتراء ، ﴿ عَصَبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أى : يا آل أبى بكر ، ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه (٤) ، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، وأنزل (٥) براءتك من السماء (٦) .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنى محمد بن عثمان الواسطى ، حدثنا جعفر بن عون ، عن المعلّى بن عوفان ، عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب ، رضى الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التى نزل تزوجى [من السماء] (٧) ، قال : وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتابه ، حين حملنى ابن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتيها؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين (٨) .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورّمى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ (٩) : قيل : ابتدأ به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ، ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : على ذلك .

ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى بن سلول - قبحه الله ولعنه - وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما

(١) المسند (٦ / ٣٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥١) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٣) من رواية موسى بن إسماعيل ، وبرقم (٣٣٨٨) من رواية محمد بن سلام .

(٣) فى ف : « يظهر » . (٤) فى ف : « عنها » . (٥) فى ف : « ونزلت » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٣) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٠) .

(٩) فى ف ، أ : « كبره منهم » .

قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ [بشعره] ^(١) ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : «هاجهم وجبريل معك» .

وقال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق قال : كنتُ عندَ عائشة ، رضى الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقى له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعنى : يدخل عليك - وفى رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قالت : وأى عذاب أشد من العمى - وكان قد ذهب بصره - لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان يُنافحُ عن رسول الله ﷺ .

وفى رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها [شعراً] ^(٢) يمتدحها به ، فقال :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ ^(٣) بَرِيَّةٌ وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ

فقالت : أما أنت فلست كذلك . وفى رواية : لكنك لست كذلك ^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قَزَعَةَ ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود ، عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبى سفيان - يعنى ابن [الحارث] ^(٥) ابن عبد المطلب - :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا ، فَأَجَبْتُ ^(٦) عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبَى وَوَالِدَهُ وَعَرْضِي	لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
أَتَشْتُمُهُ ، وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ ؟	فَشَرَكُكُمْ لِخَيْرِكُمْ بِالْفِدَاءِ
لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ	وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ

فَقِيلَ : يَا أُمَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَيْسَ هَذَا لَغْوًا ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] ^(٧) عظيم ؟ [أليس] ^(٨) قد ذهب بصره وَكُنِعَ بالسيف ؟ تعنى : الضربة التى ضربه إياها ^(٩) صفوان بن المعطل [السلمي] ^(١٠) ، حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله ^(١١) .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ^(١٢) ﴾

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(١٣) ﴾ .

هذا تأديب من الله للمؤمنين فى قضية ^(١٢) عائشة ، رضى الله عنها ، حين أفاض بعضهم فى

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « ما ترن » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٦) حدثنى بشر بن خالد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن الأعمش ، به .

(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وأجبت » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٩) فى ف : « ضربها إياه » . (١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) تفسير الطبرى (١٨ / ٦٩) .

(١٢) فى ف : « قصة » .

ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : ﴿ لَوْلَا ﴾ بمعنى : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أى : ذلك الكلام ، أى : الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى .

وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامرأته ، رضى الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بنى النجار ؛ أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ^(١) ﴾ الآية ، أى : كما قال أبو أيوب وصاحبه (٢) .

وقال محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبى حبيبة (٣) ، عن داود بن الحصين ، عن أبى سفيان ، عن أفلح مولى أبى أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع (٤) ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أفكنت يا أم أيوب [فاعلة ذلك] (٥) ؟ قالت : لا والله . قال : فعائشة والله خير منك : فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال الله ، عز وجل : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ يعنى : أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .

ويقال : إنما قالها أبى بن كعب .

وقوله : ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ، ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى : بألسنتهم : ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا (٦) جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرغوة الفاحشة [الفاجرة] (٧) ، والصفقة الخاسرة .

قال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا ﴾ أى : هلا ﴿ جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ أى : على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ، ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى : فى حكم الله كذبة فاجرون (٨) .

(١) فى ف ، أ : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٧٧) .

(٣) فى ف ، أ : « حبيب » .

(٤) فى ف : « تسمع » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ف : « فجرة » .

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ^(١٥) ﴾ .

يقول : [الله] ^(١) : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ، من قضية الإفك ، ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمسطح ، وحسان ، وحمئة بنت جحش ، أخت زينب بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .
وقرأ آخرون « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ » . وفي صحيح البخارى عن عائشة : أنها كانت تقرأها كذلك ^(٢) . وتقول : هو من ولق القول . يعنى : الكذب الذى يستمر صاحبه عليه ^(٣) ، تقول العرب : ولق فلان فى السير : إذا استمر فيه ^(٤) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر ^(٥) ، عن ابن أبى مليكة ، [عن عائشة أنها كانت تقرأ : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » ، وتقول : إنما هو ولق القول - والولق : الكذب . قال ابن أبى مليكة ^(٦)] : هى أعلم به من غيرها .

وقوله : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون .
ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيراً [سهلاً] ^(٧) ، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقدَّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك ، حاشا وكلاً ، ولما [لم يكن ذلك] ^(٨) ، فكيف يكون هذا فى سيِّدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟ ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وفى الصحيحين :

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤ ، ٤٧٥٢) .

(٣) فى ف : « فيه » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤) .

(٥) زيادة من ف ، أ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٥) فى ف ، أ : « نافع عن ابن عمر » .

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَطَ الله، لا يدرى ما تَبْلُغُ، يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقي لها بالا» (١).

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦)
يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١٨) .

هذا تأديب آخر بعد الأول : الأمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة (٢) ، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك - وسوسة أو خيالا - فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها » (٣) ، ما لم تقل أو تعمل . أخرجاه فى الصحيحين (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أى : ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على (٥) زوجة [نبيه و] (٦) رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أى : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أى : فيما يستقبل . فلهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال : ﴿ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) .

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ ، فقام بذهنه منه شيء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى (٧) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : فردوا الأمور إليه ترشّدوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبى محمد المرثي ، حدثنا محمد بن عباد المخزومي ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُغيروهم ، ولا تطلبوا

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « الحرة » . (٣) فى ف : « نفسها » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) فى ف : « عن » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « قال الله تعالى » .

عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته ، حتى يفضحه فى بيته » (١) .

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم . فتاب على من تاب إليه من هذه [القضية] (٢) ، وظهر من ظهر منهم بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ، ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ : هذا تنفير وتحذير من ذلك ، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ : عمله . وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاماً ؟ فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كَفَّرَ عن يمينك ، وكُلْ .

وقال الشعبى فى رجل نَذَرَ ذَبْحَ ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى ، حدثنا السرى بن يحيى ، عن سلمان التيمى ، عن أبى رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هى يوماً يهودية ، ويوماً نصرانية ، وكل مملوك لها حر ، إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهى يومئذ أفضه امرأة بالمدينة ، وأتيت عاصم ابن عمر ، فقال مثل ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أى : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده (٣) ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهم ، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال .

(١) المسند (٥ / ٢٧٩) .

(٣) فى ف : « العباد » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الآلية ، [وهى : الحلف] (١) ، أى : لا يحلف ﴿ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ أى : الطَّوَل والصدقة والإحسان ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ أى : الجِدَّة ، ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراياتكم المساكين والمهاجرين . وهذه (٢) فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصديق ، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة بعدما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه (٣) - شرع تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة ، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثه ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد ولى ولقة (٤) تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى الله عنه ، معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر (٥) عن المذنب إليك تغفر (٦) لك ، وكما تصفح نصفح (٧) عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال : والله لا (٨) أنفعه بنافعة أبداً ، فلهذا كان الصديق هو الصديق [رضى الله عنه وعن بنته] (٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٥) .

هذ وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج مخرج الغالب - المؤمنات . فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولاسيما التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى الله عنهما . وقد أجمع العلماء ، رحمهم الله ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمها بما رماها به [بعد هذا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « وهذا » . (٣) فى ف ، أ : « من أقيم الحد عليه » .
(٤) فى ف : « رلى زلقة » . (٥) فى ف : « يغفر » . (٦) فى ف : « يغفر » .
(٧) فى ف : « يصفح » . (٨) فى ف : « ما » . (٩) زيادة من ف ، أ .

الذى ذكر [(١)] فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٢) [الأحزاب : ٥٧] .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ، فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [قال : (٣)] : نزلت فى عائشة خاصة .

وكذا قال [سعيد بن جبير و (٤)] مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن عبد الصبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك . قالت : فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي (٥) ، إذ أوحى (٦) إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ، ثم استوى جالسا مسح على وجهه ، وقال : « يا عائشة ، أبشرى » . قالت : قلت : بحمد الله لا بحمدك . فقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، حتى قرأ (٧) : ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ [النور : ٢٦] (٨) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها ، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نبيب : المراد بها أزواج النبى خاصة ، دون غيرهن من النساء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية : يعنى أزواج النبى ﷺ ، رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله ، فكان (٩) ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل ، والشهادة تُرد .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ (١٠) من بني أسد ، عن ابن عباس - قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا ﴾ الآية - قال : فى شأن عائشة ، وأزواج النبى ﷺ ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ الآية [النور : ٤ ، ٥] ، قال : فجعل

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « والآخرة ولهم عذاب مهين » وهو خطأ . (٣) (٤ ، ٣) زيادة فى ف ، أ .

(٥) فى ف ، أ : « عندي جالس » . (٦) فى ف ، أ : « أوحى الله تعالى إليه » . (٧) فى ف ، أ : « بلغ » .

(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٢) .

(٩) فى ف : « وكان » . (١٠) فى ف ، أ : « العوام بن حوشب عن حوشب عن شيخ » .

لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة النور (١) .

ف قوله : « وهى مبهمة » ، أى : عامة فى تحريم قذف كل محصنة ، ولعنته فى الدنيا والآخرة . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم فى المسلمات ، فله ما قال الله ، عز وجل ، ولكن عائشة كانت إمام ذلك .

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم (٢) ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخى ابن وهب - حدثنا عمى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغيث (٣) ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال ، به (٤) . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحرانى ، حدثنى أبى ، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحرانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شعيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن أبى إسحاق ، عن صلالة بن زفر ، عن حذيفة ، عن النبى ﷺ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٥) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إنهم - يعنى : المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، قالوا : تعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيختم [الله] (٦) على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتُمون الله حديثاً .

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة ، عُرف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا ، فيقول : احلفوا . فيحلفون ، ثم يُصمّتهم الله ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة الكوفى ، حدثنا

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٣) .

(٢) فى ف ، أ : « الصحيح » . (٣) فى أ : « المغيب » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩) .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٣ / ١٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٢٧٩) : « وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف وقد يحسن حديثه ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده برقم (١٣٩٢) من طريق ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم به ، ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

مَنْجَابُ بْنُ الْحَارِثِ التَّمِيمِيُّ ^(١) ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْأَسَدِيُّ ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ ، عَنْ عُبَيْدِ الْمَكْتَبِ ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الْفُقَيْمِيِّ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَتَدْرُونَ ^(٢) مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « مِنْ مَجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ » يَقُولُ : بَلَى . يَقُولُ : لَا أَجِيزُ عَلَى شَاهِدٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي . يَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا ^(٣) . فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطَقِي ، فَتَنْطَقُ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ » .

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي النَّضْرِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ^(٤) الْأَشْجَعِيِّ ، عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ ، بِهِ ^(٥) . ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ : لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ غَيْرَ ^(٦) الْأَشْجَعِيِّ ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . هَكَذَا قَالَ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : ابْنُ آدَمَ ، وَاللَّهُ إِنْ عَلَيْكَ لَشُهُودًا غَيْرَ مَتَّهَمَةٍ فِي بَدَنِكَ ، فَرَاقِبَهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي سِرِّكَ ^(٧) وَعِلَانِيَتِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الظُّلْمَةُ عِنْدَهُ ضَوْءٌ ^(٨) ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عِلَانِيَةٌ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللَّهِ حَسَنَ الظَّنِّ ، فَلْيَفْعَلْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أَيُّ : حَسَابُهُمْ ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أَيُّ : حَسَابُهُمْ . وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ .

ثُمَّ إِنْ قَرَأْتَ الْجُمُوهَرَ بِنَصَبِ ﴿ الْحَقَّ ﴾ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لَدِينِهِمْ ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ بِالرَّفْعِ ، عَلَى أَنَّهُ نَعْتُ الْجَلَالَةِ . وَقَرَأَهَا بَعْضُ السَّلَفِ فِي مَصْحَفِ أَبِي بَكْرٍ : « يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ » ^(٩) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : وَعَدَهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ ، الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ ، لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالَ : وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الْإِفْكِ .

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَعَطَاءٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَالشَّعْبِيِّ ، وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، وَالضَّحَّاكِ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقَبِيحِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْكَلَامَ الطَّيِّبَ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ هُمْ

(١) فِي ف : « التَّمِيمِيُّ » . (٢) فِي ف : « تَدْرُونَ » . (٣) فِي ف ، أ : « شَهِيدًا » . (٤) فِي أ : « عَبْدُ اللَّهِ » .

(٥) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمِ (٢٩٦٩) .

(٦) فِي أ : « إِلَّا » . (٧) فِي أ : « سَرَاتُكَ » . (٨) فِي ف : « ضِيَاءٌ » . (٩) فِي أ : « يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ » .

أولى به ، وهى أولى بالبراءة والزهادة منهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ .
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيّب من كلّ طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعاً ولا قدراً ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ، ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي ﷺ فى الجنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار قال : جاء أسير^(٢) بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى . فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة غير طيبة^(٣) تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها^(٤) رجل عنده يتلها فيضمها إليه . وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها^(٥) الرجل الذى عنده يتلها^(٦) فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً : « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع ، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال : أجزرنى شاة . فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت . فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم^(٧) » . وفى الحديث الآخر : « الحكمة^(٨) ضالة المؤمن ، حيث وجدها أخذها »^(٩) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ .

(١) فى ف ، أ : « فأولئك » وهو خطأ . (٢) فى ف ، أ : « أسيد » . (٣) فى أ : « طائل » .

(٤ ، ٥) فى أ : « فسمعها » . (٦) فى أ : « مثلها » .

(٧) المسند (٢ / ٣٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٨) فى أ : « الكلمة » .

(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤١٦٩) من طريق عبد الله بن نمير ، عن إبراهيم بن الفضل ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم ابن الفضل المدنى المخزومى ، يضعف فى الحديث من قبل حفظه » .

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أى : يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغي أن يستأذن ثلاثاً ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت ^(١) فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رجعتك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، فليانصرف » . فقال : لتأتين على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملا من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد ^(٢) لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن ثابت ، عن أنس - أو : غيره ^(٤) - أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » . فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى ﷺ حتى سلم ثلاثاً . ورد عليه ^(٥) سعد ثلاثاً ولم يسمع . فرجع النبى ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، أبى وأنت وأمى ، ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة . ثم أدخله البيت ، فقرّب إليه زيباً ، فأكل نبى الله . فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » ^(٦) .

وقد روى أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عمرو الأوزاعى : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد ^(٧) بن زرارة ، عن قيس بن سعد - هو ابن عبادة - قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فردّ سعد ردّاً خفياً ^(٨) ، قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : ذره ^(٩) يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فردّ سعد ردّاً خفياً ^(١٠) ، ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ، ثم رجّع رسول الله ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، إني كنت أسمع تسليمك ، وأرد عليك ردّاً خفياً ^(١١) ، لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه [رسول الله ﷺ] ، فأمر له سعد بغسل ، فاغتسل ، ثم ناوله ملحقة مصبوغة ^(١٢) بزعفران - أو : ورس - فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرّب إليه سعد حماراً قد وطأ عليه بقטיפه ، فركب رسول الله ﷺ ، فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول

(١) فى أ : « وثبت » . (٢) فى أ : « لا تشهد » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٣) .

(٤) فى أ : « وغيره » . (٥) فى أ : « على » .

(٦) المسند (٣ / ١٣٨) .

(٧) فى أ : « أسعد » . (٨) فى أ : « خفياً » . (٩) فى أ : « ودعه » .

(١٠) فى أ : « خفياً » . (١١) فى أ : « خفياً » . (١٢) زيادة من أ ، وأبى داود .

اللَّهُ ﷺ . قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « اركب » . فأبيت ، فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » . قال : فانصرفت .

وقد روى هذا من وجه آخر ^(١) ، فهو حديث جيد قوى ، والله أعلم .
ثم ليَعْلَمُ أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن ^(٢) الباب عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود : حدثنا مُؤَمَّلُ بن الفضل الحرايى - فى آخرين - قالوا : حدثنا بَقِيَّةُ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن بُسر ^(٣) ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرَّدَ به أبو داود ^(٤) .

وقال أبو داود أيضاً : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، (ح) قال أبو داود : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حفص ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن هُزَيْل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن ، فقام على الباب - قال عثمان : مستقبل الباب - فقال له النبى ﷺ : « هكذا عنك - أو : هكذا - فإنما الاستئذان من النظر » ^(٥) .

وقد رواه أبو داود الطيالسى ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مُصَرِّف ، عن رجل ، عن سعد عن النبى ﷺ . رواه أبو داود من حديثه ^(٦) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فَحَذَفَتْه بحصاة ، ففقت عينه ، ما كان عليك من جناح » ^(٧) .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : أتيت النبى ﷺ فى دين كان على أبى ، فدققت الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه ^(٨) .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها ، وإلا ، فكل أحد يُعبّر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس بالمأمور به فى الآية .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكذا قال غير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بَشَّار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بَشْرٍ ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾

(١) سنن أبى داود برقم (٥١٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٥٧) ، (٥٠١٥٩) من طريق عبد الله عن الأوزاعى عن يحيى ابن أبى كثير عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان : أن رسول الله ﷺ أتى سعد بن عبادَةَ زائراً ، فذكر الحديث .

(٢) فى أ : « ليكون » . (٣) فى أ : « بشر » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٨٦) .

(٥) سنن أبى داود برقم (٥١٧٤) .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٨) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٢٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٧١١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٩) .

وَتَسَلِّمُوا^(١) قال : إنما هي خطأ من الكاتب ، « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » .

وهكذا رواه ^(٢) هُشَيْمٌ عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به . وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » ، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضى الله عنه . وهذا غريب جداً عن ابن عباس .

وقال هُشَيْمٌ ^(٣) : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : فى مصحف ابن مسعود : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » . وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا رَوْحٌ ، حدثنا ابن جُرَيْجٍ ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان : أن عمرو بن أبى صفوان أخبره ، أن كَلْدَةَ بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بِلِيبَاً وَجَدَايَةَ وَضَعَايِسَ ، والنبي ﷺ بأعلى الوادى . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن جريج ، به ^(٤) وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن رُبْعَى قال : حدثنا ^(٥) رجل من بنى عامر استأذن على النبي ﷺ ، وهو فى بيته ، فقال : أَلْجَ ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل ^(٦) . وقال هُشَيْمٌ : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عمرو بن سعيد الثقفى - أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال : أَلْجَ - أو : أنلج ؟ - فقال النبي ﷺ لأمة له ، يقال لها روضة : « قومى إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن ، فقولى له يقول : السلام عليكم ، أَدْخُلْ » . فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : « ادْخُلْ » ^(٧) .

وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عَنَسَةَ بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « السلام قبل الكلام » ^(٨) .

ثم قال الترمذى : عنبة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن زاذان مُتَكَرِّر الحديث . وقال هُشَيْمٌ : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ، فأتى قُسْطَاطَ امرأة من قریش ، فقال : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد ، فأعادت ،

(٣) فى أ : « سفيان » .

(٢) فى أ : « روى » .

(١) فى ف ، أ زيادة : « على أهلها » .

(٤) المسند (٣ / ٤١٤) .

(٥) فى أ : « جاء » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٧) .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٦٩٩) .

وهو يرأوح بين قدميه ، قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل ، فدخل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثنا خالد بن إياس ، حدثتني جدتي أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن [على عائشة] (٢) فقلت : ندخل ؟ قالت : لا ، قلن (٣) لصاحبتكن : تستأذن . فقالت : السلام عليكم ، أندخل ؟ قالت : ادخلوا ، ثم قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ [الآية] (٤) . وقال هشيم : أخبرنا أشعث بن سوار ، عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم . قال أشعث ، عن عدى بن ثابت : إن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها ، والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ؟ قال : فتزلى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (٥) .

وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال : ثلاث آيات جحدّها الناس : قال الله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً . قال : والإذن كله قد جحدّه الناس . قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخص (٦) لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضاً ، فقال : أحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن .

قال ابن جريج : وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك .

وقال ابن جريج ، عن الزهرى : سمعت هزبل بن شرحبيل الأودى الأعمى ، أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا .

وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، [قال] (٧) حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن حازم ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب ، رضى الله عنها ، قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأنتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق ؛ كراهية (٨) أن يهجم منا على أمر يكرهه (٩) . إسناده صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى هـ ، أ : « قلت » ، والمثبت من ف . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٦) فى أ : « على لمن خضرنى » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ف : « كراهة » .

(٩) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٨) .

الأعمش، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هُبَيْرَةَ ^(١) قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس - تكلم ورفع صوته .

[و] ^(٢) قال مجاهد : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا - أو ^(٣) : تَنَحَّمُوا .

وعن الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه .

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ : أنه نَهَى أن يطرق الرجل أهله طُرُوقاً - وفي رواية : ليلا يَتَخَوَّنُهُمْ ^(٤) .

وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً ، فأناخ بظاهرها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء - يعنى : آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الرحمن ^(٦) بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو سَوْرَةَ ابن أخي أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » . هذا حديث غريب ^(٧) .

وقال قتادة في قوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ ، قال : هو الاستئذان . [قال : وكان يقال : الاستئذان] ^(٨) ثلاث ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع ^(٩) الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقْفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ : كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول : حَيِّتَ صباحاً وحيت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : « قد دخلت » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغَيَّرَ الله ذلك كله ، في ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ .

(١) في ف ، أ : « عبدة » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) وصحيح مسلم برقم (٧١٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٧) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٦) فى هـ : « عبد الرحيم » .

(٧) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨ / ٦٠٧) ومن طريقه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٧٠٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير

(١٧٨ / ٤) ، حدثنا عبيد بن غنام عن أبى بكر بن أبى شيبة ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ١٧١) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « فليستمع » .

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين ^(١) : للمستأذن ولأهل البيت ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أى : إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ، ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أى : رجوعكم ^(٢) أزكى لكم وأطهر ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن عليّ بعض إخواني ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط ^(٣) [لقوله] ^(٤) : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ أى : لا تقفوا على أبواب الناس . وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ : هذه الآية الكريمة أخص من التى ^(٥) قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له ^(٦) فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أول مرة ، كفى .

قال ابن جرّيج : قال ابن عباس : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، ثم نسخ واستثنى فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ . وكذا روى عن عكرمة ، والحسن البصرى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالحانات ^(٧) ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم . وقال مالك عن زيد بن أسلم : هى بيوت الشعر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ^(٨) ، وأن يغضوا ^(٩) أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث يونس بن عبيد ، عن عمرو بن سعيد ، عن أبى زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلي ، رضى الله عنه ، قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرف بصرى . وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هُشَيْم ، عن يونس بن عبيد ، به . ورواه أبو داود والترمذى

(١) فى ف ، أ : « من الطرفين » .

(٢) فى أ : « رجعوكم » .

(٣) فى ف ، أ : « من الطرفين » .

(٤) فى ف ، أ : « لكم » .

(٥) فى أ : « الذى » .

(٦) فى ف ، أ : « من الطرفين » .

(٧) فى ف ، أ : « يغمصوا » .

(٨) فى ف : « إليهم » .

(٩) فى ف ، أ : « يغمصوا » .

والنسائي ، من حديثه أيضاً ^(١) . وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى رواية لبعضهم : فقال : « أشرق بصرى » ، يعنى : انظر إلى الأرض . والصرف أعم ؛ فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى ^(٢) جهة أخرى ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري ، حدثنا شريك ، عن أبي ربيعة الإيادى ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلّى : « يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » .

ورواه الترمذى من حديث شريك ^(٣) ، وقال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه . وفى الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقه » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غص البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » ^(٤) .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضل ^(٥) بن جبير : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا أوتى فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف . وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » ^(٦) .

وفى صحيح البخارى : « من يكفل ^(٧) لى ما بين لحييه وما بين رجليه ، أكفل له الجنة » ^(٨) . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : كل ما عصى الله به ، فهو كبيرة . وقد ذكر الطرّفين فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ . ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد ^(٩) والسنن :

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٥٩) والمسند (٤ / ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٢١٤٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٦) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٢٣٣) .

(٢) فى أ : « أو إلى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٧) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٥) فى هـ : « فضال » .

(٦) رواه الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (٧ / ٣٩٢) من طريق أبى القاسم البغوى ، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨ / ٣١٤) وابن حبان فى المجروحين (٢ / ٢٠٤) من طريق فضال بن جبير . ويقال : ابن زبير ، به . وقال ابن حبان : « فضال بن جبير لا يحل الاحتجاج به » .

(٧) فى أ : « كفل » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٩) فى أ : « المسند » .

« احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (١) .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ أى : أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ، كما قيل : « من حفظ بصره ، أورثه الله نوراً فى بصيرته » . ويروى : « فى قلبه » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عتّاب ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ، ثم يغضّ بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

وروى هذا مرفوعاً عن ابن عمر ، وحذيفة ، وعائشة ، رضى الله عنهم (٤) ، ولكن فى إسناده ضعف ، إلا أنها فى الترغيب ، ومثله يتسامح فيه .

وفى الطبرانى من طريق عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعاً : « لتغضن أبصاركم ، ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمن وجوهكم - أو : لتكسفن وجوهكم » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التستريّ قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، حدثنا هريم بن سفيان ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى ، أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » (٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّانَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ . فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ : النَّظَرُ . وَزَنَا اللِّسَانِ : النَّطْقُ . وَزَنَا الْأَذْنَيْنِ : الْاسْتِمَاعُ . وَزَنَا الْيَدَيْنِ : الْبَطْشُ . وَزَنَا الرِّجْلَيْنِ : الْخَطْيُ . وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهَى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » .

(١) المسند (٥ / ٣ ، ٤) وسنن أبى داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة ، رضى الله عنه .
(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) المسند (٥ / ٢٦٤) . وفى إسناده عبيد الله بن زحر ، قال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع فى إسناده خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن ، لم يكن ذلك الخبر إلا مما علمته أيديهم » .

(٤) أما حديث حذيفة ، فرواه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٣١٤) من طريق إسحاق القرشى عن هشيم عن عبد الرحمن عن إسحاق عن معارب عن صلة بن زفر عن حذيفة ، رضى الله عنه ، وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبى . قلت : إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه . وأما حديث ابن عمر ، فرواه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠١) من طريق أبى اليمان عن أبى المهدي عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وإسناده ضعيف جداً .

(٥) المعجم الكبير (٨ / ٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء .

(٦) المعجم الكبير (١٠ / ٢١٤) وقال الهيثمى فى المعجم (٨ / ٦٣) : « وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف » .

رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم مسنداً من وجه آخر (١) ، بنحو ما تقدم .
وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره (٢) إلى الأمرد . وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرّمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدينى (٣) ، حدثنا عمر بن سهل المازنى ، حدثنى عمر بن محمد بن صُهَبان ، حدثنى صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عين باكية (٤) يوم القيامة ، إلا عيناً غَضَّتْ عن محارم الله ، وعيناً سهرت فى سبيل الله ، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب ، من خشية الله ، عز وجل » (٥) .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) .

هذا (٦) أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيره (٧) منه لأزواجهن ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث : أن « أسماء بنت مرشدة » كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أى : عما حرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب [كثير من العلماء] (٨) إلى أنه : لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الزهري ، عن نبهان - مولى أم سلمة - أنه حدثه : أن أم سلمة حدثته : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » . فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧) .

(٢) فى أ : « نظره » . (٣) فى أ : « المقبرى » . (٤) فى أ : « زانية » .

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ١٦٣) من طريق داود بن عطاء عن عمر بن صهبان ، عن صفوان عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . فلا أدرى أسقط أبو سلمة من إسناد ابن أبى الدنيا أم لا ؟ وعمر بن صهبان منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه .

(٦) فى ف ، أ : « وهذا » . (٧) فى أ : « وعزة » . (٨) زيادة من ف ، أ .

فقال رسول الله ﷺ : « أو عَمِيَاوَان (١) أَتُتَمَّا؟ أَلَسْتُ مَا تَبْصِرَانِهِ » (٢) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَبْشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِحُرَابِهِمْ يَوْمَ الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَعَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ : وَهُوَ يَسْتَرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَّتْ وَرَجَعَتْ (٣) . وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت فى القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألا يراها أحد . وقال (٤) : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى : ولا يُظْهِرنَ شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه .

وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعنى : على ما كان يتعاناه نساء العرب ، من المقتنعة التى تُجَلَّلُ ثِيَابُهَا ، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه . [ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال (٥) بقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النَّخَعِي ، وغيرهم .

وقال الأعمش ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال : وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، وأبى الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النَّخَعِي ، وغيرهم - نحو ذلك . وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التى نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السبيعي ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال فى قوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القُرْطُ والدُمْلَجُ والخلخال والقلادة . وفى رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتَان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجانب ، وهى (٦) الظاهر من الثياب .

وقال الزهرى : [لا يبدو] (٧) لهؤلاء الذين سَمَّى الله عن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم .

وقال مالك ، عن الزهرى : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه :

حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكى ومُؤَمِّلُ بن الفضل الحرانى قالَا : حدثنا الوليد ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دُرَيْكٍ عن عائشة ، رضى الله عنها ؛ أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم

(١) فى أ : « أفعميَاوَان » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٤١١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٤) .

(٤) فى أ : « وقوله » . (٥ ، ٦ ، ٧) زيادة من ف ، أ .

يصلح أن يُرى منها إلا هذا « وأشار إلى وجهه وكفيه (١) .
لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي : هذا مرسل ؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة ، فإلله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَنَفَات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت (٢) عنقها وذوائب شعرها وأقرطه آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع .

قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ ﴾ : وليشددن ﴿ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شيء .

وقال البخارى : وقال أحمد بن شبيب (٣) : حدثنا أبى ، عن يونس ، عن (٤) ابن شهاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَقْنَ مِرْطَوهن فاختمرن به (٥) (٦) .

وقال أيضا : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صفية بنت شيبة ؛ أن عائشة ، رضى الله عنها ، كانت تقول (٧) : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزهرن فَشَقَقْنَهَا من قبل الخواشى ، فاختمرن بها (٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنى الزنجى بن خالد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ، رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلاً ، وإنى - والله - وما رأيت أفضلَ من نساء الأنصارِ أشدَّ تصديقاً بكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لقد أنزلت سورة النور : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة (٩) ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطَها المُرْحَل فاعتجرت به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات ، كأن على رؤوسهن الغربان .

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٤) .

(٢) فى ف : « ظهرت » .

(٣) فى هـ : « حدثنا أحمد بن شبيب » وفى ف ، أ : « حدثنا أحمد بن شبيب قال » والمثبت من البخارى .

(٤) فى ف ، أ : « قال » .

(٥) فى ف : « بها » وفى أ : « بهن » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٨) .

(٧) فى هـ ، ف : « رضى الله عنها قالت : لما » ، والمثبت من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٩) .

(٩) فى ف : « قرابته » .

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به (١) .
وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن قُرَّةَ بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ؛ أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَّقْنَ أَكْثَفَ مَرُوطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهِ . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعني : أزواجهن ، ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ﴾ ، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج (٣) .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى - يعني : ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبة - حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ - حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينتان (٤) ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني : تظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك - وإن كان محذوراً في جميع النساء - إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تبأشر المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » . أخرجاه في الصحيحين ، عن ابن مسعود (٥) .

وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عبادة بن نُسَيٍّ ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا (٦) يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها (٧) .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نساؤهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة .

وروى عبدُ في تفسيره (٨) ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال : هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

(١) سنن أبي داود برقم (٤١٠٠ ، ٤١٠١) .

(٢) تفسير الطبري (١٨ / ٩٤) وسنن أبي داود برقم (٤١٠٢) .

(٣) في أ : « بهرج » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٢٤١) .

(٦) في ف ، أ : « فإنه لا » .

(٧) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٩٥) من طريق سعيد بن منصور ، به .

(٨) في ف : « تفسير » .

(٤) في أ : « يتبعان » .

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَوْ نَسَائِهِنَّ ﴾ ، فليست ^(١) من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نسي : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو عمير ، حدثنا ضمرة قال : قال ابن عطاء ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبي ﷺ بيت المقدس ، كان قَوَابِلُ نسائهم اليهوديات والنصرانيات فهذا - إن صح - مَحْمُولٌ على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قال ابن جرير ^(٢) : يعنى : من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ؛ لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر] ^(٣) على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قَنَعَتْ به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلأمك » ^(٤) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه [فى] ^(٥) ترجمة حُذَيْجِ الحَصِىِّ - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ^(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن نبهان ، عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكن مَكَّابٌ ، وكان له ما يؤدى ، فلتحتجب منه » . ورواه أبو داود ، عن مُسَدَّدٍ ، عن سفيان ، به ^(٧) .

وقوله : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعنى : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وكه وخوٲ ^(٨) ، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذى لا شهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله .

وقال عكرمة : هو المخنث الذى لا يقوم زبه . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل

(١) فى ف : « فليس » ، وفى أ : « فلسن » .

(٢) فى أ : « جرير » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) سنن أبى داود برقم (٤١٠٦) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) تاريخ دمشق (٤ / ٢٧٨) المخطوط « .

(٧) المسند (٦ / ٢٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٩٢٨) .

(٨) فى ف ، أ : « وحب » .

رسول الله ﷺ ، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخلنَ عليكنَ » فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله ﷺ] (٢) وعندها مخنث ، وعندها [أخوها] (٣) عبد الله بن أبي أمية [والمخنث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبي أمية] (٤) ، إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر (٥) بثمان . قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٦) .
وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث ، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة . فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبي ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلنَ عليكم هذا » ، فحجبه .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي من طريق عبد الرزاق ، به (٧) .
وقوله : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن (٨) الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمى؟ قال : « الحمى الموت » .

وقوله : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت (٩) تمشى في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طينته ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً ، فتحركت بحركة لتظهر (١٠) ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ . ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتتم (١١) الرجال طيبها ، فقد قال أبو عيسى الترمذی :

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٨١) وزيادة : « فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة . . . الحديث » أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤١٠٩) من طريق الزهري ، به ، وليست في صحيح مسلم .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٥) في ف ، أ : « وتذهب » .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٠) وصحيح البخاري برقم (٥٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٠) .

(٧) المسند (٦ / ١٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٨١) وسنن أبي داود برقم (٤١٠٨) والنسائي في السنن الكبرى (٩٢٤٧) .

(٨) في ف : « كلامهم » . (٩) في ف : « كانت المرأة إذا كانت في الجاهلية » .

(١٠) في ف : « ليظهر » . (١١) في أ : « ليشم » .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن ثابت بن عُمارة الحنفي ، عن غُنَيْمِ ابن قيس ، عن أبي موسى ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعنى زانية (١) .

قال : وفى الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح .

رواه أبو داود والنسائي ، من حديث ثابت بن عُمارة ، (٢) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم بن (٣) عبيد الله ، عن عبيد مولى أبي رهم ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال : يا أمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : [وله] (٤) تَطَيَّبْتَ ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم (٥) ﷺ يقول : « لا يقبل الله صلاة امرأة تَطَيَّبَتْ لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غُسْلَهَا من الجنابة » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن سفيان - هو ابن عيينة - (٦) به .

وروى الترمذى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » (٧) . ومن ذلك أيضاً أنهم يُنْهَيْن عن المشى فى وسط الطريق ؛ لما فيه من التبرج . قال أبو داود :

حدثنا القَعْنَبِيُّ ، حدثنا عبد العزيز - يعنى : ابن محمد - عن (٨) أبي اليمان ، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصارى ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق - فقال رسول الله ﷺ للنساء : « استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ (٩) الطريق ، عليكن بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به (١٠) .

وقوله : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهى (١١) عنه ، والله تعالى هو المستعان [وعليه التكلان] (١٢) .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢) وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

(١) سنن الترمذى برقم (٢٧٨٦) .

(٢) سنن أبي داود برقم (٤١٧٣) وسنن النسائي (٨ / ١٥٣) .

(٣) فى ف : « عن » . (٤) زيادة من ف ، أ ، وأبى داود . (٥) فى ف : « رسول الله » .

(٦) سنن أبي داود برقم (٤١٧٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٢) .

(٧) سنن الترمذى برقم (١١٦٧) وقال الترمذى : « وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه وهو صدوق ، وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه » .

(٨) فى ف : « ابن » . (٩) فى ف : « تحتضن » ، وفى أ : « تختص » .

(١٠) سنن أبي داود برقم (٥٢٧٢) .

(١١) فى أ : « ما نهاه » . (١٢) زيادة من ف ، أ .

فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ : هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قَدَّرَ عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » . أخرجه من حديث ابن مسعود (١) .

وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله ﷺ قال : « تَزَوَّجُوا ، تَوَالِدُوا ، تَنَاسَلُوا ، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) . وفي رواية : « حتى بالسقط » .

الأيامى : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري عن أهل اللغة ، يقال : رجل أيم وامرأة أيم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد الأزرق ، حدثنا عمر بن عبد الواحد ، عن سعيد - يعنى : ابن عبد العزيز - قال : بلغنى أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ، ينجز [لكم] (٣) ما وعدكم من الغنى ، قال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . رواه (٤) ابن جرير ، وذكر البغوى عن عمر بنحوه .

وعن الليث عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٥) .

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٠) وسنن النسائى (٦ / ٦٥) .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « ورواه » .

(٥) المسند (٢ / ٢٥١) وسنن الترمذى برقم (١٦٥٥) وسنن النسائى (٦ / ٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) .

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد إلا إزاره ^(١) ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فروّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه [وإياها] ^(٢) ما فيه كفاية له ولها . فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا فقراء يغنكم الله » ، فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفي القرآن غنية عنه ، وكذا ^(٣) هذا الحديث الذى أوردناه ، ولله الحمد . وقوله : ﴿ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً [بالتعفف] ^(٤) عن الحرام ، كما قال - عليه الصلاة والسلام ^(٥) - : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وهذه ^(٦) الآية مطلقة ، والتي فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإماء خيراً ؛ لأن الولد يجىء رقيقاً ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض ^(٧) حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات [والأرض] ^(٨) حتى يغنيه الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا ^(٩) ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الشعبي : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه . وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطاء بن أبى رباح : إن يشأ يكتبه وإن لم يشأ لم يكتبه ^(١٠) . وكذا قال مقاتل بن حيان ، والحسن البصرى . وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر :

قال البخارى : وقال روح ، عن ابن جريج قلت لعطاء : [أوجب على إذا علمت له مالا أن كاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء] ^(١١) : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ، أن سيرين سأل أنساً المكاتب - وكان كثير المال ، فأبى .

(١) فى أ : « الإزاره » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « الإزاره » .

(٤) فى ف : « فهذه » .

(٥) فى ف : « ﷺ » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) فى ف : « فليقض » .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ف : « فليقض » .

(١٠) فى ف ، أ : « إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه » .

(١١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

فانطلق إلي عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأبى ، فضربه بالدرة ، وبتلو عمر ، رضى الله عنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ^(١) إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، فكاتبه ^(٢) .

هكذا ذكره البخارى تعليقا ^(٣) ، ورواه عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أوجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبا . وقال عمرو ^(٤) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سيرين أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبته . إسناد صحيح ^(٦) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا هشيم بن جوير ، عن الضحاك قال : هى عزمة .

وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى ، رحمه الله ، وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب ؛ لقوله ، عليه الصلاة والسلام ^(٧) : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » ^(٨) .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب .

وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . [وقال بعضهم : مالا] ^(٩) . وقال بعضهم : حيلة وكسبا .

وروى أبو داود فى كتاب المراسيل ، عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حُرْفَةً ، وَلَا تَرْسَلُوهُمْ كَلًا ^(١٠) عَلَى النَّاسِ » .

وقوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحو لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل ابن حيان . واختاره ابن جرير .

(١) فى ف : « وكاتبوهم » وهو خطأ .

(٢) صحيح البخارى (١٨٤ / ٥) فتح .

(٣) فى أ : « معلقا » .

(٤) فى أ : « عمر » .

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٩٨) من طريق عبد الرزاق به .

(٦) تفسير الطبرى (١٨ / ٩٨) .

(٧) فى ف : « ﷺ » .

(٨) رواه أحمد فى مسنده (٧٢ / ٥) من حديث عم أبى حرة الرقاشى ، وفى (٤٢٥ / ٥) من حديث أبى حميد الساعدى ، وفى

(٤٢٣ / ٣) من حديث عمرو بن يربى .

(٩) فى ف ، أ : « كليا » .

(٩) زيادة من ف ، أ .

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ في قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ قال : حَثَّ النَّاسَ عَلَيْهِ ^(١) ، مولاة وغيره . وكذلك قال بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ ، وقتادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقد تقدّم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة حق على الله عونهم » : فذكر منهم المكاتب يريد الأداء ، والقول الأول أشهر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا وكيع ، عن ابن شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أنه كاتب عبداً له ، يكنى أبا أمية ، فجاء بنجمه حين حل ، فقال : يا أبا أمية ، اذهب فاستعن به في مكاتبتك . قال : يا أمير المؤمنين ، لو تركته حتى يكون من آخر نجم ؟ قال : أخاف ألا أدرك ذلك . ثم قرأ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، قال عكرمة : كان ^(٢) أول نجم أدى في الإسلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبسة ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبيرة قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه ، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته . ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته ، وضع عنه ما أحب ^(٣) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ قال : يعني : ضبعوا عنهم من مكاتبهم . وكذلك قال مجاهد ، وعطاء ، والقاسم بن أبي بزة ، وعبد الكريم بن مالك الجزري ، والسدي .

وقال محمد بن سيرين في قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جريج ، أخبرني عطاء بن السائب : أن عبد الله بن جندب أخبره ، عن علي ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ربع الكتابة » ^(٤) .

وهذا حديث غريب ، ورفع منكر ، والأشبه أنه موقوف على علي ، رضي الله عنه ، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي ، رحمه الله ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين ^(٦) عن ذلك .

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي بن سلول [المنافق] ^(٧) ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البغاء طلباً لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم [قبحه الله ولعنه] ^(٨) .

(١) في ف ، أ : « على » . (٢) في ف ، أ : « فكان » .

(٣) تفسير الطبري (١٨ / ١٠١) .

(٤) ورواه عبد الرزاق في المصنف برقم (١٥٥٨٩) من طريق ابن جريج ، به . وقال : « قال ابن جريج : وأخبرني غير واحد عن عطاء ابن السائب أنه كان يحدث بهذا الحديث ، لا يذكر فيه النبي ﷺ » .

(٥) ورواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (١٥٥٩٠) من طريق معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، به .

(٦) في ف ، أ : « المؤمنين » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

[ذكر الآثار ^(١) الواردة في ذلك] ^(٢) :

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا أحمد ابن داود الواسطي ، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني : محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول ، يقال لها : معاذة ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر في هذه الآية : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ قال : نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها : مُسَيِّكَة ، كان يكرهها على الفجور - وكانت لا بأس بها - فتأبى . فأنزل الله ، عز وجل ، هذه الآية إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) .

وروى النسائي ، من حديث ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر نحوه ^(٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا علي بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثني أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها : مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

صرح الأعمش بالسماع من أبي سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : « لم يسمع منه ، إنما هو صحيفة » حكاه البزار .

قال أبو داود الطيالسي ، عن سليمان بن معاذ ، عن سمالك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية ، فولدت أولاداً من الزنا ، فقال لها : ما لك لا تزنين؟ قالت ^(٦) : لا ، والله لا أزني . فضربها ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ^(٧) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهري : أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً ، وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها : معاذة ، وكان القرشي الأسير يريدتها على نفسها ، وكانت مسلمة ^(٨) ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاء أن تحمل للقرشي ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ^(٩) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) في أ : « الأحاديث » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٠) « كشف الأستار » وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٨٣) : « فيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب » .

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٨ / ١٠٣) من طريق الأعمش به .

(٥) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٦٥) من طريق ابن جريج عن أبي الزبير ، به .

(٦) في ف : « فقالت » .

(٧) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٢٨٤) من طريق أبي داود الطيالسي ، به .

(٨) في أ : « تسلم » .

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٠) .

وقال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يعذرنى من محمد ، يغلبنا على مملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما ، إحداهما اسمها مُسَيِّكة ، وكانت للأنصارى ، وكانت أئمة أم مسيكة لعبد الله بن أبى ، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبي ﷺ ، فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ يعنى : الزنا .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدَنْ تَحْصِنًا ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له .
وقوله : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ [الدنيا] ﴾ (١) أى : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغى وحلوان الكاهن (٢) - وفى رواية : « مهر البغى خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » (٣) .
وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [أى : لهن ، كما تقدم فى الحديث عن جابر .

وقال ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم (٤) وإثمهن على من أكرههن : وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراسانى ، والأعمش ، وقتادة .
وقال أبو عبيد : حدثنى إسحاق الأزرق ، عن عوف ، عن الحسن فى هذه الآية : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال : لهن والله . لهن والله .
وعن الزهرى قال : غفور لهن ما أكرهن عليه .
وعن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .
حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله ، حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جبیر قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ (٥) رَحِيمٌ » وإثمهن على من أكرههن .
وفى الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » (٦) .

(١) زيادة من ف ، أ . وهو الصواب .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٦٧) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن » ، وأما كسب الحجام ، فروى ابن ماجه فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عقبة بن عمرو : « نهى النبى ﷺ عن كسب الحجام » .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٦٤) من حديث رافع بن خديج ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « غفور لهن » .

(٦) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٤٣) وقد سبق الكلام عليه فى سورة الأعراف .

ولما فصل تعالى (١) هذه الأحكام وبينها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ، ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبراً عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] .

﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه . قال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى من (٣) غيره أضله الله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٥) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض .

وقال ابن جرير : قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجمهما وشمسهما وقمرهما .

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، حدثنا وهب بن راشد ، عن فرقد ، عن أنس بن مالك قال : إن إلهى يقول : نورى هداى . واختار هذا القول ابن جرير ، رحمه الله .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب فى قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل [الله] (٤) الإيمان والقرآن فى صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به . قال : فكان أبى بن كعب يقرأها : « مثل نور من آمن به » (٥) ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره .

وهكذا قال (٦) سعيد بن جبير ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « نور من آمن بالله » .

وقرأ بعضهم : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

وعن الضحاك : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

(١) فى ف ، أ : « ولما فصل تعالى » . (٢) فى ف ، أ : « عز وجل » . (٣) فى أ : « فى » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى أ : « بالله » .

(٦) فى ف : « روى » .

وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض .
وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى دعائه
يوم آذاه أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا
والآخرة ، أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا
بك (١) » (٢) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك
الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن
فيهن » الحديث (٣) .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من
نور وجهه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى الله ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس
﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ .

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن
الذى فى قلبه ، كمشكاة . فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن
المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود :
١٧] ، فشبّه قلب (٤) المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما
يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله (٥) : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وغير واحد : هو
موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذبالة التى
تضىء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس [فى] (٦) قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله
مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ . والمشكاة : كوة فى البيت - قال :
وهو مثل ضربته الله لطاعته (٧) . فسمى الله طاعته نوراً ، ثم سمّاها أنواعاً شتى .

وقال ابن أبى نجيج ، عن مجاهد : الكوة بلغة الحبشة . وزاد غيره فقال : المشكاة : الكوة التى
لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحداث التى يعلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هى موضع الفتيلة من القنديل ؛ ولهذا قال : ﴿ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو النور الذى فى الذبالة .

(١) فى ف ، أ : « بالله » .

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٤٢٠) عن ابن إسحاق .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٠) وصحيح مسلم برقم (٧٦٩) .

(٤) فى ف ، أ : « القلب » .

(٥) فى أ : « وقوله » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) فى ف : « لاهل طاعته » .

قال أبى بن كعب : المصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره .
وقال السدى : هو السراج .

﴿ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية .

قال أبى بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن . ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ : قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة ، من الدر ، أى : كأنها كوكب من در .
وقرأ آخرون : « درىء » و « درىء » بكسر الدال وضمها مع الهمز ، من الدرء وهو الدفع ؛
وذلك أن النجم إذا رمى به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درارى .

قال أبى بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبين ضخم .

﴿ يُوقَدُ ۙ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا فى غربها فيتقلص عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تفرعه (٢) الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبى قيس ، عن سمك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : شجرة بالصحراء ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يوارىها شيء ، وهو أجود لزيتها .

وقال يحيى بن سعيد القطان ، عن عمران بن حدير ، عن عكرمة ، فى قوله : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عمر بن فروخ ، عن حبيب بن الزبير ، عن عكرمة - وسأله رجل عن : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال (٣) : تلك [زيتونة] (٤) بأرض فلاة ، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت .
وقال مجاهد فى قوله : ﴿ [زَيْتُونَةٍ] (٥) لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت [(٦) وإذا غربت .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ قال : هو أجود الزيت . قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق ، فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .
وقال السدى [فى] (٧) قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ يقول : ليست بشرقية يحوزها

(٣) فى ف ، أ : « فقال » .

(٢) فى هـ ، أ : « تقصرها » والمثبت من ف .

(١) فى ف ، أ : « توقد » .

(٤ - ٧) زيادة من ف ، أ .

المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهار كله .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب ، فى قول الله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : فهى خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أى حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت . قال : فكذلك هذا المؤمن ، قد أجبر من أن يصيبه شئ من الفتن ، وقد ابتلى بها فيشبهه الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، فهو فى سائر الناس كالرجل الحى يمشى فى قبور الأموات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد قال : حدثنا أبو عوَّانة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوقى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى شجرة فى موضع من الشجر ، يرى ظل ثمرها فى ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدَّشْتَكِي ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية . وقال محمد بن كعب القرظى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى القبلىة . وقال زيد بن أسلم : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : الشام .

وقال الحسن البصرى : لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله لنوره .

وقال الضحَّاك ، عن ابن عباس : ﴿ تَوْقُدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ قال : رجل صالح ، ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : لا يهودى ولا نصرانى .

وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تفرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها والطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله .

وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت .

وقال أبى بن كعب : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثنى عن قول الله : ﴿ يَكَادُ

زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ قال : يكاد محمد يبين للناس ، وإن ^(١) لم يتكلم ، أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء .

وقال السدّي في قوله : ﴿ نُوْرٌ عَلَى نُوْرٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتماعا أضواء ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله [بن] ^(٣) الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله ، عز وجل » ^(٤) .

طريق أخرى عنه : قال البزار : حدثنا أيوب ^(٥) بن سُوَيْد ، عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ^(٦) ضل . [ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر ، بلفظه وحروفه] ^(٧) ^(٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر : حدثنا أبو معاوية - يعنى ^(٩) شيبان - عن ليث ، عن عمرو ابن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصَفَّح : فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراج فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] ^(١٠) ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصَفَّح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى المديتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . إسناده جيد ^(١١) ولم يخرجوه .

(١) فى ف ، أ : « ولو » .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٤) المسند (٢ / ١٧٦) .

(٥) فى ف ، أ : « قال البزار : حدثنا شهاب بن عثمان حدثنا أيوب » . (٦) فى ف ، أ : « أخطأ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) مسند البزار برقم (٢١٤٥) « كشف الأستار » ، ورواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٩٧) من طريق محمد بن مهاجر عن عروة بن

رويم عن ابن الديلمى عن عبد الله بن عمرو ، به .

(٩) فى هـ : « حدثنا » والمثبت من ف ، أ ، والمسند .

(١٠) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(١١) المسند (٣ / ١٧) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ .

لما ضرب الله تعالى [مثل] (١) قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ أى : أمر الله تعالى برفعها ، أى : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ قال : نهى ، الله سبحانه ، عن اللغو فيها . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبیر ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى حنّمة (٢) ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين (٣) .

وقال قتادة : هي هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، بينهاها ورفعها ، وأمر بعمارها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : إن فى التوراة مكتوباً : « ألا إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإنه من توضع فأحسن وضوءه ، ثم زارنى فى بيتى أكرمته ، وحقّ على المزور كرامة الزائر » . رواه عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطيبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر (٤) هاهنا طرفاً من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجه فى الصحيحين (٥) .

وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله ، بنى الله له بيتاً فى الجنة » (٦) .

وللنسائي عن عمرو بن عبّسة (٧) مثله (٨) . والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف

(١) زيادة من ف ، ا . (٢) فى ف ، ا : « خيمة » . (٣) فى ف ، ا : « التفسير » . (٤) فى ف : « سنذكر » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٠) وصحيح مسلم برقم (٥٣٣) .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٣٥) من طريق الوليد بن أبى الوليد عن عثمان بن عبد الله عن عمر . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٠) : « هذا إسناد مرسل ، عثمان بن عبد الله بن سراقه روى عن عمر وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه . قاله المزى » .

(٧) فى ا : « عبسة » .

(٨) سنن النسائي (٢ / ٣١) .

وتطيب (١) . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي . ولأحمد وأبي داود ، عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب نحوه (٢) .

وقال البخارى : قال عمر : ابن للناس ما يَكْنَهُم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس (٣) .
وروى ابن ماجه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » (٤) . وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أمرت بتشديد المساجد » . قال ابن عباس : لَتَزَخَرُفُنَهَا كَمَا زَخَرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (٥) .

وعن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى (٦) .

وعن بُرَيْدَةَ أن رجلاً أنشد فى المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبى ﷺ : « لا وجدت » ، إنما بُنِيت المساجد لما بُنِيت له . رواه مسلم (٧) .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن (٨) ، وقال الترمذى : حسن .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد ، فقولوا : لا أبيع الله تجارتك . وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا رد الله عليك » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب (٩) .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعاً ، قال : « خصال لا تنبغى فى المسجد : لا يتخذ طريقاً ، ولا يُشهر فيه سلاح ، ولا يُنبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يُمر فيه بلحم نيئ : ولا يضرب فيه حدٌ ، ولا يقتص فيه من أحد ، ولا يتخذ سوقاً » (١٠) .

وعن واثلة بن الأسقع ، عن رسول الله ﷺ قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيفوكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها فى الجمع » .

(١) المسند (٢٧٩ / ٦) وسنن أبى داود برقم (٤٥٥) وسنن الترمذى برقم (٥٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٥٩) .

(٢) المسند (٥ / ١٧) وسنن أبى داود برقم (٤٥٦) .

(٣) صحيح البخارى (١ / ٥٣٩) « فتح » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٧٤١) من طريق جبارة بن المغلس عن عبد الكريم بن عبد الرحمن عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٢) : « هذا إسناده فى جبارة بن المغلس وقد اتهم » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٤٨) .

(٦) المسند (٣ / ١٣٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٩) وسنن النسائي (٢ / ٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٣٩) .

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٦٩) .

(٨) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (١٠٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢) وسنن النسائي (٢ / ٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٧٤٩) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣١٢١) .

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٧٤٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٤) : « هذا إسناده فى زيد بن جبيره . قال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف » .

ورواه ابن ماجة أيضاً^(١) ، وفي إسنادهما^(٢) ضعف .
 أما أنه « لا يتخذ طريقاً » ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا الحاجة إذا وجد مندوحة عنه .
 وفي الأثر : « إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلى فيه » .
 وأما أنه « لا يشهر فيه سلاح »^(٣) ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل^(٤) ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحداً ، كما ثبت في الصحيح^(٥) .
 وأما النهى عن المرور باللحم النيئ فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث .
 وأما أنه « لا يضرب فيه حد أو يقتص » ، فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .

وأما أنه « لا يتخذ سوقاً » ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبي ، عليه الصلاة والسلام ،^(٦) لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : « إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسجل من ماء ، فأهريق على بوله^(٧) .

وفي الحديث الثاني : « جنبوا مساجدكم صبيانكم » ؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، إذا رأى صبيّاً يلعبون في المسجد^(٨) ، ضربهم بالمخففة - وهى الدرة - وكان يعس^(٩) المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحداً .
 « ومجانينكم » يعنى : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم ، فيؤدى إلى^(١٠) اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ، ونحو ذلك .
 « وبيعكم وشراءكم » ، كما تقدم .

« وخصوماتكم » يعنى : التحاكم والحكم فيه ؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية فى المسجد ، بل يكون فى موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط^(١١) الذى لا يناسبه ؛ ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجعدي^(١٢) بن عبد الرحمن قال : حدثنى^(١٣) يزيد بن خَصِيفَة^(١٤) ، عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائماً فى المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر^(١٥) بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتني بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالوا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل

(١) سنن ابن ماجة برقم (٧٥٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٥) : « هذا إسناده ضعيف ، أبو سعيد هو محمد بن سعيد المصلوب ، قال أحمد : عمداً كان يضع الحديث ، ثم قال : والحارث بن نيهان ضعيف » .

(٢) فى ف ، أ : « إسناده » . (٣) فى أ : « السلام » . (٤) فى ف : « بنبل » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦١٥) من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٦) فى أ : « ﷺ » .

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٨) فى ف : « فيه » . (٩) فى ف ، أ : « يقتش » . (١٠) فى أ : « على » .

(١١) فى أ : « والغيظ » . (١٢) فى ف ، أ : « الجعد » . (١٣) فى ف ، أ : « عن » .

(١٤) فى ف ، أ : « حفصة » . (١٥) فى ف ، أ : « فإذا هو عمر » .

البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ (١) .

وقال النسائي : حدثنا سُوَيْدُ بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضاً صحيح (٢) .

وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » : تقدماً (٣) .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المطاهر » ، يعنى : المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار (٤) يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضؤون وغير ذلك .

وقوله : « وجمروها في الجمع » يعنى : بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عبيد الله ، حدثنا عبد الرحمن (٥) بن مهدي ، عن عبد الله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر ؛ أن عمر كان يُجَمِّرُ مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به (٦) ، والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه ، خمساً وعشرين ضعفاً . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه (٧) ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجها إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفِعَ له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مُصَلَّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » (٨) .

وعند الدارقطني مرفوعاً : « لا صلاة بلجار المسجد إلا في المسجد » (٩) .

وفي السنن : « بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة » (١٠) .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو (١١) ، رضى الله عنه (١٢) ، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال :

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٠) .

(٢) وذكره المزى في تحفة الأشراف (٨ / ٤) وعزه للنسائي في السنن الكبرى في المواظ .

(٣) فى أ : « تقدم » . (٤) فى أ : « أباريق » . (٥) فى أ : « عبد الله » .

(٦) مسند أبى يعلى (١ / ١٧٠) .

(٧) فى ف ، أ : « الوضوء » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (٦٤٩) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) سنن الدارقطني (١ / ٤٢٠) من طريق سليمان بن داود اليمامى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً ، به . وقد رواه الحاكم فى المستدرک (١ / ٢٤٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣ / ٥٧) من طريق سليمان بن داود ، به . وسليمان بن داود مجمع على تضعيفه . ومن حديث جابر ، رواه الدارقطني أيضاً فى السنن (١ / ٤٢٠) من طريق محمد بن مسكين عن عبد الله بن بكير عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً ، به . وقال أبو الطيب فى التعليق : « فيه محمد بن مسكين ، قال الذهبى : لا يعرف وخبره منكر . وقال البخارى : فى إسناده حديثه نظر » .

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٦١) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب ، رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه مرفوع ، وهو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبى ﷺ ، ولم يسند إلى النبى ﷺ » .

(١١) فى أ : « عمر » . (١٢) فى ف ، أ : « عنهما » .

« أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » [قال : أقط ؟ قال : نعم] (١) . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفَظَ مِنِّي سائر اليوم (٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو : أبي أسيد - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » .

ورواه النسائي عنهما ، عن النبي ﷺ (٣) [مثله] (٤) (٥) .

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبي ﷺ وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل : اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن عبد الله بن حسن (٧) ، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم ، اغفر لي ذنوبى ، وافتح لي أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم ، اغفر لي ذنوبى ، وافتح لي أبواب فضلك » .

ورواه الترمذى وابن ماجه (٨) ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن وإسناده ليس بم متصل ؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .

فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك لحال الطول (٩) ، كله داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ ﴾ أى : اسم الله ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

قال ابن عباس : ﴿ وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله : ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى : فى البكرات والعشيَّات . والآصال : جمع أصيل ،

(١) زيادة من أ .

(٢) لم أجده فى صحيح البخارى ، وقد ذكره المزي فى تحفة الأشراف وابن الأثير فى جامع الأصول ولم يعزواه إلا لأبى داود فى السنن برقم (٤٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « رسول الله » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣) وسنن النسائي (٢ / ٥٣) .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٧٣) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (٢٠٤٨) « الإحسان » كلهم من طريق أبى بكر الحنفى عن الضحاك بن عثمان عن المقبرى عن أبى هريرة ، به . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٩٧) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « حسين » .

(٨) المسند (٦ / ٢٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣١٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٧١) .

(٩) فى ف ، أ : « لجافى القول » .

وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .
وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالأصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده .
وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعني : الصلاة .
ومن قرأ من القراءة (١) : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ - بفتح الباء من « يُسَبِّح » على أنه مبنى لما لم يسم فاعله - وقف (٢) على قوله : ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ وقفًا تامًا ، وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر (٣) :
لَيْتَكَ يَزِيدُ ، ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

كأنه قال : من يبيكه ؟ قال : هذا يبيكه . وكأنه قيل : من يسبح له فيها ؟ قال : رجال .
وأما على قراءة مَنْ قرأ : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ - بكسر الباء - فجعله فعلا ، وفاعله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ ، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل ؛ لأنه تمام الكلام .

فقوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عُمَارًا للمساجد ، التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثني عمرو ، عن أبي السمح ، عن السائب - مولى أم سلمة - عن أم سلمة ، رضى الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير مساجد النساء [قعر] (٥) بيوتهن » (٦) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا هارون ، أخبرني عبد الله بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد الله بن سويد الأنصاري ، عن عمته أم حميد - امرأة أبي حميد الساعدي - : أنها جاءت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إني أحب الصلاة معك قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدى » . قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه (٧) ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله ، عز وجل . لم يخرجوه (٨) .

(١) في ف ، أ : « القراءة » . (٢) في ف : « ويقف » .

(٣) ينسب للشاعر نهشل بن حري ولغيره ، وهو من شواهد الكتاب لسبويه (١ / ١٤٥) والمقتضب للمبرد (٣ / ٣٨٢) ومغنى اللبيب لابن هشام الشاهد رقم (١٠٤٨) ١ - هـ ، مستفاداً من حاشية الشعب .

(٤) سنن أبي داود برقم (٥٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٧) .

(٧) في هـ : « بيوتها والله » وفي ف ، أ : « بيتها والله » ، والمثبت من المسند .

(٨) المسند (٦ / ٣٧١) .

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (١) .

رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : « وليخرجن وهن ثفلات » (٣) أى : لا ريح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » (٤) .

وفى الصحيحين عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : كان نساء المؤمنين (٥) يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ، ما يعرفن من الغلس (٦) .

وفى الصحيحين أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل (٧) .

وقوله : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وريحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أى : يقدمون طاعته ومركاه ومحبه على مرادهم ومحبتهم .

قال هُشَيْمٌ : عن سَيَّار (٨) : [قال] (٩) حَدَّثْتُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ ، حَيْثُ نُودِيَ بِالصَّلَاةِ ، تَرَكَوا بَيَاعَاتِهِمْ وَنَهَضُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١٠) .

وهكذا روى عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أنه كان فى السوق (١١) فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم

(١) صحيح البخارى برقم (٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٢) .

(٢) المسند (٧٦ / ٢) وسنن أبى داود برقم (٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما .

(٣) وهى فى المسند (٤٣٨ / ٢) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) صحيح مسلم برقم (٤٤٣) .

(٥) فى ف ، أ : « المؤمنات » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٨) وصحيح مسلم برقم (٦٤٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٨٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٤٥) .

(٨) فى ف ، أ : « شيبان » .

(٩) زيادة من ف ، أ .

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١١٣) .

(١١) فى ف ، أ : « بالسوق » .

نزلت : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ^(١) .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر ^(٢) الصنعاني ، حدثنا أبو سعيد مولى بنى
هاشم ^(٣) ، حدثنا عبد الله بن بُجَيْر ، حدثنا أبو عبد رب ^(٤) قال : قال أبو الدرداء ، رضى الله عنه :
إني قمت ^(٥) على هذا الدرج أبياع عليه ، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة في كل يوم في
المسجد ، أما إني لا أقول : « إن ذلك ليس بحلال » ، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله :
﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق
المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم
هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبي الحسن ، والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها .
وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشتررون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده
خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن
الصلاة المكتوبة . وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .
وقال السدي : عن الصلاة في جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم ^(٦) الله ،
وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحفظهم الله فيها .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب
والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾
[إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ
اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَاهُمْ نَصْرُهُ وَرُؤُوسُ الْإِنسَانِ [٨ - ١٢] .

وقال هاهنا ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا
ويتجاوز عن سيئاتهم :

وقوله : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكْ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال
تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا
حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يضاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة :

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ١١٣) .

(٢) فى ف ، أ : « بكير » . (٣) فى أ : « هشام » . (٤) فى ف ، أ : « عبد ربه » .

(٥) فى أ : « أمت » . (٦) فى ف ، أ : « أمر » .

[٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وعن ابن مسعود : أنه جىء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطراً فشربه ، ثم تلا قوله تعالى (١) : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ، رواه النسائي ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عنه (٢) .

وقال [ابن أبي حاتم] (٣) أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فناد بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فيقومون ، وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق » (٤) .

وروى الطبراني ، من حديث بَقِيَّةَ ، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : ٣٠] قال : ﴿ أَجُورَهُمْ ﴾ يدخلهم الجنة ، ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (٥) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقًا حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين في أول « البقرة » (٦) مثلين نارياً ومائياً ، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة « الرعد » (٧) مثلين مائياً ونارياً ، وقد تكلمنا على كل منها (٨) في موضعه بما أغنى عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .
فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن (٩) بعد كونه بحر طام .

(١) في ف ، أ : « عز وجل » .

(٢) ذكره المزي في تحفة الأشراف برقم (٩٤٣٥) وعزا للنسائي في المواظ .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ورواه هناد في الزهد برقم (١٧٦) من طريق أبي معاوية عن عبد الرحمن بن إسحاق ، به . وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف .

(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٠ / ٢٤٨) وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة النساء : « هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد » .

(٦) عند الآية : ١٧ ، والآية : ١٩ . (٧) عند الآية : ١٧ . (٨) في ف ، أ : « منهما » . (٩) في ف : « من » .

والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل (١) فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصدته ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قيل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا روى عن أبي بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد .

وفى الصحيحين (٢) : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتُم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافون فيها (٣) .

وهذا المثل مثال لذوى الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الطمطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ . قال قتادة : وهو العميق . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا [هو] (٤) يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ : يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وكقوله (٥) : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقال أبى بن كعب فى قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار .

وقال الربيع بن أنس ، والسددي نحو ذلك أيضاً .

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وهذا [فى] (٦)

(١) فى أ : « الأول » . (٢) فى أ : « الصحيح » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٨١) وصحيح مسلم برقم (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى أ : « وقوله » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

مُقابِلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُه من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدتها إليه ، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، عز وجل .

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ؛ ولهذا (١) قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقُ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرقه ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ أى : متراكماً ، أى : يركب بعضه بعضاً ، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : من خلكه . وكذا (٢) قرأها ابن عباس والضحاك .

قال عبيد بن عمير الليثى : يبعث الله الميثرة فتَقَمُّ الأرض قمأً ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث [الله] (٣) اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، رحمهما الله .

وقوله : ﴿ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : للتبويض ، والثالثة : لبيان الجنس . وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من

(١) زيادة من ف .

(٢) فى ف ، أ : « وكذلك » .

(٣) فى ف ، أ : « ولذا » .

المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ ومعناه : أن في السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البرد . وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة ^(١) عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بَدَلٌ من الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر ^(٢) ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عمن يشاء [أى : ^(٣) رحمة بهم] .

وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلاً ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : لدليلاً على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤٥) .

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع [المخلوقات] ^(٤) ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطيور ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٦) .

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم ^(٥) والأمثال البينة المحكمة ، كثيراً ^(٦) جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الأبواب والبصائر والنهى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

(٣) فى ف : أ . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « المحكمات ما هو كثير » .

(١) فى ف : أ : « كناية » . (٢) فى ف : « المطر والبرد » .
(٥) فى هـ : « من الحكم والحكم والأمثال » . والمثبت من ف ، أ .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بالستهم : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ : ٦١] .

وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء بن (١) أبى ميمونة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً : « من دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يَجِبْ ، فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثم . فإذعانه أو لاس لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحق قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات .

وقوله : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال :

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧ / ٢٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٨) : « فيه روح بن عطاء ، وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبي ﷺ وهو مُحَقَّقٌ أذعن ، وعلم أن النبي ﷺ سيقضى له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان . فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء ، فدعى إلى حكم من حُكِّمَ المسلمين فأبى أن يجيب ، فهو ظالم لا حق له » (١) .

وهذا حديث غريب ، وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغيون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى : سمعاً وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب ، فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ : ذكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقيباً بدرية ، أحد نقيب الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك . وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بأوآحا ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وذكر (٢) لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

رواه ابن أبى حاتم . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] (٣) كثيرة جداً ، أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فيما أمراه به وترك (٤) وما نهياه (٥) عنه ، ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من ذنوبه ، ﴿ وَيَتَّقَهُ ﴾ فيما يستقبل .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمّنوا من كل شر (٦) فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ .

(١) ورواه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مرسل كما فى الدر المنثور (٦ / ٢١٣) .

(٢) فى ف : « وذكروا » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « ويترك » .

(٥) فى ف ، أ : « نهيا » . (٦) فى ف ، أ : « سوء » .

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرهم ^(١) بالخروج [فى الغزو] ^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَقْسِمُوا ﴾ أى : لا تحلفوا .

وقوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ : قيل : معناه ^(٣) : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد علمت طاعتكم ، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتكم كذبتكم ، كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجيئتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ، فالحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق ^(٤) - فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شئ من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهرها خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ وَإِنْ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا ﴾ ؛ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل - يقال له : شعيا - : أن قم فى بنى إسرائيل فإننى سأطلق لسانك بوحى . فقام فقال : يا سماء اسمعى ، يا أرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأناً ويدبر أمراً هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والأجام ^(٥) فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقر ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أمياً من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مبشراً ونذيراً ، لا يقول

(١) فى ف ، أ : « أمرتهم » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « الأجسام » .

(٤) فى ف : « المحلوف » .

(٥) فى ف ، أ : « تقديره » .

الحنّا ، أفتح به أعينا عميًا ، وأذنًا صمًا ، وقلوبًا غُلْفًا ، وأسَدَّه لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقون بما جاءت به رُسُلِي . رواه ابن أبي حاتم (١) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥ ﴾ .

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ (٢) ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاء عليهم ، وبهم تصلح (٣) البلاد ، وتخضع (٤) لهم العباد ، وليبدلنَّ بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ، وله الحمد والمنة ، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصحمة ، رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فلمَّ شعث ما وهى عند (٥) موته ، عليه الصلاة والسلام (٦) ، وأطدَّ جزيرة العرب ومهداها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، ففتحوا طرفاً منها ، وقتلوا خلقاً من أهلها . وجيشاً آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى الله عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بُصرى ودمشق ومخاليقهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياماً تاماً ، لم يدُر الفلك بعد الأنبياء [عليهم السلام] (٧) على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسّر كسرى وأهانته غاية الهوان ، وتقهر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر

(١) وروى عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما فى الشفاء للقاضى عياض (١ / ١٥) .

(٢) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٣) فى ف ، أ : « يصلح » . (٤) فى ف ، أ : « ويخضع » .

(٥) فى ف : « بعد » . (٦) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت الممالك ^(١) الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح ^(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » ^(٣) . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل ^(٤) الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبی ﷺ بكلمة خفيت عنى ^(٥) فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : « كلهم من قريش » .

ورواه البخارى من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، به ^(٦) .

وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر ^(٧) .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعاً ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت ^(٨) بعدهم ^(٩) فترة ، ثم وجد منهم ما شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى وقت يعلمه الله . ومنهم المهدي الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث سعيد بن جهمان ، عن سفينة - مولى رسول الله ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ ^(١٠) : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم

(١) فى ج ، أ : « الممالك » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ، رضى الله عنه .

(٤) فى ف : « ونسأل » .

(٥) فى ف ، أ : « على » .

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨٢١) وصحيح البخارى برقم (٧٢٢٢) .

(٧) صحيح مسلم برقم (١٨٢٢) .

(٨) فى ف ، أ : « بينهم » .

(١٠) فى ف ، أ : « عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال » ، والثبت من المسند وسننى أبى داود والترمذى .

يكون ملكاً عضوضاً» (١) .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ (٢) فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية ، قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة (٣) نحواً من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له سرّاً وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمسُون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فغَيَّرُوا (٤) بذلك ما شاء الله . ثم إن رجلاً من أصحابه (٥) قال : يا رسول الله ، أبلد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا [فيه] (٦) السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَنْ تَغَيَّرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِئًا لَيْسَتْ فِيهِمْ حَدِيدَةٌ » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله ، عز وجل ، قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا ، فأدخل [الله] (٧) عليهم الخوف فاتخذوا الحِجْزَةَ والشرط وغيروا ، فغَيَّرَ بِهِمْ .

وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، حق في كتابه ، ثم تلا هذه الآية .

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن في خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقوله : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ، كما قال رسول الله ﷺ لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال (٨) : لم أعرفها ، ولكن قد (٩) سمعت بها . قال : « فوالذي نفسى بيده ، ليؤمنن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى

(١) المسند (٥ / ٢٢٠) وسنن أبي داود برقم (٤٦٤٦) وسنن الترمذى برقم (٢٢٢٦) والسنن الكبرى برقم (٨١٥٥) وقال الترمذى : « حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جهمان » ، ولم ترد لفظة : « عضوض » في هذه المصادر ، وإنما وردت في حديث آخر عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائناتاً خلافة ورحمة ، وكائناتاً ملكاً عضوضاً ، وكائناتاً عنوة وجبرية وفساداً في الأمة ... الحديث » أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٩ / ٨) .

(٢) في ف : « لنستخلفنهم » . (٣) في ف ، أ : « بمكة وأصحابه » . (٤) في ف : « فصبروا » ، وفي أ : « فغَيَّرُوا » . (٥) في ف ، أ : « الصحابة » . (٦ ، ٧) زيادة من أ ، والدر المثور ٥ / ٥٥ . (٨) في ف ، أ : « لم أرها وقد » . (٩) في ف ، أ : « لم أرها وقد » .

تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُذَكَّنَ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح ^(١) كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده ، لتكون الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبى سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسوء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة نصيب » ^(٣) .

وقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا ^(٤) أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرَّحْلِ ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . [ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك] ^(٥) . قال : « هل تدري ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « [فإن] ^(٦) حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » ، قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » . أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة ^(٧) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك ، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً . فالصحابة ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قَصَرَ الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم ^(٨) القيامة » . وفى رواية : « حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك ^(٩) » . وفى رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفى رواية : « حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون » . وكل

(١) فى أ : « فتح » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٩٥) .

(٣) المسند (٥ / ١٣٤) .

(٤) فى أ : « بينما » .

(٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٦) المسند (٥ / ٢٤٢) وصحيح البخارى برقم (٥٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (٣٠) .

(٧) فى ف ، أ : « يوم » .

(٨) فى ف ، أ : « على ذلك » .

(٩) فى ف ، أ : « على ذلك » .

هذه الروايات صحيحة ، ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿ (٥٧) ﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين للرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ^(١) ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقوله ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ، أى : [لا تظن] ^(٢) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ، ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا لَهُمُ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بشس المال مأل الكافرين ، وبشس القرار وبشس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (٦٠) ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً فى فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة ؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل

علي أهله ، ونحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ طَوَافُونَ ﴾ عليكم ، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال فى الهرة : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشئ ، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً ، أنكر عبد الله ابن عباس ذلك على الناس ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة ، حدثنى عطاء ابن دينار ، عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْفُوا الْحُلُمُ [مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ] ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر (٣) الناس - آية الإذن - وإنى لأمر جاريتى هذه تستأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٤) .

وقال الثورى ، عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، قال : لم تنسخ قلت . فإن الناس لا يعملون بها . فقال : الله المستعان .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن الله ستر يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة فى حجره ،

(١) الموطأ (٢٣ / ١) والمسند (٥ / ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٧٥) وسنن الترمذى برقم (٩٢) وسنن النسائى (١ / ٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٧) .

(٢) فى ف ، أ : « كثير من » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٩١) .

وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالاستور ^(١) ، فبسط [الله] ^(٢) عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القَعْنَبِيِّ ، عن الدَّرَّاورِدِيِّ ، عن عمرو ابن أبى عمرو ، به ^(٣) .

وقال السُّدِّيُّ : كان أناس من الصحابة ، رضى الله عنهم ، يحبون أن يُوَاقِعُوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمرُوا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حَيَّان : بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبي ﷺ طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد ، غلامهما بغير إذن ! فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْفُوا الْحِلْمُ مِنْكُمْ ﴾ [ثلاث مرآت] ^(٤) الآية .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعيا فإنه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وقوله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : قال سعيد بن جبير ، ومُقاتِل بن حَيَّان ، وقتادة ، والضحاك : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ، ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى : لم يبق لهن تشوف إلى التزويج ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المروزى جديني علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية [النور : ٣١] فنسخ ، واستثنى من ذلك ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الآية ^(٥) .

قال ابن مسعود [فى قوله] ^(٦) : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قال : الجلباب ، أو

(١) فى ف : « بعده بالاستور » ، وفى أ : « بعده الستر » .

(٢) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٦ .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥١٩٢) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤١١١) .

(٦) زيادة من أ .

الرداء : وكذا روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء (١) ، وإبراهيم النخعي ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار .

وقال سعيد بن جبير وغيره ، فى قراءة عبد الله بن مسعود : « أن يضعن من ثيابهن » : وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها خمار صفيق .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثنى سوار ابن ميمون ، حدثنا طلحة بنت عاصم ، عن أم المصاعن ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : دخلت على] (٢) فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين فى الخضاب ، والنفاض ، والصباغ ، والقرطين ، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتن (٣) كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات . أى : لا يحل لكن أن يروا منكن محرما .

وقال السدى : كان شريك لى يقال له : « مسلم » ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان ، فجاء يوما إلى السوق وأثر الحناء فى يده ، فسألته عن ذلك ، فأخبرنى أنه خضب رأس مولاته - وهى امرأة حذيفة - فأنكرت ذلك . فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلنى عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم يا بنى ، إنى من القواعد اللاتى لا يرجون نكاحا ، وقد قال الله فى ذلك ما سمعت .

وقوله : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزا - خير وأفضل لهن ، والله سميع عليم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ .

اختلف المفسرون - رحمهم الله - فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد .

(٣) فى أ : « فصلن » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) فى أ : « والشعبى » .

وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح ^(١) . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

وقيل : المراد [هاهنا] ^(٢) أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جلسته . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكروها أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم .

وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الآية قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه ، أو بيت أخته ، أو بيت عمته ، أو بيت خالته . فكان الزمنى يتخرجون ^(٣) من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ^(٤) . فنزلت هذه الآية رخصة لهم ^(٥) .

وقال السدى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بالشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم . فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليستأديه ^(٦) ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » ^(٧) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ، هذا ظاهر . وقد استدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب [الإمام] ^(٨) أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

(١) عند الآية : ١٧ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « يخرجون » . (٤) فى أ : « عشيرتهم » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٣) .

(٦) فى أ : « ولا يساوى » .

(٧) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (٣٥٣٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما .

(٨) زيادة من ف ، أ .

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ : فقال سعيد بن جبیر ، والسدي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمّنائهم ، ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقُكُمْ ﴾ أى : بيوت أصدقاؤكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يشقّ عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى ﴾ (١) ، إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقُكُمْ ﴾ (٢) . وكانوا أيضاً يأنفون ويخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

وقال قتادة : وكان هذا الحى من بنى كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجل لیسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وحشى بن حرب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : « فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٣) .

وقد روى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كلوا جميعاً ولا تفرقوا ؛ فإن البركة مع الجماعة » (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ : قال سعيد بن جبیر ، والحسن البصرى ،

(١) بعدها فى ف ، أ : « ولا على الأعرج حرج » .

(٢) قبلها فى ف ، أ : « أو ما ملكتم مفاتيحه » .

(٣) المسند (٣ / ٥٠١) وسنن أبى داود برقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٦) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٧٧) : « هذا إسناد ضعيف » .

وقتادة ، والزهرى : فليسلم بعضهم على بعض .

وقال ابن جريج : حدثنا أبو الزبير : سمعتُ جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلتَ على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجبه .

قال ابن جريج : وأخبرني زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخلَ أحدكم بيته ، فليسلم .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أثر وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلى ، وما أدعه إلا نائياً ^(١) .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وروى الثوري ، عن عبد الكريم الجزري ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : بسم الله ، والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقال قتادة : [إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين] ^(٢) . فإنه كان يؤمر بذلك ، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا عوبد بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال ، قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعني : بيتك - فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقاء يوم القيامة » ^(٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ : قال محمد بن إسحاق : حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ ، فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم .

هكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث ابن إسحاق .

والذي في صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا ^(٥) ، والله أعلم .

(١) في ف ، أ : « ناسياً » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) في ف : « رسول الله » .

(٤) ورواه ابن عدى في الكامل (٥ / ٣٨٢) من طريق موسى عن عويد بن أبي عمران الجوني ، به . ونقل عن البخاري : « عويد بن أبي عمران عن أبيه منكر الحديث » ثم قال ابن عدى : « وعويد بن علي حديثه الضعيف » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٠٣) ولفظه : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نبه تعالى على أنه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ، ليتدبروها ويتعقلوها .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٢) .

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو (١) عيد أو (٢) جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته . وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين . ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له ، إن شاء ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد ، قالا : حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن عجلان عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » . وهكذا رواه الترمذى والنسائى ، من حديث محمد بن عجلان ، به (٣) . وقال الترمذى : حسن .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣) .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل ، عن ذلك ، إعظاماً لنبهه ، صلوات الله وسلامه عليه (٤) . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير .

وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُجَلَّ وأن يعظم وأن يسود .

(١ ، ٢) فى ف : « و » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٠١) .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » .

وقال مقاتل [بن حيان] ^(١) فى قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ يقول : لا تُسمّوه إذا دعوتوه : يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يانبى الله ، يا رسول الله ^(٢) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ قال : أمرهم الله أن يشرفوه .

هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ [الحجرات : ٢ - ٥] .

فهذا كله من باب الأدب [فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته] ^(٣) .

والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ أى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا . حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العوفى ، والله ^(٤) أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ : قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة - ويعنى بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة - أصحاب محمد ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى - ﷺ - يخطب ، بطلت جمعته .

قال السدى كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، يعنى : لواذا [عن نبى الله وعن كتابه] :

وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ [^(٥) قال : خلافاً .

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى : عن أمر رسول الله ﷺ ، سبيله هو ^(٦)

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف : « يا رسول الله ، يا نبى الله » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « وهو سبيله » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « فالله » .

ومنهاجه وطريقته [وسنته] ^(١) وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِلَ ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ^(٢) .

أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى : فى قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدنيا ، بقتل ، أو حد ، أو حبس ، أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حولها ^(٣) ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي [يقعن فى النار] ^(٤) يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتقحمن فيها » : قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق ^(٥) .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٦٤) .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم غيب السموات والأرض ، وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قبلها : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وقال : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُؤْيِّنَنَّ قَبْلَةَ تَرَضَّاهَا] ^(٦) ﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة » : فقله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى : هو عالم به ، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٨) .

(٣) فى ف ، أ : « حوله » .

(٤) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٥) المسند (٢ / ٣١٢) ومسلم برقم (٢٢٨٤) وليس عند البخارى من هذا الطريق .

(٦) زيادة من ف ، أ .

السَّمَاءِ^(١) وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أى : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] ﴾^(٢) [هود : ٥] وقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] : وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : ويوم ترجع^(٣) الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة - ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

(١) فى ف : « فى السموات ولا فى الأرض » ، وهو خطأ .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « يرجع » .

تفسير سورة الفرقان

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ .

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ [أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كُنِينَ فِيهِ أَبَدًا] ﴾ (١) [الكهف : ١ - ٣] ، وقال هاهنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزل : فَعَلَ ، من التكرار ، والتكثر ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل (٢) مُنْجِماً مُفْرَقاً مُفْصَلاً ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] . ولهذا سماه هاهنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغنى والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها فى أشرف أحواله ، وهى ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أى : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذى جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٣) . وقال : « أعطيت خمسا لم

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) هو الذى يليه من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « ينزل » .

يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة » ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ] ^(١) يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض ، الذى يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، فنزه نفسه عن الولد ، وعن الشريك . ثم أخبر أنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أى : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره [وتسخيّره] ^(٢) ، وتديّره وتقديره ^(٣) .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ ^(٣) .

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شيء ، المالك لأزمنة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أى : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] ، ﴿ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٩] ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له ؛ لأنه ما شاء كان وما يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولا والد ، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ ^(٤) وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ^(٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٦) .

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ ﴾ أى : كذب ، ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي ^(٤) ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين . قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أى : فقد افتروا هم قولاً باطلاً ، هم

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) زيادة من أ وهو الصواب .

(٤) فى ف ، أ : « محمداً » .

(٣) فى ف ، أ : « قهره وتقديره وتسخيّره وتديّره » .

يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون (١) .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون : كتب الأوائل استنسخها ، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كُلَّ أحد يعلم (٢) بطلانه ، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث (٣) إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورَمَوْهُ بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلاً ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوههم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجلود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة [سبحانه وتعالى] (٤) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي

(١) فى ف ، أ : « زعموه » .

(٢) فى ف ، أ : « بهته كل أحد منهم يعلم » .

(٣) فى أ : « بعثه » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ، يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون (١) : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ ﴾ (٢) مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴿ [الزخرف: ٥٣] . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أى : علم كنز [يكون] (٣) ينفق منه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا ﴾ أى : عن طريق الهدى ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّقُ بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال [تعالى] (٤) : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

قال مجاهد : يعنى : فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً ، سواء كان كبيراً أو صغيراً (٥) .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خَيْثَمَةَ ؛ قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : اجمعوها لى فى الآخرة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

(٣) ، (٤) زيادة من أ .

(٢) فى ف : « أسورة » .

(١) فى أ : « يقول » .

(٥) فى ف ، أ : « صغيراً أو كبيراً » .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أى : وأرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أى : عذاباً أليماً حاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير : «السَّعِيرُ» : واد من قيح جهنم .
وقوله : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أى : جهنم ﴿مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعنى : فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ أى : حنقا (٢) عليهم ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك : ٧ ، ٨] أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ؛ من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف (٣) الواسطى : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيْك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من يقل على ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو اتهم إلى غير مواليه ، فليتبوأ [مقعده من النار] . وفى رواية : « فليتبوأ » (٤) بين عيني جهنم مقعدا . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « أما سمعت الله يقول : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ » الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد (٥) بن خَدَّاش ، عن محمد بن يزيد (٦) الواسطى ، به (٧) .
وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى ابن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله - يعنى : ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديقة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط ، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ فصعق - يعنى : الربيع بن خيثم - فحملوه إلى أهل بيته (٨) ، وربطه عبد الله إلى الظهر فلم يبق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشبهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨/ ١٤٠) من طريق سفيان به مراسلاً .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « الأحنف » .

(٦) فى أ : « زيد » .

(٧) تفسير الطبرى (١٨/ ١٤٠) .

(٨) فى أ : « إلى أهله » .

هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصراً ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني . فيقول : أرسلوا (١) عبي . وإن الرجل ليُجر إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك . فيقول : أرسلوا عبي . وإن الرجل ليُجر إلى النار ، فتشهو إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير في قوله : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرَّ ترعداً فرائصه ، حتى إن إبراهيم ، عليه السلام ، ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسي (٢) . وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا ﴾ : قال قتادة ، عن أبي أيوب ، عن عبد الله (٣) بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح (٤) ، أي : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرَنِينَ ﴾ قال : « والذي نفسي بيده ، إنهم ليُسْتَكْرَهون في النار ، كما يستكره الود في الحائط » (٥) .

وقوله : ﴿ مُقْرَنِينَ ﴾ : قال أبو صالح : يعني مكثفين : ﴿ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي : بالويل والحسرة والخيبة ، ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد (٦) ، عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يكسى حلة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي : يا ثبوره . وينادون : يا ثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوره . ويقولون : يا ثبورهم . فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .

لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن سنان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة به (٧) .

(١) في أ : « أن تغلوا » .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٥٦/٢) .

(٣) في ف ، أ : « عبيد الله » .

(٤) في ف : « رمحه » .

(٥) رواه ابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٢٤٠/٦) .

(٦) في هـ ، ف ، أ : « علي بن يزيد » والصواب ما أثبتناه من المسند (٢٥٢/٣) .

(٧) المسند (١٥٢/٣) وتفسير الطبري (١٤١/١٨) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أى : لا تدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا (١) كثيراً .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أى : هالكا . وقال عبد الله بن الزبعرى :
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْغَدِ سِىَّ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلُهُ (٢) مَثْبُورٌ (٣)

﴿ قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد ، هذا (٤) الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء (٥) ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ (٦) وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيقة مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاكا مما هم فيه - : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [أى (٧) : من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن ، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد (٨) . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما (٩) سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا ييغون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى لا يبد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى : وعدا واجبا .

وقال ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ : يقول : سلوا الذى واعدتكم - أو قال : واعدناكم - نُنَجِّزْ .

وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : ﴿ رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ [غافر : ٨] .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ .

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى

(١) فى ف ، أ : « بلاء » . (٢) فى أ : « مثله » .

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩ / ٢) .

(٤) فى أ : « أهذا » . (٥) فى أ : « من هؤلاء الأشقياء » . (٦) فى أ : « وتغيظ » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بشر » . (٩) فى ف : « دائما أبدا » .

سورة « الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والخبور ، ثم قال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : ٦٢ - ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَقْرِيعِ الْكُفَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ (١) وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعزير ، والملائكة . ﴿ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أى : فيقول الرب تبارك وتعالى [للمعبودين] (٢) أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَى عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي ، أَمْ هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ ، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ (٣) ﴾ ، إلى آخر الآية [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] ؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله : ﴿ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا (٤) ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَأِكَةِ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ (٥) مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] . وقرأ آخرون : « مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإننا عبيد لك ، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى .

﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى : طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذِّكْرَ ، أى : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

(١) فى ف : « يحشرهم » . (٢) زيادة من أ .

(٣) بعدها فى ف ، أ : ﴿ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ .

(٤) فى أ : « فعلوا » . (٥) فى هـ : « به » والمثبت من أ ، وهو الصواب .

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ : قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى :
أى لا خير فيهم . وقال ابن الزبعرى حين أسلم :

يا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَى ، وَمَنْ مَالَ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ

قال الله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم
أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم ^(١) إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿فَمَا (٢) تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أى : لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا
الانتصار لأنفسهم ، ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُمُ﴾ أى : يشرك بالله ، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جميع مَنْ بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ،
ويحتاجون إلى التغذى به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم
ومنصبهم ؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ،
والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة [القاهرة] ^(٣) ، ما يستدل به كل ذى لب سليم ،
وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من الله عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله
تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ
جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أى : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم
ببعض ، لنعلم مَنْ يُطِيعُ مَنْ يعصى ؛ ولهذا قال : ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أى : بمن يستحق أن
يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن
يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال : يقول الله : لو
شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم ،

وأبتليهم^(١) بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني مُبتليكَ ومُبتلي بك »^(٢) . وفى المسند عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » ، وفى الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَعَنَّتِ الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (٣) الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى : بالرسالة كما نُزِّلَ (٤) على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فنراهم عياناً ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم (٥) : ﴿ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى سورة « سبحان » ؛ ولهذا قال (٦) : ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم (٨) ، وذلك يَصْدُقُ على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم ، وظلٍّ من يحوم . فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن (٩) ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بالضرب ، ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية

(١) فى أ : « وأبتليكم » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٣) فى أ : « عليه » وهو خطأ .

(٤) فى أ : « تنزل » .

(٥) فى ف ، أ : « وكقولهم » .

(٦) فى ف ، أ : « قالوا » .

(٨) فى ف ، أ : « للمجرمين » .

(٩) فى أ : « الجسد » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

الكريمة : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجني أيتها النفس الطيبة^(١) في الجسد الطيب ، كنت تعمريه ، اخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث في سورة « إبراهيم »^(٢) . عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يعني : يوم القيامة . قاله مجاهد ، والضحاك ؛ وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم المات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حرّام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفه ، أو فُلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سُمِيَ « الحجر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُوفان أن يطوفوا فيه^(٣) ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حجر »^(٤) ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق .

والغرض أن الضمير في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العوفى ، وعطاء الخراسانى ، وخُصِيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى - يعنى ابن قيس - عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى : ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال : حرّاماً مُحَرَّمًا أن يُبَشَّرَ بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جرير ، عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ، [أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة]^(٦) يقولون : ﴿حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ .

(١) فى ف ، أ : « المطننة » .

(٢) عند الآية : ٢٧ .

(٣) فى ف : « به » .

(٤) فى ف : « به » .

(٥) تفسير الطبرى (٢/١٩) .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابن أبي نَجِيح ، عن مجاهد ؛ أنه قال في قوله : ﴿ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : عوداً معاداً . فيحتمل (١) أنه أراد ما ذكره ابن جريج . ولكن في رواية ابن أبي حاتم ، عن ابن أبي نَجِيح ، عن مجاهد أنه قال : ﴿ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [أى] (٢) : عوداً معاداً ، الملائكة تقول . فإله (٣) أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ : وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التى ظنوا أنها منجاة لهم - شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ .

قال مجاهد ، والثورى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى : عمدنا .

وقال السدى : (قدمنا) : عمدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ : قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ، رضى الله عنه ، فى قوله : ﴿ [فَجَعَلْنَاهُ] ﴾ (٤) هَبَاءً مَنْثُورًا ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكوة . وكذا روى من غير هذا الوجه عن علي . ورؤى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبّير ، والسدى ، والضحاك ، وغيرهم . وكذا قال الحسن البصرى : هو الشعاع فى كوة أحدهم (٥) ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : هو الماء المهرق .

وقال أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : الهباء رَهَج (٦) الدواب ورؤى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : أما رأيت يَبِيسَ الشجر إذا ذرته (٧) الريح ؟ فهو ذلك الورق .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (٨) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم (٩) العدل الذى لا يجوز ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « والله » .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى ف ، أ : « فيحمل » .

(٧) فى أ : « أذرته » .

(٦) فى ف ، أ : « وهج » .

(٥) فى ف ، أ : « أحدهم » .

(٩) فى ف : « الحكيم » .

(٨) فى أ : « عبيد بن يعلى » .

اللَّهُ تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن (١) أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات ، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أى : بئس المنزل منظرا وبئس (٢) المقيلا مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه (٣) ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] (٤) الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] (٥) وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم [ذلك] (٦) كلهم ، وذلك قوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

وقال سفيان ، عن ميسرة ، عن المنهال ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : لا يتنصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٦٨] .

(١) فى أ : « أن » . (٢) فى ف : « أو » . (٣) فى ف : « وصاروا إلى ما إليه صاروا » .

(٤) ، (٥) ، (٦) زيادة من ف ، أ .

وقال العوفي ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن (١) عرضوا على ربهم عريضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَنَقْلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : مأوى ومنزلا - قال قتادة : وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يـجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا (٢) فى الدنيا - إلى الحمرة والبياض فيحاسب ، فإذا عبد ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى ، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء الله . ثم يدعى صاحب (٣) النار ، فإذا هو مثل الحُمّة (٤) السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقيّل . فيقال (٥) له : عد (٦) . ثم يدعى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رب ، خير مقيّل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا (٧) الصوّاف حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يقصر على المؤمن (٨) حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقبلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك (٩) قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (١٠) .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق (١١) السماء وتفتطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلّل (١٢) النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلّاق فى مقام المحشر . ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

(١) فى أ : « إذ » . (٢) فى أ : « ملك » . (٣) فى أ : « بصاحب » . (٤) فى ف ، أ : « الفحمة » .
(٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف ، أ : « عده » . (٧) فى أ : « سعيد » . (٨) فى أ : « المؤمنين » .
(٩) فى ف ، أ : « فذلك » . (١٠) تفسير الطبرى (٥/١٩) .
(١١) فى أ : « انشقاق » . (١٢) فى أ : « ظل » .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا ﴾ قال ابن عباس : يجمع الله الخلق يوم القيامة ^(١) في صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطيور وجميع الخلق ، فتشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها - وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق ^(٢) - فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق . ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق ^(٣)] ^(٤) ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة ، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون ^(٥) بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق ، وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس ^(٦) والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأعقب القنا ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتلهيل ^(٧) والتقديس لله عز وجل ، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبتيه ^(٨) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبتيه إلى حُجْرَتِهِ ^(٩) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْرَتِهِ ^(١٠) إلى تَرْقُوتِهِ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين تَرْقُوتِهِ إلى موضع القُوط مسيرة خمسمائة عام . وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم مجنبتة ^(١١) ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يَجِئْ ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] ^(١٢) نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل ^(١٣) الملائكة الكروبيون ، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبتيه مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القباء ^(١٤) ، والعرش فوق ذلك .

(١) في ف ، أ : « يجمع الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة » . (٢) في ف ، أ : « الخلق » . (٣) في ف ، أ : « الخلائق » .

(٤) زيادة من ف ، أ ، والدر المنثور ٦٨ / ٥ . (٥) في أ : « فيحيطون » . (٦) في ف ، أ : « والإنس » .

(٧) في ف ، أ : « بالتلهيل والتسبيح » . (٨) في أ : « ركبتيه » . (٩ ، ١٠) في ف ، أ : « أرنبته » .

(١١) في هـ ، ف غير منقوطة ، وفي أ : « مجنبتة » . (١٢) زيادة من ف ، أ ، والطبري .

(١٣) في ف ، أ : « فينزل » . (١٤) في أ : « القباء » .

ثم وقف ، فمداره على علي بن زيد بن جدعان ، وفيه ضعف ، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة . وقد ورد في حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال [الله] (٢) تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٥ - ١٧] ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، رواه ابن جرير عنه .

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورجفت كلاًهم في أجوافهم ، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن عبد الجليل ، عن أبي حازم ، عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة ، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع منه (٣) القلوب .

وهذا موقوف على (٤) عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزامتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] . وفي الصحيح : « إن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » (٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى : ﴿ [فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ] (٦) ﴾ ، ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٨ - ١٠] ، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن (٧) بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله : ﴿ يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما (٨) أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف ، أ : « له » . (٤) فى ف ، أ : « عن » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وليس فيه : « أنا الديان » .

(٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « حسين » . (٨) فى ف ، أ : « وما » .

أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذي لا مزية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرةً وأسفاً .

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] فكل (٢) ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعض على يديه قائلاً : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعني : من (٣) صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة [من دعاة الضلالة] (٤) ، وسواء في ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبي بن خلف ، أو غيرهما .

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ [وهو القرآن] (٥) ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ، ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿ (٣١) .

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد (٦) - صلوات الله وسلامه (٧) عليه دائماً إلى يوم الدين - أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون (٨) ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره ، حتى لا يسمعه . فهذا من هجرانه ، وترك [علمه وحفظه أيضاً من هجرانه ، وترك] (٩) الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يُسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذى

(١) المسند (٧٥/٣) وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٢) فى ف ، أ : « وكل » . (٣) فى ف ، أ : « لمن » . (٤) فى أ : « يسمعون » .

(٥) فى أ : « محمدًا » . (٦) فى أ : « محمدًا » . (٧) زيادة من ف ، أ . (٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى أ : « يسمعون » . (٨) فى أ : « يسمعون » .

يحبّه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : كما حصل لك - يا محمد - فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبيّ عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أى : لمن اتبع رسوله ، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣٤) .

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيههم ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزيور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت (١) قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ : قال قتادة : وبيناه تبيناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيراً .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم (٢) بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالته . قال (٣) سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : إلا نزل جبريل من الله بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ؛ لشرف الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه (٤) ، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً ، ليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى (٥) وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ، صلوات

(٣) فى ف : « ثنا » .

(٢) فى أ : « جئناهم » .

(١) فى أ : « ليثبت » .

(٥) فى أ : « لعل » .

(٤) فى ف : « عليه وسلامه » .

الله وسلامه عليه ، أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففي الملاء الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا (١) ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائي : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (٢) [الإسراء : ١٠٦] .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح ، عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه علي رجله قادر أن يُمَشِّيه على وجهه يوم القيامة » (٣) . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين ، [والله أعلم] (٤) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطْرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، من مشركى قومه ومن خالفه (٥) ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسوله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعته وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبياً مؤازراً ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، ف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] . وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله

(١) فى أ : « من السماء الدنيا » .

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى ف ، أ : « خالفهم » .

جميعاً ، ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط .
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَفَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] . أي : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره .

وقوله : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ قد (١) تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة ، منها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة (٢) .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير ، عن (٣) ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود .

وقال ابن جرير : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس .

وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم [النبل] (٤) ، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر (٥) ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿وَأَصْحَابُ الرُّسِّ﴾ قال : بئر بأذربيجان .

وقال سفيان الثوري عن أبي بكير (٦) ، عن عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبيهم . أي دفنوه بها (٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب [القرظي] (٨) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً (٩) إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدواً على النبي ، فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخمة (١٠) » قال : « فكان ذلك العبد يذهب فيحطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ، ويشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه الله عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام . فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هب فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار (١١) ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب (١٢) إلى الخفيرة في موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه » . قال :

(١) في ف : « وقد » . (٢) في ف ، أ : « إعادته » . (٣) في أ : « قال » . (٤) زيادة من ف .
(٥) في أ : « بشير » . (٦) في ف ، أ : « بكر » . (٧) في ف : « فيها » . (٨) زيادة من ف ، والطبرى .
(٩) في ف : « بعث نبياً من الأنبياء » . (١٠) في ف : « أصم » .
(١١) في أ : « النهار » . (١٢) في ف ، أ : « ثم إنه ذهب » .

« فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندري . حتى قبض الله النبي ، وأهبَّ الأسودُ من نومته بعد ذلك » . فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسودُ لأولُ من يدخل الجنة » .

هكذا رواه ابن جرير (١) ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلًا . وفيه غرابة ونكارةٌ ، ولعل فيه إدراجاً ، والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا في القرآن ؛ لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم ، والله أعلم .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا في سورة البروج ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَفَرَّوْنَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى : وأما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكتناهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة - كما قال قتادة : أرحنا (٢) عنهم الأعدار - ﴿ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا ﴾ أى : أهلكتنا إهلاكاً ، كقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] . وحده بعضهم (٣) بمائة وعشرين سنة . وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكتها الله بالقلب ، وبالطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال : ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] . وقال : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا ﴾ أى : فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله .

وقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (٤) **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ**

(١) تفسير الطبري : ١٩ / ١٠ .

(٢) فى ف ، أ : « بعض المفسرين » .

(٣) فى أ : « وأرحنا » .

آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، إذا رأوه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَيُخَذُّونَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْأَكْبَرِ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] يعنونه بالغيب والنقص ، وقال هاهنا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ مِنْهُمْ لَيُخَذُّونَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْأَكْبَرِ ﴾ الذي بعث الله رسولا ؟ أى : على سبيل التنقيص (١) والازدراء - قبّحهم الله - كما قال : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

وقولهم (٢) : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون : أنه كاد يشيهم عن عبادة أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

ثم قال تعالى لنبيه ، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه ، كان دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْيُضْلُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ . قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى : أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

من هاهنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ؟ قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو

العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .
وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن (١) الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسدي : دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : الظل . وقيل : الشمس . ﴿ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً . قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السدي : قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .

وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : قليلاً قليلاً .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : يلبس الوجود ويغشيه (٢) ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل : ١] وقال [٣] : ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٤] .

﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أى : قطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أى : ينتشر الناس فيه (٤) لمعاشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧٣] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٤٨)
لُنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِ مَاءً خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض ، ومنها ما يلقيح السحاب ليمطر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسحور والوقود (٥) وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك . وأما من قال : إنه فعول

(٣) زيادة من أ .

(٢) فى ف : « يغشاه » .

(١) فى ف : « وإن » .

(٥) فى أ : « والوجود » .

(٤) فى ف : « فيه الناس » .

بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما ^(١) إشكالات من حيث اللغة والحكم ، ليس ^(٢) هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، عن أبي جعفر الرازي ، حدثني حميد الطويل ، عن ثابت البناني قال : دخلت مع أبي العالية في يوم مطير ، وطرق البصرة قدرة ، فصلى ، فقلت له ، فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، قال : طهره ماء السماء .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وهيب ^(٣) ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [قال : أنزله الله ماءً طاهراً] ^(٤) لا ينجسه شيء . وعن أبي سعيد قال : قيل : يارسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ - وهى بئر يلقي فيها التبن ولحوم الكلاب - فقال : « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » . رواه الشافعي ، وأحمد وصححه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبي يحدث عن سيّار ، عن خالد بن يزيد ، قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيُعذبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة . وقال غيره : في البر ، وفي البحر دُرّ .

وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مِّيتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لا نبات فيها ولا شيء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَنَسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ ﴾ ^(٦) كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، [فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا ، والتى وراءها] ^(٧) لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

(١) فى أ : منها . (٢) فى ف ، أ : وليس . (٣) فى أ : وهب . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) الأم للشافعي (٩ / ١) والمسند (١٥ / ٣) وسنن أبي داود برقم (٦٦) وسنن الترمذي برقم (٦٦) وسنن النسائي (١٧٤ / ١) .

(٦) فى ف ، أ : وهو على « وهو الصواب . (٧) زيادة من ف ، أ .

قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات (١) والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقال عمر مولى غفرة (٢) : كان جبريل ، عليه السلام ، فى موضع الجنائز ، فقال له النبي ﷺ : « يا جبريل ، إنى أحب أن أعلم أمر السحاب ؟ » قال : فقال جبريل : يا نبي الله ، هذا ملك السحاب فسله . فقال : تأتينا صكأك مختمة : اسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن حاتم ، وهو حديث مرسل .

وقوله : ﴿ فَآبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ : قال عكرمة : يعنى : الذين (٣) يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكوكب » (٤) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ (٥١) فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ : يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وفيهما : « وكان النبی یبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] ،

(١) فى ف ، أ : « الموتى » . (٢) فى ف ، أ : « عقبة » . (٣) فى أ : « الذى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى .

التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : خلق المائين : الحلو والملح ، فالخلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لاشك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع (١) لينبه العباد على نعمه عليهم ليذكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفائتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مالح مَرَّ زَعَاقٌ لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها (٢) من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض (٣) ، فإذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرَتْ ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة (٤) ثم تشرع فى النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد (٥) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أى : حاجزا ، وهو اليبس من الأرض ، ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى : مانعا أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكرا أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهرا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٥٥) وَمَا

(١) فى أ : « عن الواقع » . (٢) فى أ : « وأشبهها » . (٣) فى أ : « وفيض » . (٤) فى أ : « عشر » .

(٥) سبق تخريجه عند تفسير الآية : ٣ من سورة المائدة .

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام ، التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، بلا دليل قادم إلى ذلك ، ولا حجة أدت لهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ^(١) ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله [والمؤمنون] ^(٢) فيهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أى : عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك ^(٣) لهم نصراً ، وهؤلاء الجبهة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويدبُّون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظهر الشيطان على معصية الله ، يعينه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى : على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكويد : ٢٨] ، ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : طريقاً ومسلحاً ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

ثم قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أى : فى أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً ، الذي هو ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] ، الدائم الباقي السرمدي الأبدي ، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه ، اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

(٣) فى أ : « لا يملكون » .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى أ : « والتشهى فيهم يوالون لهم » .

أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ [المائدة : ٦٧].

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نُفَيْل قال : قرأت على مَعْقِل - يعنى ابن عبيد الله - عن عبد الله بن أبي حسين ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لقي سلمانُ رسولَ الله ﷺ فى بعض فجاج (١) المدينة ، فسجد له ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » . وهذا مرسل حسن (٢) .

[وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ، أى : اقرن بين حمده وتسيبحه] (٣) ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] .

وقال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : ٢٩] .

وقوله : ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى : لعلمه (٤) التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أى : هو الحى الذى لا يموت ، وهو خالق كل شىء وربّه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الرَّحْمَنُ] ﴾ (٥) ، أى : يدبر الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ أى : استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه ، على (٦) سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى - فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله ، وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها (٧) فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهي ؛

(١) فى أ : « مخارج » .

(٢) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق محمد بن أحمد بن سيار عن هشام عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين به .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « بعلمه » .

(٥) فى أ : « وما خالفها » .

(٦) فى ف ، أ : « عليه » .

(٧) فى أ : « وما خالفها » .

ولهذا قال : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال : ما أخبرتك (١) من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جرير .

وقال شمر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكر على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية (٢) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرفه ولا نقر به ؟ ﴾ أنسجد لما تأمرنا ؟ أى : لمجرد قولك ؟ . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ ، أما (٣) المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفَرِّدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ ويسجدون له . وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) (٤) .

يقول تعالى مجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج - وهى الكواكب العظام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] .

﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .

(٢) فى ف ، أ : « الآية الكريمة » .

(٤) فى أ : « نشورا » وهو خطأ .

(١) فى أ : « ما أخبرك » .

(٣) فى ف ، أ : « فاما » .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران . إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذلك (١) ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (٢) .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حرة (٣) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطل صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على من وردى شيء ، فأحببت أن أتمه - أو قال : أقضيه - وتلا هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] (٤) ﴿ (٥) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس [قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ (٦)] يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمل به ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضياؤه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أى : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ،

(١) فى أ : « هذا » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « أبو حمزة » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا منقطع ، فالحسن لم يسمع من عمر .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رؤيداً ، فقال : ما بالك ؟ أنت مريض ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما (١) المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » (٢) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن يحيى (٣) بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قال : إن المؤمنين قوم ذُلٌّ ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعَ نفسه على الدنيا حشرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه (٤) وحضر عذابه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : إذا سَفِه عليهم الجاهل بالسَّيِّء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى خالد الوالى ، عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ [وسب رجل رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما [(٥) إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناده حسن ، ولم يخرجوه (٦) .

وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يعنى : قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبیر : ردوا معروفًا من القول .

وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا [سَلَامًا] ﴾ ، قال : حلماء لا يجهلون [(٧) ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون (٨) . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

(١) فى ف ، أ : « وأما » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٠٣) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « عمر » . (٤) فى أ : « عمله » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسنده .

(٦) المسند (٤٤٥/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧٥/٨) : « رجاله رجال الصحيح ، غير أبى خالد الوالى وهو ثقة » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بما يسمعون » .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾ أى : فى عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] وقال : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى : ملازمًا دائمًا ، كما قال الشاعر^(١) :

إِنْ يُعَذَّبُ يَكُنْ غَرَامًا ، وَإِنْ يُعْطَى ط جزيلًا ، فإنه لا يُبَالَى

ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ : كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمى .
وقال محمد بن كعب [القرظى] ^(٢) : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا ؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار .

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : بشس المنزل منظرا ، وبئس المقيلا مقاما .

[و] ^(٣) قال ابن أبى حاتم عند قوله : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن ابن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل فى النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحف ، قال : فيسقى كأسا من سُمِّ الأسود والعقارب ، قال : فيميز الجلد على حدة ، والشعر على حدة ، والعصب على حدة ، والعروق على حدة .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير قال : إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت ، وعقارب أمثال البغال الدُّلم ^(٤) ، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم ، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام - يعنى ابن مسكين - عن أبى ظلال ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة : يا حنان ، يا منان . فيقول الله لجبريل : اذهب فاتنى بعبدى هذا . فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين^(٥) ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : آتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا . فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : يا عبدى ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان ، شر مقيلا . فيقول : ردوا عبدى . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها ! فيقول : دعوا عبدى ^(٦) .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى

(١) هو الأعشى - ميمون بن قيس - والبيت فى تفسير الطبرى (٢٣/١٩) .

(٢) (٣ ، ٢) زيادة من أ . (٤) فى أ : « الدهم » . (٥) فى أ : « مكين » .

(٦) المسند (٢٣٠/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٨٤/١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور ، ووثقه ابن حبان » .

إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام (١) بن خالد ، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني ، عن ضمرة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : « من فقه الرجل رفقه في معيشته » . ولم يخرجوه (٢) .

وقال [الإمام] (٣) أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الخداد ، حدثنا سكين (٤) بن عبد العزيز العبدى ، حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » . ولم يخرجوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون (٦) ، حدثنا سعيد (٧) بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال - يعنى العبسى - عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة » . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه (٨) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف [والله أعلم] (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن ترائى

(١) فى أ : « عاصم » .

(٢) المسند (١٩٤/٥) .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « مسكين » .

(٥) المسند (٤٤٧/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٢/١٠) : « فى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف » .

(٦) فى ف ، أ : « إبراهيم بن محمد بن محمد بن ميمون » . (٧) فى ، أ : « سعد » .

(٨) مسند البزار برقم (٣٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٢/١٠) : « رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم

هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان فى ترجمة سعيد الراوى عنه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٩) زيادة من أ .

حليّة جارك » . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴾ .

وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السرى ، عن أبى معاوية ، به (١) .

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخارى : وواصل - ثلاثتهم عن أبى وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (٢) ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي ، حدثنا عامر بن مُدْرِك ، حدثنا السرى - يعنى ابن اسماعيل - حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشْرٍ من الأرض ، وقعت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه ، واغتنمت (٣) خلوته وقلت (٤) : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أى الذنوب (٥) أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم مه ؟ (٦) قال : « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » . قلت : ثم مه ؟ قال : « أن تزانى حليّة جارك » . ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ ﴾ . [إلى آخر] (٧) الآية (٨) .

وقال النسائي : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع - فما أنا بأشجع عليهن منى منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ - : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى ، رحمه الله ، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، حدثنا محمد بن سعد (١٠) الأنصارى ، سمعت أبا طيبة الكلاعى ، سمعت المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ، يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال : « ما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » (١١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بقية ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ : قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رَحِمٍ لا يحل له » (١٢) .

(١) المسند (١/ ٣٨٠) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٨) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .

(٣) فى ف : « فاغتنمت » . (٤) فى أ : « فقلت » .

(٥) فى أ : « الذنب » . (٦) فى أ : « أى » .

(٧) زيادة من أ .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .

(٩) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٣) (١٠) فى ف ، أ : « سعيد » .

(١١) المسند (٨/ ٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٨/ ٨) : « رجاله ثقات » .

(١٢) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) : « وهو مرسل ، وفى إسناده بقية وهو مدلس وابن أبى مريم ضعيف » أ . هـ مستفاداً من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود

وقال ابن جرير : أخبرني يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث ^(١) عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا ^(٢) كفارة ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ، ونزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [إنه هو الغفور الرحيم] ^(٣) ﴿ [الزمر: ٥٣] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبي فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغزو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك » . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ : واد في جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : نكالا ، كنا نحدث أنه واد في جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره ، عن أبي أمامة الباهلي - موقوفا ومرفوعا - : أن « غيا » و« أثاما » بثران في قعر جهنم ^(٥) . أجازنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدي : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسر به بما بعده مبدلاً منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أى : حقيراً ذليلاً .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلًا] ^(٦) صَالِحًا ﴾ أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ فى الدنيا إلى الله ^(٧) من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض ^(٨) بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه

(١) فى أ : « يحدثه » . (٢) فى أ : « أن لنا إن عملنا » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢٧٧/٦) وعزاه لابن أبي حاتم . ووقع فيه : « عن أبي قتادة » ، فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لى الصواب منهما ، والله أعلم .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/١٩) .

(٦) زيادة من ف ، وهو الصواب .

(٧) فى ف : « إلى الله فى الدنيا » . (٨) فى أ : « ولا معارض » .

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال [الله] (١) تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفًا (٢) وَبَعْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيفًا (٣)

يعنى : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها .

وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا (٤) ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرا .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم (٥) بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما .

وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوص حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجدته مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ، رحمهم الله تعالى - وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحْوًا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلْوَهُ عَنْ صَغَارِهَا ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا -

(٢) فى أ : « صريفا » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٠) .

(٥) فى ف : « وبدلهم » .

(٤) فى أ : « هذا يكون فى الدنيا » .

فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا » . قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني ضَمْضَم بن زُرْعَةَ ، عن شُرَيْح بن عبيد (٢) ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفة . فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت - يعني : ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته (٤) ، فإذا كاد (٥) يسوء ظنه نظر (٦) في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود ، حدثنا أبو العنبر ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس (٧) يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات . وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبي الضيف - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سمو أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات (٨) والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيانهم ، فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً - قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات ، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال علي بن الحسين زين العابدين : « يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » قال : في الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] (٩) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠) .

(٢) في ف ، أ : « عبدة » .

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٩٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢١) : « فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » ، ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضاً .

(٤) في أ : « إساءته » . (٥) في أ : « كان » . (٦) في أ : « ينظر » . (٧) في أ : « أناس » .

(٨) في أ : « بالحسنات » . (٩) زيادة من ف ، أ .

حدثنا أبو (١) جابر ، أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط (٢) حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ، رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله ﷺ (٣) : «أسلمت؟» قال (٤) : «أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن (٥) محمداً عبده ورسوله . فقال النبي ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل (٦) سيئاتك حسنات » . فقال : يارسول الله ، وغدراأتى وفجراأتى ؟ فقال : « وغدراأتك وفجراأتك » . فوَلَّى الرجل يهمل ويكبر (٧) . (٨) .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن عمرو (٩) ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن أبي قُرُوءة - شَطَب - أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها (١٠) الله لك خيرات كلها » . قال : وغدراأتى وفجراأتى ؟ قال : « نعم » . قال فما زال يكبر حتى توارى (١١) .

ورواه الطبراني من طريق أبي قُرُوءة الرهاوى ، عن ياسين الزيات ، عن أبي سلمة الحمصى ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً (١٢) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيْحِ الشَّامِ ، عن عبيد بن أبي عبيد (١٣) عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : جاءتنى امرأة فقالت : هل لى من توبة ؟ إني زني وولدت وقتلته . فقلت (١٤) : لا ، ولا نَعَمَتِ العين ولا كرامة . فقامت وهى تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبي ﷺ الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ فقرأتها عليها . فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

(١) فى أ : « ابن » . (٢) فى أ : « أسقطت » . (٣) فى أ : « النبي » . (٤) فى أ : « فقال » .

(٥) فى أ : « وأشهد أن » . (٦) فى أ : « ويبدل » . (٧) فى ف ، أ : « يكبر ويهمل » .

(٨) وقد وصله الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٤/٤) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الخداني عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً باختصار فى أوله وآخره ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢/١) : « رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدري أسمع منه أم لا » .

(٩) فى أ : « عمر » . (١٠) فى ف ، أ : « فيجعلهم » .

(١١) المعجم الكبير للطبراني (٣١٤/٧) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣٥٢/٣) من طريق أبي القاسم البغوى عن محمد بن هارون الحربى عن أبي المغيرة به . وقال أبو القاسم البغوى : « روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبي المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير : أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلاً شطب الممدود ، وأحسب أن محمداً بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره » .

(١٢) المعجم الكبير للطبراني (٥٣/٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٣١/١) : « فى إسناده ياسين الزيات يروى الموضوعات » .

(١٣) فى هـ ، ف ، أ : « عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه » والمثبت من الطبرى .

(١٤) فى أ : « فقال » .

حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : يا حسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ ، تَطَلَّبَهَا (١) في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لى مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها ، وتابت إلى الله عزوجل (٢) .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده (٣) ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى : فإن الله يقبل (٤) توبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى : لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) .

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ . قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل . وقال محمد بن الحنفية : [هو] (٥) اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هى أعياد المشركين (٦) .

وقال عمرو بن قيس : هى مجالس السوء والخنأ .

وقال مالك ، عن الزهري : [شرب الخمر] (٧) لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » (٨) .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى : شهادة الزور ، وهى الكذب متعمداً على غيره ،

(١) فى ف : « فطلبها » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/١٩) ورواه ابن مردويه كما فى الدر المنثور (٢٧٩/٦) وقال السيوطى : « إسناده ضعيف » .

(٣) فى أ : « لعباده » . (٤) فى أ : « يتقبل » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف : « للمشركين » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس عن جابر به مرفوعاً ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه » ثم نقل كلام العلماء فى تضعيف ليث بن أبى سليم .

كما [ثبت] (١) في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال (٢) رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور [وقول الزور وشهادة الزور] (٣)». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (٤).

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء (٥)؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العجلي، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً (٦)، فقال النبي ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود، وأمسى كريماً».

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا حبان، أنا عبد الله، أنا محمد بن مسلم، أخبرني ابن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ (٧): «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» (٨)، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٩).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [و] (١٠) هذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي ذكر بآيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى.

قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً.

وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى.

(٣) زيادة من ف، أ.

(١) زيادة من ف، أ.

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٧) في أ: «الني».

(٥) في أ: «فيه شيء».

(٦) في أ: «فلم يقف».

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) ورواه ابن عساكر كما في المختصر لابن منظور (٥٥/١٤) من طريق إبراهيم بن ميسرة به.

(١٠) زيادة من أ.

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله (١) وانتفعوا بما (٢) سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حمران ، حدثنا ابن عون قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، يعني : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة (٣) ، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بين .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصري - وسئل عن هذه الآية - فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جريج في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون (٤) عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر (٥) بن بشر (٦) ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أننا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه ، لا يدرى لو شهد كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد (٧) كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

(١) في ف ، أ : « أمر السجدة » .

(٢) في أ : « بما » .

(٣) في أ : « الحق » .

(٤) في أ : « فيحسنون » .

(٥) في هـ ، ف ، أ : « معمر » والمثبت من المسند .

(٦) في أ : « بشير » .

(٧) في ف ، أ : « وقد » .

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه (١) .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ : قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين (٢) [ودعاة] (٣) إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم (٤) ، وأن يكون هداهم متعدياً (٥) إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر (٦) ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » (٧) .

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] (٨) الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال (٩) الجليلة (١٠) - قال بعد ذلك كله : ﴿أُولَئِكَ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أى : يوم القيامة ﴿الْغُرَّةَ﴾ وهى الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبیر ، والضحاك ، والسدى : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى : على القيام بذلك ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا﴾ أى : فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أى : يتبدرون (١١) فيها بالتحية والإكرام . ويلقون [فيها] (١٢) التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا .

(١) المسند (٢/٦) .

(٢) فى أ : « مهدين » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « ذرايبهم » .

(٥) فى أ : « أكبر » .

(٦) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ف ، أ : « الأقوال والأفعال » .

(٩) فى أ : « الجميلة » .

(١٠) فى أ : « يتبدلون » .

(١١) زيادة من ف ، أ .

ثم قال (١) تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أى : لا يبالى ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه (٢) إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم (٣) لزاماً لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسرہ بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . والله أعلم .

(٣) فى أ : « تكذيبهم » .

(٢) فى ف : « حبيب » .

(١) فى أ : « وقال » .

تفسير سورة الشعراء

وهى مكية . ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها : سورة الجامعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغنى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أى : مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ أى : مما تحرص [عليهم] (١) وتحزن عليهم ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسليية من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٢) :

أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِعُ الْحُزْنَ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ (٣) نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكننا لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] ، فنفذ قدره ، ومضت (٤) حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٧) .

(٣) فى ف : « بشيء » .

(٤) فى ف ، أ : « وقضت » .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجتروا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذي خلق الأرض وأثبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثوري ، عن رجل ، عن الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ^(١) وارتكبوا زواجره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عزَّ كلَّ شيء وقهره وغلبه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، و [محمد ^(٢)] بن إسحاق : العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَآتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه عليه ، حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ : هذه أَعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال في سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٢٥ - ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ أى : بسبب ماكان [من] (١) قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر . ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كما قال : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] .

﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] [أى : إني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي .

﴿ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُوْلَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] [أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسمارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) [أى : أما أنت الذى ربيناه فىنا (٣) ، وفى بيتنا وعلى فراشنا [وغذيناه (٤)] ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : الجاحدين . قاله ابن عباس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة (٥) .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : الجاهلين .

قال ابن جريج : وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه . ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : الحال الأول انفصل

وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وريثتى مقابل ما أسأت إلى (١) بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخداماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أففى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ (٢) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٤٩ ، ٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم ؛ أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها ، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴾ أى : ألا تعجبون عما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : ليس

(١) فى ف ، أ : « على » .

(٢) فى أ : « واستخف » .

(٣) فى ف ، أ : « ومن » وهو خطأ .

(٤) فى أ : « ماهيته » .

(٥) فى ف : « والجميع » .

(٦) فى أ : « الأوائل » .

له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿ قَالَ ﴾ أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه^(١) الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) .

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال^(٢) ، فقال : ﴿ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . فعند ذلك قال موسى : ﴿ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : ببرهان قاطع واضح ، ﴿ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ، ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى : تتلأأ كقطعة من القمر . فبادر فرعون - بشقائه - إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته ، والكفر به . فقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣) أى : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم [(٤) يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى

(٢) فى هـ : « مقام » والمثبت من ف ، أ .

(١) فى ف ، أ : « منه » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « سحر » .

لهم في ذلك ؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ .

ذكر [الله] (١) تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في « سورة الأعراف » وفي « سورة طه » ، وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى (٢) الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلا في ذلك ، وكان السحرة جمعا كثيرا ، وجما غفيرا ، قيل : كانوا اثني عشر ألفا . وقيل : خمسة عشر ألفا . وقيل : سبعة عشر ألفا وقيل : تسعة عشر ألفا . وقيل : بضعة وثلاثين ألفا . وقيل : ثمانين ألفا . وقيل غير ذلك ، والله أعلم بعدتهم .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور (٣) وحطحط (٤) ويصقي .

واجتهد (٥) الناس في الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ . [قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ] (٦) ﴾ ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم . ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ أي : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا ، وجمع حشمه وخدمه [وأمرائه] (٧) ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون (٨) ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا (٩) يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه : ٦٥ ، ٦٦] ، وقد اختصر هذا ههنا . فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وهذا كما يقوله

(٣) في ف ، أ : « وعادون » .

(٢) في ف ، أ : « فيأبى » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٦) زيادة من ف .

(٥) في أ : « وحشر » .

(٤) في أ . « وحطحة » .

(٩) في أ : « فقالوا » وهو خطأ

(٨) في ف ، أ : « بين يديه » .

(٧) زيادة من أ .

الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله في « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، وقال في « سورة طه » : ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : ٦٦ - ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى : تختطفه (١) وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى : ﴿ فَرَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهدهم ويتوعدهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ .

تهدهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغي أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا على فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : المرجع (٢) إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا (٣) : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه (٤) من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم (٥) كلهم .

(٣) فى ف ، أ : « قال » .

(٢) فى ف ، أ : « الرجوع » .

(١) فى ف ، أ : « تختطفه » .

(٥) فى ف ، أ : « قبلهم » .

(٤) فى أ : « ما فرقناه » .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) .

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَجَ الله ^(١) وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه الله ، أنه كُفِّسَ القمر تلك الليلة ، فالله أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حملة بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه ^(٢) معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم ، رحمه الله ، فقال :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر ^(٣) بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضيل ^(٤) ، عن عبد الله ^(٥) بن أبي إسحاق ، عن ابن أبي بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ : تعاهدنا . فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ : « ما حاجتك ؟ » قال ^(٦) : « ناقة برحليها وأعتر ^(٧) يحتلبها أهلي ، فقال : « أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ » . فقال له أصحابه : وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف ، عليه السلام ، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل . فأرسل إليها فقال ^(٨) لها : دليني على قبر يوسف . فقالت : والله لا أفعل حتى تعطيني حكماً . قال لها : وما حكمك ؟ قالت ^(٩) : حكمتي أن أكون معك في الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقليل له : أعطها حكمها . قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم : انضبوا هذا الماء . فلما أنضبوه قالت : احتفروا ^(١٠) ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار ^(١١) . »

(١) في ف : « وأقام حجج الله بها » . (٢) في أ : « يحملوه » . (٣) في هـ : « عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان » .
(٤) في هـ : « فضل » والمثبت من أ . (٥) في أ : « يونس » . (٦) في ف ، أ : « فقال » .
(٧) في أ : « وأعتر » . (٨) في أ : « وقال » . (٩) في أ : « قال » .
(١٠) في أ : « احفروا » .

(١١) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٣٦ / ١٣) وابن حبان في صحيحه برقم (٢٤٣٥) « موارد » ، والحاكم في المستدرک (٥٧١ / ٢) من طريق محمد بن فضيل ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي بردة عن أبي موسى به . وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٧٠) : « رجال أبي يعلى رجال الصحيح » .

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديتهم داع ولا مجيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل ؛ لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجند ويجمعه ، كالنقباء والحجّاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ - يعنى : بني إسرائيل - ﴿ لَشَرْدَمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأقتهم ، وأبيد خضرأهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ، ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير ^(١) ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس ، منها مائة ألف على خيل دهم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم - ففى ذلك نظر . والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم . والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلماذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم

شيء مما تحذرون ، فإن الله ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .
وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، [ومؤمن آل فرعون وموسى ،
عليه السلام ، فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ،
وجعل يوشع بن نون] ^(١) ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى ، عليه السلام : يا نبي الله ، ههنا
أمرك الله أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر
الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه ، وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا ^(٢)
محمد بن حمزة [بن محمد] ^(٣) بن يوسف بن عبد الله بن سلام : أن موسى ، عليه السلام ، لما
انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء ، والكائن قبل كل شيء ، اجعل
لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ .

وقال قتادة : أوحى الله تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ،
فبات البحر تلك الليلة ، وله اضطراب ^(٤) ، ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه
موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا نبي الله ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر .
قال : فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله - فيما ذكر لى - إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه
فانفلق له . قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره الله ،
وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، وفيها ^(٥) سلطان الله الذى
أعطاه ، فانفلق .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق على أبا خالد بحول الله ^(٦) .

قال الله تعالى : ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ،
وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفَجَّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق - وزاد السدى : وصار فيه
طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح على قعر البحر
فلفحته ، فسار يبساً ^(٧) كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ
دَرْكاً وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : هنالك ^(٨) ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » .

(٣) زيادة من الجرح والتعديل (٢٣٦ / ٢ / ٣) والدر المنثور (٨٦ / ٥) .

(٤) فى أ : « اتكل » . (٥) فى أ : « فقيها » . (٦) فى ف ، أ : « بإذن الله » .

(٧) فى أ : « يابساً » . (٨) فى ف : « هناك » .

من البحر وأدنيانهم إليه .

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك (١) منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل (٢) إلا هلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا ، والله لا يفرغ من سلعها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت (٣) لأحد من ولد (٤) آدم فأنفرق (٥) لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه [يعنى : البحر ، فأقحم فرسه ، فسيح به فخرج ، فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] (٦) . قال : والله ما كذبت ولا كذبت . ثم اقتحم الثانية فسيح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كذبت (٧) ولا كذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يترأون ، فلما خرج أصحاب موسى وتآم أصحاب فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفى رواية إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رثى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصير والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى (٨) عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الخنفاء ، أمر الله رسوله محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقنطروا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ، عز وجل ، فقال :

(١) فى أ : « نهلك » .

(٢) فى ف : « رجل منهم » .

(٣) فى أ : « نهلك » .

(٤) فى أ : « بنى » .

(٥) فى أ : « فأفرق » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) فى أ : « ما كذب » .

(٨) فى أ : « عز وجل » .

﴿ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن^(١) أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إلى بالمساءة ، فإننى عدو لها لا أبالها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] يعنى : لا إله إلا الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) .

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قادراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على [ما] ^(٢) قدر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذاباً زلالاً . ﴿ نُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا ﴾^(٣) أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً ، كما قال تعالى آمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حذف فاعله أدباً ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ ولهذا^(٤) قال

(١) فى ف ، أ : « أن » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى م : « ليسقيه مما خلق » وهو خطأ .

(٤) فى ف ، أ : « وهكذا » .

إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى : إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غفر الذنوب فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴿

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ، أن يؤتیه ربه حكماً .

قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى : اجعلنى مع (١) الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار : « اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً (٢) . وفى الحديث فى الدعاء [(٣) : « اللهم أحينا مسلمين ، وأميتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدين » (٤) .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ - ١١٠] .

قال مجاهد ، وقتادة : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : أنعم علىّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وهذا مما رجع عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ

(١) فى أ : « من » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٩١) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، وليس عندهما أنه قالها ثلاثاً ، وإنما فيهما ما يفيد أنها مرتين ، والله أعلم .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤٢٤ / ٣) من حديث الزرقى ، وعنده : « غير خزايا ولا مفتونين » .

مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع [الله] (١) تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿١١٥﴾ [الممتحنة : ٤] . وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : أجزنى من الحزى يوم القيامة و [يوم] (٢) يبعث الخلائق أولهم وآخرهم .

قال البخارى فى قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقتر » (٣) .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أنك لا تخزيني (٤) يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين » .

هكذا رواه عند هذه الآية (٥) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قتر وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني (٦) ؟ فيقول أبوه (٧) : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار (٨) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : أخبرنا أحمد بن حفص (٩) بن عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنى إبراهيم بن طهمان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقتر » ، وقال (١٠) له : قد نهيتك عن هذا فعصيتنى . قال : لكنى اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يا رب ، وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فإن (١١) أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال : يا إبراهيم ، إني (١٢) حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال : يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته منى . قال : انظر أسفل منك . فنظر (١٣) فإذا ذبيح يتمرغ (١٤) فى ننته ، فأخذ بقوائمه فألقى فى النار (١٥) » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٨) .

(٤) فى ف ، أ : « أن لا تخزنى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٩) ولفظه : « وعدتني أن لا تخزنى يوم يبعثون » .

(٦) فى ف : « لا تعصينى » .

(٧) فى ف : « أباه » وهو خطأ .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥٠) .

(٩) فى ف : « جعفر » .

(١٠) فى ف : « فقال » .

(١١) فى أ : « فأنى » .

(١٢) فى أ : « فأنى » .

(١٣) فى ف ، أ : « فينظر » .

(١٤) فى ف : « متمرغ » .

(١٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٥) .

هذا إسناد ^(١) غريب ، وفيه نكارة .

والذيخ ^(٢) : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول أذر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرتة ^(٣) ، فيلقى في النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، وفيه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة ، عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أى : لا يبقى المرء ^(٤) من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ، ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حَيٍّ ^(٥) يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب [الكافر و] ^(٦) المنافق مريض ، قال الله : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أى : قربت الجنة وأدنت ^(٧) من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة ^(٨) لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها [عملها] ^(٩) فى الدنيا . ﴿ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى :

(١) فى ف : « سياق » .

(٢) فى أ : « والذايح » .

(٣) فى أ : « بقذرتة » .

(٤) فى ف ، أ : « يعنى » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف ، أ : « مزينة مزخرفة » .

(٧) فى ف : « أدنت وقربت » .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ف ، أ : « المومن » .

أظهرت وكُشف ^(١) عنها ، وبدت منها عُنُقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب [إلى] ^(٢) الحناجر ، وقيل لأهلها تقرّيعاً وتوبيخاً : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ^(٣) . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ ﴾ أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حصَبُ جهنم أنتم لها واردون .
وقوله : ﴿ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : فذهوروا ^(٤) فيها .

وقال غيره : كبوا فيها . والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر . والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أى : ألقوا فيها عن آخرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة ، كما يقولون : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ ﴾ [الأعراف : ٥٣] . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون ^(٥) إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى ^(٦) عن تخاصم ^(٧) أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج ^(٨) عليهم فى التوحيد آية ودلالة واضحة جليلة على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) ﴾ .

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، ^(٩) عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث

(١) فى ف ، أ : « وكشفت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ف ، أ : « تشركون » .
(٤) فى أ : « صوروا » . (٥) فى ف : « أن يردون » ، وفى أ : « أن يردوا » . (٦) فى أ : « الله » وهو خطأ .
(٧) فى أ : « بتخاصم » . (٨) فى ف : « الحجة » . (٩) فى ف ، أ : « تعالى » .

إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل (١) تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : ألا (٢) تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ] ﴾ (٣) أى : لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فقد وضع لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى به وائتمنى عليه .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) .

يقولون : أنؤمن لك ونتبعك ، وننساوى فى ذلك بهؤلاء الأراذل (٤) الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا (٥) ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ . قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنبى عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم (٦) إياى ، وأكل سرائرهم إلى الله ، عز وجل ، ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه (٧) ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهرًا وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَ ﴾ أى : عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى : لنرجمك (٨) . فعند ذلك دعا

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى أ : « لا » .

(١) فى أ : « وتنزل » .

(٦) فى أ : « صدقهم » .

(٥) فى أ : « أراذلنا » .

(٤) فى أ : « الأراذل » .

(٨) فى أ : « لنرجمك » .

(٧) فى ف : « ليتابعون » ، وفى أ : « ليابعوه » .

عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ عَا رَيْهٖ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر . فَفُتِّحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٠ - ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ . والمشحون : هو المملوء بالأمّعة والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه ^(١) ومن معه ^(٢) كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ .

وهذا إخبار من [الله تعالى عن] ^(٣) عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة ^(٤) لبلاد اليمن ، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح ، [كما قال فى « سورة الأعراف » : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾] ^(٥) وزادكم فى الخلق بصطة ﴿ [الأعراف : ٦٩] ، وذلك أنهم كانوا فى غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات ^(٦) والعيون ، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة . تبنون هنالك بناء محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً ﴾ أى : معلما بناء مشهوراً ، تعبثون ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعايب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، قال مجاهد المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى أ : « اتبعه » .

(١) فى أ : « نجينا نوحاً » .

(٦) فى أ : « والجنات » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف : « متخمة » .

وقال قتادة : هي مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء (١) : « وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » .

وفى القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى : لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عجلان ، حدثنى عون بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه كانت قبلكم (٢) قرون ، يجمعون فيرعون ، ويبنون فيوثقون (٣) ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم (٤) قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ : وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رِبَّكُمْ ﴾ أى : اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : إن كذبتكم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

وقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خلق » بفتح الخاء وتسكين

(٢) فى ف : « قد كانت قبلكم » ، وفى أ : « قد كانت لكم » .

(٤) فى ف : « منازلهم » .

(١) فى ف : « الكوفيين » .

(٣) فى أ : « فيوثقون » .

اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [اِكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا] ﴾ [الفرقان : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم (١) مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل : ٢٤] .

وقرأ آخرون : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ - بضم الخاء واللام - يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ [ذَاتِ الْعِمَادِ] (٤) ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] ، وهم عاد الأولى ، كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ [النجم : ٥٠] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أى : الذين كانوا يسكنون العمدة . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب وهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٨] ، أى : لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التى لم بين مثلها فى البلاد ، وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الحزنة ، فأذن (٥) الله لها فى ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شىء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى (٦) إِلَّا مَسَکِنُهُمْ ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة ، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] ، أى : بقوا أبداناً بلا رؤوس ؛

(١) فى ف ، أ : « وقيل للذين كفروا » وهو خطأ .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) تفسير الطبرى (١٩ / ٦٠) .

(٤) فى ف ، أ : « لا ترى » .

(٥) فى أ : « ياذن » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك ^(١) من أمر الله شيئاً ، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ .

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام : أنه بعثه إلى قوم ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا في « سورة الأعراف » ^(٢) الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام ، فوصل ^(٣) إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل ، عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يتغنى بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ (١٥٢) ﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نقم ^(٤) الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات . وأنبأ لهم من الجنات ^(٥) . وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . قال العوفي ، عن ابن عباس : أُنِيعَ وَبَلَغَ ، فهو هَضِيمٌ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : مُعْشَبَةٌ .

[و] ^(٦) قال إسماعيل بن أبي خالد ، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطب واسترخى . رواه ابن أبي حاتم ، قال : وروى عن أبي صالح نحو هذا .

(١) في ف ، أ : « لم يغن ذلك عنهم » .

(٢) في أ : « فدخل » .

(٣) عند الآيات ٧٣ - ٧٨ .

(٤) في أ : « النجم » .

(٥) في ف ، أ : « نعمة » .

(٦) زيادة من أ .

وقال أبو إسحاق ، عن أبي العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كبس^(١) تهشم وتفتت وتناثر .

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية ، سمعت مجاهد يقول : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾

قال : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب الهضم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة^(٢) ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضم .

وقال مرة : هو الطَّلْعُ حين يتفرق ويخضر .

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما^(٣) رَأَيْتُ الطَّلْعَ حِينَ يُشَقُّ^(٤) عَنْهُ الْكَمُّ ، فترى الطلع قد لصق ببعضه ببعض ،

فهو الهضم ، وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى :

حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين^(٥) . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛

فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنها ،

وكانوا حاذقين^(٦) متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ ولهذا قال :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أى : أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم^(٧) فى الدنيا والآخرة ، من عبادة

ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحيده وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلاً ، ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .

الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ،

ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي

ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٥٩) .

يقول تعالى مخبراً عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة

ربهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى^(٨) أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (٩) ﴾ : يعنى من المخلوقين ، واشتهد

بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر^(١٠) .

(٣) فى ف ، أ : « أما » .

(٢) فى ف ، أ : « حمل النخلة الثمرة » .

(١) فى ف ، أ : « مس » .

(٦) فى أ : « صادقين » .

(٥) فى ف : « أشرين شرهين » .

(٤) فى ف ، أ : « يشقق » .

(٩) فى ف ، أ : « المسحورين » .

(٨) فى ف : « وقال » .

(٧) فى ف ، أ : « عليكم نفعه » .

(١٠) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ص (٥٦) أ . هـ ، مستفاداً من ط . الشعب .

يعنى الذين لهم سُحور ، والسُحر : هو الرثة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحْسِنُ اللَّهُ الْكُذْأَبَ الْأَشْرَ ﴾ [القمر: ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتهم بها ، ليعلموا صدقه بما (٢) جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملؤهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عشاء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، [وليصدقنه] (٣) ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبي الله صالح ، عليه السلام ، فصلى ، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشاء ، على الصفة التى وصفوها . فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ فِيهِمْ مَرْسَلٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمْ وَلَا تُنَاقِزُوا رَسُولَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَعْيُنَ وَأَلْسِنَتَ الْكَاذِبِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَمْرَ الْأَرْضِيَّ الَّذِي يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ يَكُذِّبُكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَفْضِلُ عَلَيْكُمْ ذَلِيلًا مُّغْلَبًا وَفَسَادًا كَثِيرًا بَلْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَيُكْمِلَ اللَّهُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٢] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة متنتة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت (٤) المقدس ، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك . فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلاق إلى فعله ، من إتيان الذكران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

(١) فى ف ، أ : « وأنزل » وهو خطأ .
(٢) فى أ : « فيما » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف ، أ : « بيت » .

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ .

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : ﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوط ﴾ يعنون : عما جئنا (١) به ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى : ننفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا (٢) كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ (٣) مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المُبْغِضِينَ ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برئ منكم . ثم دعا الله عليهم قال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت (٤) مع من بقى من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم فى « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا فى « الحجر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ .

هؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغیضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلماذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير

(٢) فى ف ، أ : « فما » وهو خطأ .

(٤) فى ف ، أ : « مهلكة » .

(١) فى ف : « يعنى مما جئنا » .

(٣) فى جميع النسخ : « أخرجوا آل لوط » والصواب ما أثبتناه .

أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .
وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - حدثني ابن السدي ، عن أبيه - وزكريا بن عمر^(١) ، عن خصيف ، عن عكرمة قالا : ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة .

وروى أبو القاسم البغوي ، عن هُدْبَةَ ، عن هَمَّام ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الرُّسِّ ﴾ . [ق : ١٢] قوم شعيب ، وقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ . [ق : ١٤] قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُوَيْرٍ : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . والله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث^(٢) الله إليهما شعيباً النبي ، عليه السلام »^(٣) .

وهذا غريب ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء^(٤) ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة^(٥) .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ (١٨٤) ﴾

يأمرهم تعالى^(٦) بإيفاء المكيال^(٧) والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا^(٨) الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ : والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّانُ . قال بعضهم : هو معرب من الرومية .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل - بالرومية . وقال قتادة : القسطاس : العدل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : تَنْقُصُوهم أموالهم ، ﴿ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

(٢) في ف ، أ : « فبعث » .

(١) في ف ، أ : « عمرو » .

(٣) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٠٩/١٠) .

(٤) في أ : « سواء » .

(٥) في أ : « فدل ذلك على أنهما واحدة » .

(٦) في ف ، أ : « عليه السلام » .

(٧) في ف ، أ : « الكيل » .

(٨) في أ : « فكلوا » .

مُفْسِدِينَ ﴿ يَعْنِي : قطع الطريق ، كما في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ] ^(١) ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ : يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ [الصفات : ١٢٦] . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسُّدِّي ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ [يس : ٦٢] .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها ^(٢) - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ : قال الضحاك : جانباً من السماء . وقال قتادة : قطعاً من السماء . وقال السدى : عذاباً من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٠-٩٢] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألو ، جزاءً وفاقاً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألو ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم ^(٣) أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يَكْنَهُم منه شيء ، ثم

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف ، أ : « لرسولها » .

(٣) فى أ : « عقوبته » .

أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا [كلهم]^(١) تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن ^(٢) ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم : ﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ^(٣) . وههنا قالوا : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسَافًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر ^(٤) ، رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل ^(٥) بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً ، فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً .

وهكذا روى عن عكرمة ، وسعيد بن جببر ، والحسن ، وكتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلَى .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كالיום ظلاً ^(٦) أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً . ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة ^(٧) ، حدثني يزيد الباهلي : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : بعث الله عليهم ومدة ^(٨) وحرا شديدا ، فأخذ

(٢) في أ : « مواضع » .

(٤) في ف ، أ : « عمرو » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) في ف : « فأخذتهم الصيحة » .

(٥) في ف ، أ : « فاستظل » .

(٦) في ف : « ما رأيت ظلاً كالיום » .

(٧) في أ : « صغيرة » .

(٨) في ف ، أ : « رعدة » .

بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] ^(١) ، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها ^(٢) الله عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم ^(٣) .
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه :
﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ ^(٤) مُحَدَّثٌ ﴿ [الآية] ^(٥) . ﴾ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .
قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله ^(٦) الأرض .
﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [أى : نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند الله ، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص ؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾] ^(٧) أى : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .
وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك [أنزلناه] ^(٨) بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قطعاً للعدو ، مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .
قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر العتكى ، حدثنا عباد بن عباد المهلبى ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه فى يوم دجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : « فكيف ترون قواعدها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فكيف ترون جوتها ^(٩) ؟ » . قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فكيف ترون رحاها استدارت ^(١٠) ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد

(٢) فى ف ، أ : « أرسل » .

(١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٣) تفسير الطبرى (٦٧ / ١٩) .

(٤) فى ف ، أ : « ربهم » وهو خطأ .

(٦) فى ف : « لا يأكله » .

(٩) فى ف ، أ : « حرنا » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٧) (٨ ، زيادة من ف ، أ .

(١٠) فى ف : « رحلها استدار » .

استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها ، أوميض أم خفقو ^(١) أم يشق شققاً ^(٢) ؟ » . قالوا : بل يشق شققاً . قال : « الحياء الحياء إن شاء الله » . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، بأبى وأمى ما أفصحك ، ما رأيت الذى هو أعرب منك . قال : فقال : « حق لى ، وإنما أنزل ^(٣) القرآن بلسانى ، والله يقول : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(٤) .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرجم كل نبي لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ^(١٩٦) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ^(١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ^(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ^(١٩٩) ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملته بالنبوة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور ^(٥) ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم ، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

(١) فى أ : « خفق » . (٢) فى أ : « شققا » . (٣) فى ف : « نزل » .

(٤) ورواه الرامهرمزي فى أمثال الحديث ص (١٥٥) من طريق عبد الله بن محمد الأموى ، عن عباد بن عباد المهلبى به .

(٥) فى ف ، أ : « زبرة » .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ .

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ، ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ ؟ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [من فرعهم ^(١)] بطاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا [فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (٢) ﴾ [يونس : ٨٨ ، ٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ أَتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [العنكبوت : ٥٣] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ^(٣) ، ثم يقال له : هل رأيت

خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا [واللّه يا رب] ^(١) . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا واللّه يا رب « أى : ما كان شيئاً كان ^(٢) . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتِرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ وَبَعَثَ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ وَقَامَ الْحُجُجَ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا ^(٣) [وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ] [القصص : ٥٩] .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ (٢١٢) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ ، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ ، أَحَدُهَا : أَنَّهُ مَا ^(٤) يَنْبَغِي لَهُمْ ، أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بَغْيِهِمْ وَلَا مِنْ طَلِبَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادَ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبَرَهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مَنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : وَلَوْ أَنْبَغِي لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أَنَّهُ لَوْ أَنْبَغِي ^(٥) لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزُولٍ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالِ نَزْوِهِ ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مَلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُبُهًا فِي مُدَّةِ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ ، لِثَلَاثِ سَبَبَاتٍ الْأَمْرُ . وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحَفَظَهُ لَشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجَنِّ : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُبُهًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨ - ١٠] .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٣ / ٣) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . وفى هـ : « إلى قوله » . (٤) فى ف : « لا » . (٥) فى ف : « ابتغى » .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه (١) أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدينين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هي فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وقال : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال : ﴿ وَأُنذِرَ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] .

وفى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول :

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الله ، بن نُمَيْر ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] .

ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٢) .

الحديث الثانى :

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » . انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله عليه وسلامه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٣) .

(٣) المسند (١٨٧ / ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥) .

الحديث الثالث :

قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عمير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ [قريشا] ^(١) ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . [يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار] ^(٢) ، فإنى - والله - ما أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحماً سأبلها بيلالها » .

ورواه مسلم والترمذى ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به ^(٣) . وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه . ورواه النسائى من حديث موسى بن طلحة مرسل ، لم يذكر فيه أبا هريرة ^(٤) . والموصول هو الصحيح . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ^(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد - يعنى ابن إسحاق - عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله . يا صفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت رسول الله ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أغنى عنكما من الله شيئا ، سلانى من مالى ما شئتما » .

تفرد به من هذا الوجه ^(٦) ، وتفرد به أيضاً ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه ^(٧) . ورواه أيضاً عن حسن ، ثنا ابن لهيعة ، عن ^(٨) الأعرج : سمعت أبا هريرة مرفوعاً ^(٩) .

وقال أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا ^(١٠) ضمّام بن إسماعيل ، عن موسى بن وردان ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يا بنى قصى ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف . أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » ^(١١) .

الحديث الرابع :

قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمى ، عن أبى عثمان ، عن قبيصة بن مخرق

(١) ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (٣٦٠ / ٢) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٥) .

(٤) سنن النسائى (٢٤٨ / ٦) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦) .

(٦) المسند (٤٤٨ / ٢) .

(٧) المسند (٣٩٨ / ٢) .

(٨) فى ف : « ثنا » .

(٩) المسند (٣٥٠ / ٢) .

(١٠) فى ف : « عن » .

(١١) مسند أبى يعلى (١٠ / ١١) وسويد بن سعيد متكلم فيه .

وزُهَيْر بن عمرو قالوا : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، صعد رسول الله ﷺ رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بني عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » .

ورواه مسلم والنسائي ، من حديث سليمان بن طرخان التيمي ، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مِلِّ النَّهْدِيِّ ، عن قَبِيصَةَ وَزُهَيْر بن عمرو الهلالي ، به (١) .

الحديث الخامس :

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن الأعمش ، عن المنهال ، عن عباد بن عبد الله الأسدي ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يضمن عني ديني ومواعيدي ، ويكون معي في الجنة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ » . فقال رجل - لم يسمه شريك - : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً (٢) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال علي : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب ، وهم رهط ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق - قال : وصنع (٤) لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا - قال : وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغمير (٥) فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال : « يا بني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأياكم يبايعني على أن يكون أخى وساحبي ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : ففقت إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي : « اجلس » . حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي (٦) .

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر : قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» : أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « عرفت أنني إن بادأت بها قومي ، رأيت منهم ما أكره ،

(١) المسند (٦٠/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٧٩) .

(٢) في أ : « تجرى » .

(٣) المسند (١١١/١) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠٢/٨) : رجال أحمد رجال الصحيح ، غير شريك وهو ثقة .

(٤) في ف ، أ : « فصنع » . (٥) في ف ، أ : « بفس » .

(٦) المسند (١٥٩/١) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠٢/٨) : رجاله ثقات .

فَصَمَتُ . فجاءني جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك . قال على ، رضى الله عنه : فدعاني فقال : « يا على ، إن الله قد أمرني [أن] ^(١) أنذر عشيرتي الأقربين ، فعرفت أنني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فَصَمَتُ عن ذلك ، ثم جاءني جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك . فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عَسَّ لبن ، ثم اجمع لى ^(٢) بنى عبد المطلب . ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً . فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول الله ﷺ منها حذية فشققها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : « كلوا بسم الله » . فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم : والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم ، بَدَرَهُ أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهْدٌ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ . فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرَنِي إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً . وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بَدَرَهُ أبو لهب بالكلام فقال : لَهْدٌ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله . فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرَنِي إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ [كما صنع] ^(٣) بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إني - والله - ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، إني قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة » .

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغني أن ابن إسحاق إنما ^(٤) سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ^(٥) .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار ابن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إني جئتمكم بخير الدنيا والآخرة » . « وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى ^(٦) على هذا الأمر على أن يكون أخى ، وكذا وكذا » ؟ قال : فأحجم

(٢) فى ف : « لنا » .

(٤) فى ف : « لا » .

(١) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٣) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٥) دلائل النبوة (١٧٨/٢) .

(٦) فى ف : « واازرنى » .

القوم عنها جميعاً ، وقلت - وإنى لأحدثهم سناً ، وأرمضهم عيناً ، وأعظمهم بطناً ، وأحمشهم ساقاً . أنا يا نبي الله ، أكون وزيرك عليه ، فأخذ يرقبني ثم قال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (١) .

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على ابن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثى ، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال : قال على ، رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال لى رسول الله ﷺ : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لينا » . قال : ففعلت ، ثم قال : « ادع بنى هاشم » . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو : أربعون ورجل - قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : « كلوا » ، فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها (٢) لم يرزؤوا منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا . قال : وَفَضَّلَ فَضْلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم ، فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كالיום فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اصنع لى » (٣) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا ، قال : فبدروه فقالوا مثل مقالته الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لى : « اصنع لى » (٤) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال : « أيكم يقضى عني دينى (٥) ويكون خليفتي فى أهلى ؟ » . قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت أنا لسن العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول الله . [فقال : « أنت »] (٦) قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حمش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على ، رضى الله عنه . ومعنى سؤاله ، عليه الصلاة والسلام (٧) ، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله ، يعنى إن قتل فى سبيل الله ، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أمن . وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا (٨) بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرَةً على الصفا ، وإنذاره لبطن قريش عموماً وخصوصاً ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(١) تفسير الطبرى (١٩ / ٤٠) .

(٢) فى ف : « وهى كهيتها » .

(٣ ، ٤) زيادة من ف .

(٥) فى ف : « دينى عني » .

(٦) فى ف : « ﷺ » .

(٨) فى ف : « فلها » .

(٦) زيادة من ف .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى - غير منسوب - من طريق عمرو بن سَمْرَةَ ، عن محمد بن سُوْقَةَ ، عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقبل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أزهّد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدّهم عليهم الأقربون » . وذلك فيما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، ثم قال : « إن أزهّد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم » . ولهذا قال [الله تعالى] (١) : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعَلِّ كَلِمَتِكَ .

وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ (٣) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : ﴿ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ : قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾

قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجَمْع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوَّاهُ صُفُوفُكُمْ ؛ فَإِنِى أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِى » (٤) .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

(١) زيادة من أ .

(٢) تاريخ دمشق (٥٨٧ / ١٠ المخطوط) .

(٣) فى جميع النسخ : « فاصبر » والصواب ما أثبتناه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٣) .

تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقاً ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رؤى من الجن ، فنهز الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو [الحق] (١) من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون (٢) على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفَّاك الأثيم ، أى (٣) : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة ، رضى الله عنها : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشيء » . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقاً ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها (٤) الجنى ، فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » (٥) .

وقال البخارى أيضاً : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنها (٦) سلسلة على صفوان ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فحرفها ، وبدد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر - أو الكاهن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمع (٧) من السماء » . انفرد به البخارى (٨) .

(٣) فى ف : « وهو » .

(٢) فى أ : « يتزلون » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « يحفظها » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥٦١) .

(٦) فى ف : « كأنه » .

(٧) فى هـ ، ف ، أ : « سمعت » والصواب ما أثبتناه من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) .

وروى مسلم من حديث الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [سبأ : ٢٣] ، [إن شاء الله تعالى] (١) .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تَحَدَّثُ فى العَنَانِ - والعَنَانُ : الغَمَامُ - بالأمر [يكون] (٢) فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرؤها فى أذن الكاهن كما تُقَرَّرُ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه (٤) . وقوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس ، ولهذا فِئَامٌ من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قُتَيْبَةُ ، حدثنا لَيْثٌ ، عن ابن الهاد ، عن يُحْنَسٍ (٥) - مولى مصعب ابن الزبير - عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعِجْر ، إذ عَرَضَ شاعر يُنشد ، فقال النبى ﷺ : « خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً » (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون .

وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصرى : قد - والله - رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة (٧) فلان ، ومرة فى مدحة (٨) فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان (٩) مع كل

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٨٨) وقد وصله أبو نعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه ، كما فى الفتح (٤٣٢ / ٦) .

(٤) صحيح البخارى رقم (٢٢١٠) .

(٥) فى ف : « محنش » .

(٦) المسند (٨ / ٣) .

(٧) فى ف : « شتمة » .

(٨) فى ف : « مديحة » .

(٩) فى ف : « وكان » .

واحد منهما غَوَاةٌ من قومه - وهم ^(١) السفهاء - فقال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، رضى الله عنه ، هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يَتَّبِعُونَ بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ؛ ولهذا اختلف العلماء ، رحمهم الله ، فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حداً : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على « ميسان » - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءَ أَنْ حَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ ، يُسْقَى فِى زُجَاجٍ وَحَتَمٍ
إِذَا شَتَّتْ غَنْتَنى دَهَاقِىنُ قَرْيَةٍ	وَرَقَاصَةٌ تَجْذُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمٍ ^(٢)
فَإِنْ كُنْتَ نَذْمَانِى فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِى	وَلَا تَسْقِنِى بِالْأَصْغَرِ الْمُتَلْتَمِ ^(٣)
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوُّهُ	تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ [ذلك] ^(٤) أمير المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوئنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حَمِّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ١ - ٣] ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوُّهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ ^(٥) الْمُتَهَدِّمِ

وايم الله ، إنه ليسوئنى وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شىء طَفَحَ على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبداً ، وقد قُلْتَ ما قُلْتَ ^(٦) .

فلم يُذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ^(٧) ذمه عمر ، رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيهِ خير له من أن يمتلى شعراً » ^(٨) .

والمراد من هذا : أن ^(٩) الرسول ﷺ ^(١٠) الذى أنزل عليه ^(١١) القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛

(١) فى ف : « فهم » . (٢) فى ف ، أ : « مبسم » . (٣) فى ف : « المتلثم » .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « فى الجوسق » .

(٦) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٦/٢) والطبقات الكبرى لابن سعد (١٤٠/٤) .

(٧) فى ف : « ولكن » .

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٩) فى ف ، أ : « أن هذا الرسول » .

(١٠) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (١١) فى ف ، أ : « عليه هذا القرآن » ..

لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرَ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ - ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أَنْبَيْكُمْ عَلَىٰ مِنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد^(١) بن عبد الله ابن قُسيط ، عن أبي الحسن سالم البرّاد - مولى تميم الدارى - قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ، جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ، وهم يبيكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قال : « أنتم » .

رواه ابن أبي حاتم . وابن جرير ، من رواية ابن إسحاق^(٢) .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا ، عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي الحسن مولى بني نوفل ؛ أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يبيكان ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يقرؤهما عليهما : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال : « أنتم »^(٣) .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة^(٤) ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية [فى]^(٥) شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأتاب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى

(١) فى ف : « زيد » .

(٢) تفسير الطبرى (٧٩ / ١٩) .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٨٨ / ٣) من طريق أبي أسامة به .

(٤) زيادة من ف .

(٥) فى ف ، أ : « أبو مسلم » .

مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب (١) بذهمه ، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَى ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوّه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطينهن قال : «نعم» . قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : «نعم» . قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال : «نعم» . وذكر الثلاثة (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ : قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : «اهجهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك» (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ : إن الله ، عز وجل ، قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ، لكان ما ترمونهم به نضح النبل» (٤) .

وقوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر : ٥٢] وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (٥) .

وقال قتادة بن دعامه في قوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يعني : من الشعراء وغيرهم .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا إياس بن أبي تيمية ، قال : حضرت الحسن ومراً عليه بجنابة نصراني ، فقال الحسن : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وقال عبد الله بن ربّاح ، عن صفوان بن محرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره - : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

(١) في ف ، أ : «ما كان» .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٦١٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٣٨٧/٦) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) من حديث جابر ، رضى الله عنه ، ولفظه : «اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» .

وقال ابن وهب : أخبرني ^(١) ابن سريج الإسكندراني ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشتون ^(٢) عليها - أو : يصطلون - إذا بركاب ^(٣) قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم - قال : وصاحب لنا قائم يصلي - قال : حتى مرّ بهذه الآية : ﴿ وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما قال ابن أبي حاتم : ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي : حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد ^(٤) النهدي ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجير ^(٥) ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كتب أبي وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يجر ويدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « الشعراء » والحمد لله رب العالمين

(٣) في ف ، أ : « بركبان » .

(٢) في أ : « يشون » .

(٥) في أ : « الحبر » .

(١) في ف ، أ : « حدثنا » .

(٤) في ف ، أ : « أبو سعيد » .

تفسير سورة النمل

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾ .

قد تقد الكلام فى « سورة البقرة » على الحروف المتقطعة (١) فى أوائل السور .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ، ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وآمن (٢) بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد - قال قتادة : ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أى : لتأخذ - ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبيره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا [لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ] ﴾ (٣) [الأنعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ (١) ، مذكراً له ما كان من أمر موسى ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج (٢) وتضطرم ، فقال ﴿ لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : عن الطريق ، ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تتدفقون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى (٣) منظرًا هائلاً عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً (٤) يتوهج .

وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ، فنودى أن بورك من فى النار . قال ابن عباس : [أى] (٥) قدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود - [و] (٦) هو الطيالسى - حدثنا شعبة والمسعودى ، عن عمرو بن مرة ، سمع أبا عبيدة يحدث ، عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٧) » . زاد المسعودى : « وحجابه النور - أو النار - لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٢) فى ف ، أ : « تأجج » . (٣) فى ف : « رأى » .

(٤) فى ف : « وإنما نور » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

(٧) فى ف ، أ : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴿١﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بن مَرْة ، به (٢) .
 وقوله : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ،
 ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض
 والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .
 وقوله : ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ : أعلمه (٣) أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله
 العزيز ، الذى عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ؛ ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل
 شيء . فلما ألقى موسى تلك العصا (٤) من يده انقلبت فى الحال حَيَّةً عَظِيمَةً هَائِلَةً فى غاية الكبر ،
 وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجنان : ضرب من الحيات ،
 أسرع حركة ، وأكثره اضطرابا - وفى الحديث نهى عن قتل جِنَّانٍ (٥) البيوت (٦) - فلما عاين موسى
 ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ
 الْمُرْسَلُونَ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا ، وأجعلك نبيا وحيها .

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة
 عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على [عمل] (٧) شيء ثم أقلع عنه ، ورجع وأتاب ، فإن الله
 يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه : ٨٢] ،
 وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠]
 والآيات فى هذا كثيرة جدا .

وقوله : ﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ : هذه آية أخرى ، ودليل باهر على
 قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده
 فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلأأ (٨)
 كالبرق الخاطف .

وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى
 فرعون وقومه ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء :
 ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك . وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ،

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٤٠١/٤) من طريق وكيع عن السعوى بنحوه .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٩) .

(٣) فى ف : « أعلم » .

(٤) فى ف ، أ : « العصاة » .

(٥) فى ف ، أ : « حيات » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٨) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما .

(٧) زيادة من أ .

(٨) فى ف : « تتلأأ » .

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا [هنالك] ^(١) وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ، ﴿وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق ^(٢) من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ظَلَمُوا وَعَلَوْا﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سَجِيَّةً ملعونة ، ﴿وَعَلَوْا﴾ أى : استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ^(٣) ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٤) ، أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشماله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموثيق له ، عليه ^(٥) من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ^(١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ^(١٩) ﴿

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام ^(٦) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حمدُهُ أفضل من نعمته ^(٧) ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « أمرهم » . (٣) فى ف : « نعمة » . (٤) فى ف : « نعمة » . (٥) فى ف : « عليهم » . (٦) فى ف : « هشام » . (٧) فى ف : « نعمة » .

وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثته المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ [فى قوله] (١) : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » (٢) » (٣) .

وقوله (٤) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شئ لم يُعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرّاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل (٦) البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق (٧) به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ ولهذا قال : ﴿ عَلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : « فخرج ذات يوم وأغلقت (٨) الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لفتضحن بداود ، فجاء داود ، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر الله ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : أظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ،

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « ما تركناه فهو صدقة » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٢٧) من حديث عائشة بلفظ : « لا نورث ما تركناه صدقة » . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٢) : وأما ما اشتهر فى كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ : « نحن » ، وانظر بقية كلامه وحمله لمعنى الحديث فى الفتح .

(٤) فى ف : « وقال » . (٥) بعدها فى ف ، أ : « إن هذا لهو الفضل المبين » . (٦) فى ف : « بل نزل » .

(٧) فى ف : « وما ينطق » . (٨) فى ف : « وغلقت » .

فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا « قال أبو هريرة : يارسول الله ، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المصراحة (١) (٢) .

قال أبو الفرج بن الجوزي : المصراحة (٣) : النور الحمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة (٤) كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم [يكونون] (٥) فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لثلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة ، يردون أولها على آخرها ، لثلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أورد (٦) ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب (٧) .

أى : خافت على النمل أن تحطمها (٨) الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها (٩) ، ففهم ذلك سليمان ، عليه السلام ، منها (١٠) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ، ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

(١) فى ف : « المصراحة » .

(٢) المسند (٤١٩/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٦/٨) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقيت رجاله رجال الصحيح » .

(٣) فى هـ ، ف ، أ : « المصراحة » والمثبت من لسان العرب ، مادة « ضرح » .

(٤) فى ف : « عظمة » .

(٥) زيادة من ف .

(٦) فى ف ، أ : « فأورد » .

(٧) فى ف : « الذئب » .

(٨) فى ف : « يحطمها » .

(٩) فى ف : « مساكنهم » .

(١٠) فى ف : « عنها » .

وعن نَوْفِ الْبِكَالِي أَنَّهُ قَالَ : كَانَ نَمْلٌ سَلِيمَانُ أَمْثَالُ الذَّنَابِ . هَكَذَا رَأَيْتُهُ مُضْبُوطًا بِالْيَاءِ الْمُثْنَاءِ مِنْ تَحْتِ . وَإِنَّمَا هُوَ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ ، وَذَلِكَ تَصْحِيفٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك (١) ، وهذا أمر عظيم جداً .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَرٌ ، عن زيد العمي ، عن أبي الصديق الناجي قال : خرج سليمان (٢) ، عليه (٣) السلام ، يستسقى ، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقيك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ، عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَرٍ ، عن همام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ [قال] (٤) : « قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً ، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَفَى (٥) أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ ! » (٦) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لِأُعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) ﴾ .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندساً ، يدل سليمان ، عليه السلام ، على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط (٧) الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام [يوماً] (٨) ، بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج ، يقال له : « نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غلبت اليوم ! قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ ، فيصيده الصبي . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبتة . فقال (٩) له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر ، وذهب الحذر . فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من القرآن

(١) في ف : « من قولها » . (٢) في ف ، أ : « سليمان بن داود » . (٣) في ف : « عليهما » .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) في ف ، أ : « أى » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤١) .

(٧) في ف : « يستنبطوا » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) في ف ، أ : « ثم قال » .

أبدأ (١) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزى - من أهل « برزة » من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم [يوم] (٢) الإثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد : أنه سأل عن سبب عوره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة في قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه ، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجمع الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشرا بها عظيما ، وقالوا : الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر ، وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلاني ، فأبيا ، فألحت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدولة ، فكحلا عيني الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عيني نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرأة ، أنظر ما تحتها كما ترى المرأة ، ثم قالوا لى : سر معنا قليلا ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى إذا بعدت عن القرية ، أخذاني فكتفاني ، وأدخل أحدهما يده فى عيني ففقاها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر ففك وثاقى . فهذا ما كان من خبر عيني (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ، عليه السلام : عنبر .

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه : تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نوبٌ من كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ، ﴿ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أخطأ بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ : قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى نتف ريشه .

وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه ، وتركه ملقى يأكله الذر والنمل .

وقوله : ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعنى : قتله ، ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نذر سليمان دمك ! فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي ﴾

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٤٠٥) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبیر بنحوه .

(٢) زيادة من ف .

(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ١٣٠ « المخطوط ») .

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ، فقال : نجوت إذاً .

قال مجاهد : إنما دفع [الله] (١) عنه ببره بأمه (٢) .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٦) .

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين .

وسبأ هم : حمير ، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية .

وقال ابن جريج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها يلتقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا سفيان - يعنى ابن عيينة - عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة (٣) سليمان ألف قيل ، تحت كل قيل مائة ألف [مقاتل] (٤) .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قيل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا (٥) معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من متاع الدنيا ما (٦) يحتاج إليه الملك المتمكن ، ﴿ وَلَهَا

(٣) فى ف : « كان لصاحبة » .

(٢) فى ف : « أمه » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « مما » .

(٥) فى ف : « عن » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللالىء .
قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحته ، مرمول بالياقوت والزبرجد . [طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد [(١) واللؤلؤ ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة (٢) .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه (٣) ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلتها ، فيسجدون لها صباحاً ومساءً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : عن طريق الحق ، ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ [معناه : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾] (٤) أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقرأ بعض القراء : « ألا يا اسجدوا لله » ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و« يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده : « ألا يا قوم ، اسجدوا لله » .

وقوله : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعلم كل خبيثة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخبء : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض : ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وهذا مناسب من كلام الهدد ، الذى جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

(٢) فى ف : « امرأة تليها » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف : « من شرقية ومثلها من غربية » .

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: هو المدعو الله، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه.

ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرّد. وإسناده صحيح (١).

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: أصدقت (٢) فى إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فى مقاتلتك، فتخلص (٣) من الوعيد الذى أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: فى جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التى كانت تختلئ فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك (٤) بين يديها، ثم تولى ناحية أدياً ورياسة، فتحيرت بما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ تعنى بكرمه: ما رآته من عجب أمره، كون طائر أتى به (٥) فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدياً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. فعرفوا أنه من نبى الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبل سليمان، عليه السلام.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره، حيث قال: حدثنا أبى، حدثنا هارون بن الفضل (٦) أبو يعلى الخناط (٧)، حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، [عن عبد الكريم] (٨) أبى أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال: «إنى أعلم آية لم

(١) لم أجده من حديث أبى هريرة إلا عند ابن ماجه فى السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد». وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس فى مسند الإمام أحمد (١/٣٣٢) وسنن أبى داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٤).

(٢) فى ف: «صدقت». (٣) فى ف: «لتخلص». (٤) فى ف، أ: «هناك». (٥) فى ف، أ: «جاء به». (٦) فى أ: «المفضل». (٧) فى ف، أ: «الخياط». (٨) زيادة من ف، أ.

تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود . قال : قلت : يا رسول الله ، أى آية ؟ قال : «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» . قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسي ، ثم التفت إلى وقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهران : كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ ﴾ يقول (٢) قتادة : لا تحيروا على ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا على .

﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ : قال ابن عباس : موحدين . وقال غيره : مخلصين . وقال سفيان بن عيينة :

طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةً بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣٥) .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ؛ ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أى : حتى تحضرون وتشهرون . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ ﴾ أى : منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقبة [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربه ، فما لنا عاقبة] (٣) عنه . وبعد هذا فالأمر (٤) إليك ، مرى فينا برأيك (٥) نمتله ونطيعه .

قال الحسن البصرى ، رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى عُلَجة تضطرب ثديها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه (٦) لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

(١) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (١٨٧/٢) من طريق الحسين بن حفص عن أبى يوسف به .

(٢) فى ف : « قال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وبعدها فالأمر » .

(٥) فى ف : « رأيك » . (٦) فى ف : « وأنها » .

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً ^(١) عُنُوهُ أَفْسَدُوهُ ، أى : خَرَّبُوهُ ، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾
أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾ ^(٢) ،
قال الرب ، عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسألة والمخادعة
والمصانعة ، فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣) أى : سأبعث إليه بهدية
تليق به ^(٣) وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً
نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك وبتترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : رحمها الله ورضى
عنها ، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها
فهو نبي فاتبعوه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ﴾ ^(٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ
صَاغِرُونَ ^(٣٧) .

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب
وجواهر ولآلى وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلبينة من ذهب . والصحيح أنها أرسلت
[إليه] ^(٤) بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وغيرهما : وأرسلت جوارى فى زى الغلمان ، وغلمان فى زى
الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي . قالوا : فأمرهم [سليمان] ^(٥) ، عليه
السلام ، أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تُفَرِّغُ عَلَى يَدَيْهَا مِنَ الْمَاءِ ، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم
بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن ^(٦) يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن ^(٧) من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى
أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله ، والله أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدرح ليملاء ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى
الخليل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك . وبخرزة وسلك ليجعله فيها ، ففعل ذلك . والله أعلم أكان
ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أن سليمان ، عليه السلام ، لم ينظر إلى ما

(١) فى أ : « بلدة » . (٢) فى ف ، أ : « أذلة وكذلك يفعلون » . (٣) فى ف : « بمثله » .

(٤) (٥ ، ٤) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « بطن » . (٧) فى ف : « يغسلن » .

جاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : ﴿ أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ ﴾ أى : أتصنعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟! ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى : الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أى : أنتم الذين (١) تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيه الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .
﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : بهديتهم ، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ، ﴿ وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أى : من بلدهم ، ﴿ أَذِلَّةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى : مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، نارية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام ، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح (٢) بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿ (٤٠) ﴾

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - عرفت ، ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته (٣) شيئاً . وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي ، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل فى سبعة أبيات ، بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك . ثم شخّصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قيل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ،

(١) فى ١ : « الذى » . (٢) فى ف : « فرح » .

(٣) فى هـ : « بمكابرته » ، والمثبت من ف ، أ ، والطبرى (١٩/١٠٠) .

وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستتراً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق (١) ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وهكذا قال عطاء الخراساني ، والسدّي ، وزهير بن محمد : ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم .

﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ ﴾ : قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شعيب الجبائي : وكان اسمه كوزن . وكذا قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان . وكذا قال أيضاً وهب بن منبه .

قال أبو صالح : وكان كانه جبل .

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام (٢) من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ : قال ابن عباس : أى قوى على حملة ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسخر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه . هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ - قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا روى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ، والضحاك ، وقتادة : إنه كان من الإنس - زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة - فى رواية عنه - : كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس (٣) يقال له : ذو النور .

وزعم عبد الله بن لهيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مدّ بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

(٣) فى أ : « الإنس » .

(٢) فى ف ، أ : « والطعام » .

(١) فى ف : « مغاليق » .

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتاك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ، ودعا الله عز وجل .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام . وقال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، اثنتى بعشرها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا الله ، عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس - وكان في اليمن ، وسليمان ، عليه السلام ، بيت المقدس - غاب السرير ، وغاص في الأرض ، ثم نبع من بين يدي سليمان ، عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عين سليمان ومكؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى : هذا من نعم الله على ، ﴿ لِيُثْبِتَنِي ﴾ أى : ليختبرني ، ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أى : هو غنى عن العباد وعبادتهم ، ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى : كريم في نفسه ، وإن لم يعبد أحد ، فإن عظمت له ليست مفتقرة (١) إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفىكم إياها] (٢) فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

﴿ قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١) ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (٤٣) ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

(١) فى أ : « تفتقر » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه .

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ .

لما جىء سليمان ، عليه السلام ، بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، فقال : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه .

وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر : وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] (١) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ أى : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية فى الذكاء والحزم .

وقوله : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ : قال مجاهد : سليمان يقوله .

وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان ، عليه السلام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، رحمهما الله - أى : قال سليمان : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدّها ، أى : منعها من عبادة الله وحده . ﴿ مَا (٢) كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن (٣) ، وقاله ابن جرير أيضا .

ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون فى قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله ، عز وجل ، تقديره : ومنعها ، ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : صدّها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير ، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه . واختلفوا فى السبب الذى دعا

(٣) فى أ : « سعيد بن جبیر أيضا » .

(٢) فى ف : « بل » وهو خطأ .

(١) زيادة من ف ، أ .

سليمان ، عليه السلام ، إلى^(١) اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن فى ساقها هُلْبٌ^(٢) عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فسأه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ - هذا قول محمد بن كعب القرظى ، وغيره - فلما دخلت وكشفت عن ساقها ، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً ، ولكن رأى على رجلها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل^(٣) ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : موسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال^(٤) للجن : اصنعوا شيئاً غير موسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النُورَةَ . وكان أول من اتخذت له النُورَةَ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جرير ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمرّد من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها فى عبادتها الشمس^(٥) من دون الله .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العُلجَةُ الصرح عرفت - والله - أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح ، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضاً . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرَحٌ مُّمرّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ ﴾ ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله، عز وجل ، وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون الله . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ - قال : (٦) وأنسيت ما قالت (٧) - فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريباً عن ابن عباس ، قال : (٨) حدثنا الحسين ابن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد - ونحن فى الأزد - قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم تُوضعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس (٩) الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلمهم الطير ، ثم

(٣) فى ف ، أ : « زوج » .

(٢) فى أ : « هلف »

(١) فى ف : « فى » .

(٦) فى ف : « قالت » .

(٥) فى ف ، أ : « الشيطان » .

(٤) فى ف : « وقال سليمان » .

(٩) فى ف : « تجلس » .

(٨) فى ف : « فقال » .

(٧) فى ف : « ما قلت » .

يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فيبينما هو ذات يوم في مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (١) : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه في الأرض ، فلا يتمتع من غلة ولا من شيء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ - فقراً حتى انتهى إلى قوله - : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا ﴾ وكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى بلقيس : ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب (٢) إليها ، ألقى في روعها : إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلقوا على وائتوني مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنى مرسله إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدونني بمال ، أرجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء : ومجاهد حينئذ في الأزد - قال سليمان : أيكم يأتي بي بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، ﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ - قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال (٣) : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا أنظر في كتاب ربي ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] (٤) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقراً عنده] (٥) قال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ ، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . قال : فسألته عن أمرين ، قالت لسليمان : أريد ماء [من زبد رواء] (٦) ليس من أرض ولا من سماء - وكان سليمان إذا سئل عن شيء ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] (٧) فقالت الشياطين : هذا هين ، أجز الخليل ثم خذ عرقها ، ثم املاً منه الآية . قال : فأمر بالخليل (٨) : فأجريت ، ثم أخذ عرقها فملاً منه الآية . قال : وسألت عن لون الله ، عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره ، فخر ساجداً ، فقال : يارب ، لقد سألتني عن أمر إنه يتكايد (٩) ، أي : يتعاضم في قلبي أن أذكره لك . قال : أرجع فقد كفيتكهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت : ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال : ونسوه كلهم . قال : وقالت الشياطين لسليمان : تريد أن تتخذها لنفسك (١٠) ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد ، لم ننفعك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها :

(١) في ف : « قال وتفقد الهدهد قال » . (٢) في ف ، أ : « هذا الكتاب » . (٣) في ف ، أ : « فقال » .

(٤) ، (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) ، (٧) زيادة من ف . (٨) في ف : « أمر الخليل » . (٩) في ف ، أ : « ليتكابر » .

(١٠) في ف ، أ : « يريد أن يتخذها لنفسه » .

ادخلنى الصرح. فلما رآته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها ، فإذا هى شعراء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه (١) المواسى . فقال : أثر موسى (٢) قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورة . قال : فهو أول من جعل له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث .

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم . والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متعلقة عن أهل الكتاب ، مما يوجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب - سامحهما الله تعالى - فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد (٣) والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه ، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .

أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . الْأَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . والصرح : قصر فى اليمن على البناء ، والممرد أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليربها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله (٤) وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس (٥) من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله (٦) وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٥)
قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ - قال مجاهد : مؤمن وكافر - كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] .

(٣) فى أ : « النوادر » .

(٢) فى أ : « المواسى » .

(١) فى ف ، أ : « يذهبه » .

(٥) فى ف : « للشمس » .

(٤) فى أ : « لأوامر الله » .

(٦) فى ف : « فى عبادة الله » .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ، أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً . وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أى : بقضاء الله وقدره (١) . وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالِ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣) .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلاً فيقتلوه غيلةً ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى : مدينة ثمود ، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى : تسعة نفر ، ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كباراً فيهم ورؤساءهم .

قال العوفي ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - قبحهم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك .

وقال السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعى ، ودعى ،

(١) فى ف ، أ : « بقدر الله وقضائه » .

وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطح ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أى : الذى بإشر ذلك بيده . قال الله تعالى : ﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني ، سمعت عطاء - هو ابن أبى رباح - يقول : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم^(١) ، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطَعَ الذهب والورق من الفساد فى الأرض^(٢) .

وفى الحديث - الذى رواه أبو داود وغيره - : أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس^(٣) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرُونَ عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ، عليه السلام ، من لقيه ليلاً غيلة . فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا^(٤) على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم معانقون إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة ، قالوا حين عقروها : نُبِيتُ صالحاً [وأهله]^(٥) وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم . فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هَلُمَّ فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلاً لبيئته فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم ، أتوا منزلاً صالح ، فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٠) .

(٢) الموطأ (٢/ ٦٣٥) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٤٤٩) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) فى ف : « تحالفوا » .

وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أى : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ؛ ولهذا قال : ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى : على نعمه على عباده ، من النعم التى لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّمَ على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، عليهم من الله الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢] .

وقال الثورى ، والسدى : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى [الله] (١) عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى ، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم (٢) ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع (٣) أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمار بن صبيح ، حدثنا طلق بن غنام ، حدثنا الحكم ابن ظهير ، عن السدى - إن شاء الله - عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، اصطفاهم الله لنبهه، رضى الله عنهم (٤) .

وقوله : ﴿آلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ : استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين (٥) أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافى والقفار ، والأشجار والزرع ، والثمار والبحور (٦) ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بعد ذكره لهم » . (٣) فى ف : « جميل » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٤٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٨٧/٧) : « وفيه الحكم بن ظهير ، وهو متروك » .

(٥) فى ف : « شرع يبين تعالى » . (٦) فى ف : « والبحار » .

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى : جعله رزقاً للعباد ، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أى : بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى : منظر حسن وشكل بهى ، ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أى : لم تكونوا تقدرعون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المتفرد به ، دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف (١) به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦٣] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يُفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : إله مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون (٢) به أيضاً أنه الخالق الرازق .

ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [أى : إله مع الله] (٣) فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧] .

وقوله ههنا : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ : ﴿أَمَّنْ﴾ فى هذه الآيات [كلها] (٤) تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك ، وقد قال : ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ثم قال فى آخر الآية : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أى : يجعلون الله عدلا ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر : ٩] أى : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال : ﴿أَفَمَنْ (٥) هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها ؟ ولهذا قال : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها .

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) .

(٣) (٤) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف ، أ : « يعترفون » .

(١) فى ف : « كما يعرف » .

(٥) فى جميع النسخ : « أمن » ، والصواب ما أثبتناه .

يقول : ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بسيطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذراهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم^(١) أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾ أى : جبلاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة^(٢) حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها : أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار : من كل جانب ، والمقصود منها : أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحتها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على^(٣) القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) .

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ، كما قال : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] . وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن أبى تيممة الهجيمى ، عن رجل من بلهجوم قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردّ عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » . قال : قلت : أوصنى . قال : « لاتسبن أحداً ، ولا تزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من ذكوك فى إناء المستقى ،

(١) فى ف ، أ : « أو بعد هذا » .

(٢) فى ف ، أ : « والمالحة » .

(٣) فى أ : « إليهم » .

واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة ، [وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة] (١) « (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابي فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة الهجيمي (٣) ، عن أبي تيممة الهجيمي ، عن جابر ابن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ بِشَمْلَةٍ ، وقد وقع هُذْبُها على قدميه ، فقلت : أيكم محمد - أو : رسول الله ؟ - فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله ، أنا من أهل البادية ، وفي جفائهم ، فأوصني . فقال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسَطٌ ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقى ، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المَخِيلَةِ ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تَسْبِنَ أحداً » . قال : فما سببت بعده أحداً ، ولا شاة ولا بعيراً (٤) .

وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً ، وعندهما طرف صالح منه (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم (٦) ، حدثنا عبدة بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد الله بن أبي صالح قال : دخل على طاوس يعودني ، فقلت (٧) له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه : قرأت في الكتاب الأول : إن الله يقول : بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن (٨) فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنني (٩) أجعل له من بين ذلك مخرجاً . ومن لم يعتصم بي فإنني (١٠) أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري ، المعروف بالدقيّ الصوفي - قال هذا الرجل (١١) : كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني ، فركب معي ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لي : خذ في هذه ، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرة لي فيها ، فقال : بل هي أقرب . فسلكناهما فانتهينا إلى مكان وعَرَّ وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه ، وسل سكيناً معه وقصدني ، ففررت من بين يديه وتبعني ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لي ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين ؟ فقال : [صل] (١٢) وعجل . فقامت أصلي فأرتج

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) المسنَد (٦٤/٥) .

(٣) في هـ ، ف ، أ : « الهجيمي عن أبيه » .

(٤) المسنَد (٦٣/٥) .

(٥) سنن أبي داود برقم (٤٠٨٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٤٩ - ١٠٥٢) .

(٦) في أ : « هشام » . (٧) في ف ، أ : « قال » . (٨) في ف : « بمن » . (٩) في ف : « أن » ، وفي أ : « أي » .

(١٠) في ف : « فإنه » . (١١) في ف : « بالرجل » . (١٢) زيادة من ف .

على القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه . افرغ . فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ ، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ، وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول [الله] (١) الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلىة » ، قالت : هزم الكفار يوماً المسلمين فى غزاة ، فوقف جواد جيد بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ ويلك . إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد : ومالى لا أقصر وأنت تكل علوقتى إلى السؤاس فيظلموننى ولا يطعموننى (٢) إلا القليل ؟ فقال : لك على عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى . فجرى الجواد عند ذلك ، ونجى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمره ، فقال : ما تضام (٣) بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصله فى بلده ، فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرج يوماً يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره ، فلما اكتنفاه ليأخذه رفّع طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خدعنى بك فاكفنيهما بما شئت ، قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالماً (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : يُخَلِّفُ قَرْنَا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلْفٍ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدتهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء خلقهم (٥) كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض (٦) ، ولكن لا يمت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض (٧) ، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذراهم فى الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدّهم عدداً ، ثم يقيم (٨) القيامة ، ويوفى كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب

(٢) فى ف ، أ : « فيظلموننى ولا يطعموننى »

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « ما نظام » .

(٤) تاريخ دمشق (١٩/٤٨٩) « المخطوط » .

(٥) فى ف ، أ : « من ذرية بعضهم بعضاً » .

(٥) فى أ : « لجعلهم » .

(٨) فى ف : « يوم » .

(٧) فى ف : « تضيق الأرض عليهم » .

أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعْبَدُ ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا يَذْكُرُونَ ﴾ (١) أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٣) .

يقول : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] .

﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بين يدي السحاب الذي فيه مطر ، يغيث به عباده المُجِدِّينَ الْأَزْلِينَ الْقَنْطِينَ ، ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦٤) .

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ (٢) الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إِنْ يَبْطِشْ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] ، فهو ، تبارك وتعالى ، ينزل من السماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به [منها] (٣) أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ، ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه (٤) من عبادة آلهة أخرى ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال [الله] (٥) : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٦٥) بَلْ

(٣) زيادة من ف .

(٢) فى ف ، أ : « بدأ » .

(١) فى ف ، أ : « ماذكرون » .

(٥) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « من يدعونه » .

ادَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع ، أى: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ، عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده ، لا شريك له ، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩] ، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : من زعم أنه يعلم - يعنى لنبى ﷺ - ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿لَا يَعْلَمُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات (٢) : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً [للسياطين] (٣) ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلّة بأمر الله ، قد (٤) أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : ﴿بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

وقرأ آخرون : « بَلْ أدرك (٦) علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة - ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٧) ، أى: تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل .

(١) أصله فى الصحيحين لكن فيهما الشاهد قوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ بدل هذه الآية : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ .

(٢) فى ف ، أ : « خصل » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فقد » .

(٥) فى أ : « أدرك » . (٦) فى أ : « ادرك » .

(٧) صحيح مسلم برقم (٨) .

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى : غاب .
وقال قتادة : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ ﴾ (١) عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يعنى : يُجَهَّلَم (٢) ربهم ، يقول : لم ينفذ (٣) لهم
إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : « بل أدرك علمهم في الآخرة » ،
حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراساني ، والسدي : أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة
حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : « بل أدرك علمهم » ، قال :
اضمحل علمهم في الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى :
﴿ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾
[الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم (٤) . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : شاكون في
وجودها ووقوعها ، ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى : فى عمأة وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنَّنَا لَمُخْرَجُونَ ﴾ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ
وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠) .

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها
عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن
وآبَاؤنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ، ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
أى : أخذه (٥) قوم عن قبلهم ، من قبلهم (٦) يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله
تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : ﴿ قُلْ ﴾ - يامحمد - لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف
حلت بهم نَقَمُ اللَّهِ وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل
ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلماً لنبية ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : المكذبين بما
جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى :

(١) فى أ : « أدرك » . (٢) فى أ : « بجهلهم » . (٣) فى ف : « يتقدم » . (٤) فى ف ، أ : « منهم » .
(٥) فى ف : « يأخذه » ، وفى أ : « أخذ » . (٦) فى أ : « كتبهم » .

فى كيدك وردّ ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ، فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ . [قال ابن عباس أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذى تستعجلون] (١) . وهكذا (٢) قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

وإنما دخلت « اللام » فى قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ؛ لأنه ضمن معنى « عجل لكم » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ : عجل لكم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : فى إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شىء ، ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان (١) : أنه يقص على بنى إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلّوا ، فجاء [إليهم] (٢) القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه [أفضل] (٣) الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات . ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى أمورك ، وبلغ رسالة ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ، ممن كتبت (٤) عليه الشقاوة وحقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقْر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [أى] (٥) : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾ ﴿

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وترْكهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة . وقيل : من غيرها . كما سيأتى تفصيله - فتكلم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة - وروى عن على ، رضى الله عنه - : تكلمهم كلاماً أى : تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فنقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير . وفى هذا [القول] (٦) نظر لا يخفى ، والله أعلم .

(١) فى ف : « والبيان » . (٢ ، ٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « كتب » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) زيادة من ف ، أ .

وقال ابن عباس - فى رواية - : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كلاً^(١) تفعل يعنى هذا وهذا ، وهو قولٌ حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيْفَةَ بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تَرَوْا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا « (٢) » .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيْفَةَ موقوفاً^(٣) . وقال الترمذى : حسن صحيح^(٤) . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز ابن رُفَيْع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً^(٥) (٦) . والله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجريز بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حُذَيْفَةَ بن أسيد الغفارى أبى سَرِيحَةَ ، وأما جريز فقال : عن عبد الله بن عبيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال : ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدابة فقال : « لها ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج خَرْجَةً من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى : مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خَرْجَةً أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية » يعنى : مكة . قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرُعْهم إلا وهى تَرَعُو^(٧) بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب . فرفض الناس عنها شتّى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجَلَّتْ وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى ؟

(١) فى ف : « كل » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٦/٤) ولكن باختلاف فى الألفاظ ، وهذا اللفظ هو سياق حديث ابن مهدى عن سفيان وهو فى المسند (٧/٤) .

(٣) فى ف ، أ : « به مرفوعاً » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبو داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٤١) .

(٥) فى ف ، أ : « موقوفاً » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) .

(٧) فى أ : « تربو » .

فيقبل عليها فَتَسْمُهُ (١) في وجهه ، ثم تنطلق ويشارك الناس في الأموال ، ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضنى حقى . وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضنى حقى (٢) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً (٣) . فالله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٤) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبى حيان ، عن أبى زرعة ، عن عبد الله بن عمرو قال : حَفِظْتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه (٥) بعد : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاُ طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى (٦) على أثرها قريباً » (٧) .

حديث آخر : روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولى الحرقة - عن أبيه : عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً (٨) : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » (٩) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن زياد بن رباح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخويصة أحدكم » (١٠) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة » . تفرد به (١١) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أوس (١٢) بن خالد ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، عليهما السلام ، فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتجلى وجه المؤمن

(١) فى أ : « فتسمه » .

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٠٦٩) .

(٣) تفسير الطبرى (١٠/٢٠) .

(٤) تفسير الطبرى (١١/٢٠) .

(٥) فى ف : « لم أنساه » . (٦) فى ف : « والأخرى » .

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) .

(٨) فى ف ، أ : « ستة » .

(٩) ، (١٠) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٧) .

(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٥٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٥٦) : « هذا إسناده حسن ، سنان بن سعد مختلف فيه وفى اسمه » .

(١٢) فى هـ ، ف ، أ : « أوس » والمثبت من المسند .

بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

ورواه الإمام أحمد ، عن بهز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثهم عن حماد بن سلمة ، به (١) .
وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة ، به (٢) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تُمَيْلَةَ ، حدثنا خالد ابن عُبَيْد ، حدثنا عبد الله بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه قال : ذهب بى رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع . فإذا فتر في شبر » .

قال ابن بُرَيْدَةَ : فحجبت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعصاى هذه (٣) ، كذا وكذا (٤) .

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ أن ابن عباس قال : هى دابة ذات زَعَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد الله : تخرج الدابة من صدع من الصفا كجرى الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد ، والله لو كنت معهم - أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل الشام فتصرخ (٦) صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصبح (٧) بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٨) . ورواه ابن أبى حاتم . وفى

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٥٦٤) والمسند (٢٩٥/٢) من حديث عفان ويزيد ، و(٢٩١/٢) من حديث بهز .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « هذا » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٥٩/٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٧١/٢) .

(٦) فى أ : « ثم تصرخ » .

(٧) فى أ : « فتضع » .

(٨) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٨٠/١٥) من طريق عبد الملك بن المغيرة ، عن ابن البيلى ، عن ابن عمر قال : « تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسرون إلى منى فتحملهم بين عجزها وذنبها فلا يبقى منافق إلا خطمته ، قال : وتمسح المؤمن ، قال : فيصبحون وهم أشرف من الدجال » .

إسناده ابن البيلمان (١) .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عَزِير ، عليه السلام ، أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الجبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاباً ، ويتعادي الأخلاء ، وتُحَرِّقُ الحكمة ، ويرْفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التى تليها . وفى ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبى حاتم ، عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى مريم : أنه سمع أبا هريرة ، رضى الله عنه ، يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنها فرسخ (٢) للراكب .

وقال ابن عباس : هى مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْرُ الفرس الجواد ثلاثاً ، وما خرج ثلثها (٣) . ورواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جُرَيْج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هَرَّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا [عشر] (٤) ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت فى وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون فى الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يا فلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويا فلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ .

(١) فى ف : « البيلماني » . (٢) فى أ : « فرح » . (٣) فى ف ، أ : « ثلاثها » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا من الإسرائيليات مما لا فائدة من ذكره ، وأوصاف الدابة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين (١) بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا ، تقريراً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن (٢) فوجاً ، أى : جماعة ، ﴿ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير : ٧] .

وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ : قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : يدفعون . وقال قتادة : وزعة ترد (٣) أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ أى : أوقفوا بين يدي الله ، عز وجل ، فى مقام المسألة ، ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أى : ويسألون (٤) عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى (٥) عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا محيد عنه ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ ﴾ أى : فيه ظلام تسكن (٦) بسببه حركاتهم ، وتهدا أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون (٨٨) من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون (٩٠) .

(١) فى ف ، أ : « الظالمين مع المكذبين » . (٢) فى ف : « قرن وقوم » . (٣) فى ف ، أ : « يرد » .
(٤) فى ف : « فيسألون » . (٥) فى ف : « لا يخفى » . (٦) فى ف : « يسكن » .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث : « قرن ينفخ فيه » . وفي حديث (الصور) أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبيد الله ^(١) بن مُعَاذ العنبري ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي ، سمعت عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحدًا شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - [لا أدري أربعين] ^(٢) يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته ^(٣) عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك ^(٤) دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها [ورفع ليتها] ^(٥) » . قال : « وأول من يسمعه رجل يُلَوِّط حوض إبله » . قال : « فيصعقُ ويصعقُ الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال : الظل - نعمان الشاك - فتنبت ^(٦) منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك ^(٧) يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » ^(٨) .

وقوله ^(٩) : « ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها » ، الليت ^(١٠) : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿وَكُلُّ أُنثَى دَاخِرِينَ﴾ - قرئ بالمد ، وبغيره ^(١١) على الفعل ، وكل بمعنى واحد - و﴿دَاخِرِينَ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد

(١) فى أ : « عبد الله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم . (٣) فى ف ، أ : « لدخلت » .

(٤) فى أ : « وهى فى تلك » . (٥) زيادة من ف ، وصحيح مسلم . وفى أ : « أصغى ليتها ورفع ليتها » .

(٦) فى ف : « فنبئت » . (٧) فى أ : « فذلك » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) .

(٩) فى ف ، أ : « فقوله » . (١٠) فى أ : « إلا أصغى ليتها ورفع ليتها الليت » .

(١١) فى ف : « وغيره » .

عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثم إذا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب (١) فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت (٢) الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح (٣) إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُّوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه (٤) من الحكمة ما أودع ، ﴿ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ - قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله - وقد بين فى المكان (٥) الآخر (٦) أن له عشر أمثالها . ﴿ وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه (٧) ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، رضى الله عنهم ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم ، والزهرى ، والسدى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله : ﴿ وَمَن جَاءَ

(٣) فى ف : « كل ربح » .

(٢) فى أ : « ما نبئت » .

(١) فى أ : « ثقب » .

(٥) فى أ : « الموضع » .

(٤) فى ف : « به » .

(٦) يشير ابن كثير - رحمه الله - إلى الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

(٧) فى أ : « الحسنه » .

بِالسَّيِّئَةِ ﴿٩١﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ۞ .

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۞ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ (١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۞ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۞ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] .

وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ۞ ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعَصَّدُ شَوْكُهُ ، ولا يَنْفَرُ صَيْدُهُ ، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحيحين والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (٢) ، كما هو مبين فى موضعه من (٣) كتاب الأحكام ، والله الحمد .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۞ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شئ ومليكه ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ ﴾ أى : الموحدون المخلصون المنقادون لأمره المطيعين له .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ۞ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۞ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وكقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾ [القصص : ٣] أى : أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أمهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۞ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۞ ﴾ أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

(١) فى هـ : « قال » والمثبت من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) وسنن أبى داود برقم (٢٠١٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٠) وسنن النسائى (٢٠٣/٥) والمسنند (٢٥٩/١) .

(٣) فى ف : « فى » .

عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سِرُّكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شيء .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى ، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « يأبها الناس ، لا يَغْتَرَنَّ أحدكم باللّه ؛ فإن اللّه لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخرذلة والذرة » (١) .

[قال أيضا] (٢) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان اللّه مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد ، رحمه الله ، أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ	خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَى رَقِيبٍ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفِلُ سَاعَةً	وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى به .

(٢) زيادة من ف ، أ .

[بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر بفضلك] (١)

تفسير سورة القصص

[وهى مكية] (٢) .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿ طسّم ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ : خبّاب بن الأرت . قال : فأتينا خبّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضى الله عنه (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسّم ﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبّر وطغى ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا ﴾ أى : أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ،

يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها ^(١) بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيْ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدْرَ الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتتفاده ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر والغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد المحال ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إِنَّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فرعون قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل ^(٢) ، فيلُون ^(٣) هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يدبرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت

(١) فى ف ، أ : « ومنعها منه » .

(٢) فى ف : « أن تقنى بنو إسرائيل » ، وفى أ : « أن يفنى بنو إسرائيل » .

(٣) فى أ : « فيكون » .

أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُهَا إلا نساء القبط ، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبّاحون ، بأيديهم الشغار المرهفة ، فقتلوه ومضوا قَبْحَهُمُ الله . فلما حملت أم موسى به ، عليه السلام ، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفتن لها الدايات ، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى ، عليه السلام ، لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه : ٣٩] . فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، وألقى في خلدتها ، ونفت في روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت ، وسيرته ^(١) في البحر ، وربطته ^(٢) بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه ، فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به ^(٣) على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملته ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتن عليها في فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباهاه ، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا [وَحِزْنًا]﴾ ^(٤) .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « اللام » هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى ^(٥) اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليَجْعَلَهُمُ عَدُوًّا وَحِزْنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق : وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى : ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ، وقتلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً ، والله يقول : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحِزْنًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . يعنى : أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتَذِبُ دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت : ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ فقال : أما لك فنعم ، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه ، وقد تقدم في حديث الفتون في سورة « طه » هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائي وغيره .

(٣) فى أ : « حتى قربه » .

(٢) فى أ : « وأوثقته » .

(١) فى ت : « وأرسلته » .

(٥) فى ت : « يعنى » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقوله : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه .
وقولها : ﴿أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾ أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه .
وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها فى البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أى : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتُظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثبَّتَها وصَبَّرَها ، قال الله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى : أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعى ما يقال لها - فقالت لها : ﴿قُصِّيهِ﴾ أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتَطَلَّعى شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ - قال ابن عباس : عن جانب .
وقال مجاهد : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ : عن بعيد .
وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى ، عليه السلام ، بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه ، عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم (١) يشعروا بها ، قال الله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : تحريماً قَدَرِيّاً ، وذلك لكرامة الله له صانه (٢) عن أن يرتضع غير ثدى أمه ؛ ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة ، بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم [أخته] (٣) حائرین فيمن يرضعه قالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ (٤) لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

(٢) فى ت : « صيانة » .

(٤) فى ت : « يرضعونه » .

(١) فى ت ، ف : « فلم » .

(٣) زيادة من ت .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُورَة (١) الملك ورجاء منفعتهم . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به (٢) على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً . وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسن إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلاً ، وهى لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً ، فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراً » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله [سبحانه] (٣) أعلم ، فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق (٤) مخرجاً . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أى : به ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أى : عليه ، ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين . فحيثُ تحقق برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : حُكِمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحموده ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريبها إلى النفوس ، وعاقبته محموده فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين (١٥) قال رب إنى ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (١٦) قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين (١٧) .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آناه الله حكماً وعِلماً - قال مجاهد : يعنى النبوة ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « صهر » ، والمثبت من حديث الفتون . انظر : الجزء الخامس ، تفسير سورة طه .

(٢) فى ت : « بها » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ت : « ضيقة » .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطي ، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن جرير ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنكدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدي ، وقتادة .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى : من بنى إسرائيل (١) ، ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى : قبطي ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ .

قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجُمع (٢) كفه .

وقال قتادة : وكزه بعضا كانت معه .

﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿ أى : بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة ﴾ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ أى : معينا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٩) .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، عليه السلام (٣) ، لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً ﴾ أى : من معرة ما فعل ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أى : يتلفت ويتوقع (٤) ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك (٥) الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسى ، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى : ظاهر الغواية كثير الشر . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لحوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم

(٢) فى ت : « بجمع » .

(١) فى ت : « أى إسرائيلي » .

(٤) فى هـ ، ت : « أى يتقلب أى يتوقع » والمثبت من ف ، أ .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٥) فى ت ، ف : « ذلك » .

يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطى لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) .

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ ، وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : يا موسى ، ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى : من البلد ، ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤) .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمألاً عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى : يتلفت ، ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ، سبحانه وتعالى ، بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فآله أعلم .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مهيباً فرح بذلك ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أى : جماعة ﴿ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءُ ﴾ أى : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو (١)

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عروة بن ميمون » والمثبت من مصنف ابن أبى شيبة .

ابن ميمون الأودى ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامراتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم . إسناده صحيح (١) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ - قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه . وجلس (٢) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾ : قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن عمرو العنقرى (٣) ، حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حثت (٤) على جمل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى - وكان جائعا - فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى ، عليه السلام ، ثم انصرفت (٥) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها لموسى ، كما سيأتى والله (٦) أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السم .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، أسمع المرأة .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

لما رجعت المرأتان سراعاً (٧) بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألتهما عن

(١) المصنف لابن أبي شيبة (١١ / ٥٣٠) .

(٢) فى هـ ، أ : « ولما جلس » . (٣) فى ف : « عمير العنقرى » ، وفى أ : « عمير القفقرى » . (٤) فى ف ، أ : « أخبيت » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠ / ٣٧) .

(٦) فى ف : « فالله » .

(٧) فى أ : « سريعا » .

خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى : مشى الحائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مسترة بكم درعها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] (١) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمر بن ميمون قال : قال عمر ، رضى الله عنه : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع (٢) خراجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهري : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم رية ، بل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يعنى : ليشيك ويكافئك على سقيك لغنما . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ، ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يقول : طب نفسا وقر عينا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم فى بلادنا . ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبی ، عليه السلام (٣) ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد . ورواه ابن أبى حاتم .

حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا مالك بن أنس ؛ أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص ، قال : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزی أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى ، هديت » (٤) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه (٥) السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام (٦) ، بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة ، كما

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « تستلفع » .

(٣) فى ف : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى أ : « صلى الله عليه » .

(٤) المعجم الكبير (٥٥/٧) من طريق حفص بن سلمة عن شيان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمى : « فيه من لم أعرفهم » .

(٥) فى ت : « عليهما » .

(٦) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

ذكره غير واحد. وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى (١) بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى (٢) ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريباً إن شاء الله . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه : « ثبرون » ، والله أعلم .

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون (٣) وهو ابن أخى شعيب ، عليه السلام .

وعن أبى حمزة (٤) ، عن ابن عباس : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك .

وقوله : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أى : لرعية هذه (٥) الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت (٦) الطريق فاحذى [لى (٧)] بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدى (٨) إليه .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : ٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نُنكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرمى عنه (٩) ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائى : وهما صفوراً ، ولياً .

وقال محمد بن إسحاق : صفوراً وشرقاً ، ويقال : ليا . وقد استدل أصحاب أبى حنيفة [رحمه الله تعالى] [(١٠) بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعثك أحد هذين العبدین بمائة . فقال : اشتريت » أنه يصح ، والله أعلم .

(٢) فى أ : « لموسى » .

(٤) فى ف ، أ : « أبى هريرة » .

(٦) فى أ : « اختلفت » .

(٨) فى أ : « لأتهدى » .

(١٠) زيادة من ت ، ف .

(١) فى ت : « من » .

(٣) فى أ : « يثرون » .

(٥) فى أ : « رعية هذا » .

(٧) زيادة من أ .

(٩) فى ت ، ف ، أ : « غنمه » .

وقوله : ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أى : على أن ترعى على ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ^(١) ، وإلا ففي ثمان كفاية ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : لا أشاقتك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

وقد استدلووا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى ، فيما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة » أنه يصح ، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح . وحُمل الحديث المروى فى سنن أبى داود : « من باع يبعثين فى بيعة ، فله أو كسهما أو الربا » ^(٢) على هذا المذهب . وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، فى صحة ^(٣) استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا فى ذلك بما وراه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن ، حيث قال : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفى الحمصى ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة ^(٤) بن على ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن ربّاح قال : سمعت ^(٥) عتبة بن النّدر ^(٦) يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿طَسَمَ﴾ ^(٧) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجز نفسه ثمانى سنين - أو : عشر ^(٨) سنين - على عفة فرجه وطعام بطنه ^(٩) .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف ^(١٠) ؛ لأن مسلمة ^(١١) بن على وهو الخشنى الدمشقى البلاطى ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد روى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال ^(١٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن ربّاح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النّدر السلمى - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى أجز نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه » ^(١٣) .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما [فقد] ^(١٤) برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى : فلا

(١) فى ت : « لك » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٤٦١) .

(٣) فى أ : « حجة » .

(٤) فى أ : « سلمة » .

(٥) فى ت : « ثم روى بإسناده عن » .

(٦) فى هـ ، ت : « المنذر » ، والمثبت من ف ، وسنن ابن ماجه .

(٧) فى ت : « طس » .

(٨) فى ت : « أو عشرة » .

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) وضعفه البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٠) لتدليس بقية بن الوليد .

(١٠) فى ت : « وهذا الحديث فيه ضعف من هذا الوجه » .

(١١) فى أ : « سلمة » .

(١٢) فى أ : « فقال » .

(١٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١٤) زيادة من أ .

خرج على مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي ، رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر - فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر » (٢) ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألت يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه البخارى (٣) ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفتون » ، من رواية القاسم ابن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ؛ أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد روى من (٤) حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى ابن أبى يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأتمهما » (٥) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان - وهو ابن عيينة - حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب - وكان من أسناني أو أصغر منى - فذكره . قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، فذكره . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (٦) .

وقال (٧) ابن أبى الحاتم : قرئ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله ﷺ سئل : أى

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤٩٣/٣) والنسائى فى السنن (١٨٥/٤) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٤) .

(٤) فى ت : « روى طرق مرسل من » .

(٥) تفسير الطبرى (٤٤/٢٠) .

(٦) قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (١٢٤/١) : « إبراهيم بن يحيى العدنى عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكرو الرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدى ومثته : سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام أى الأجلين قضى موسى ، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الأزدى : لا يتابع فى حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور فى المستدرک » .

(٧) فى ف : « ثم قال » .

الأجلين قضى موسى؟ قال: «لا علم لى». فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لى، فسأل جبريل ملكا فوجه فقال: لا علم لى. فسأل (١) ذلك الملك ربه - عز وجل - عما سأل عنه جبريل عما سأل عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى: «قضى أبرهما وأبقاهما - أوقال: أزكاهما» (٢).

وهذا مرسل ، وقد جاء مرسلًا من وجه آخر ، وقال (٣) سنيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال : قال مجاهد : إن النبي ﷺ سأل جبريل : «أى الأجلين قضى موسى ؟» فقال : سوف أسأل إسرئيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : «أبرهما وأوفاهما» (٤).

طريق أخرى مرسله أيضا : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : سئل رسول الله ﷺ : «أى الأجلين قضى موسى ؟» قال : «أوفاهما وأتمهما» (٥).

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد (٦) روى [هذا] (٧) مرفوعاً من رواية أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا عوبد بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر : أن النبي ﷺ سئل : «أى الأجلين قضى موسى ؟» قال : «أوفاهما وأبرهما» ، قال : «وإن سئلت أى المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما» .

ثم قال البزار : لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد (٨) .

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عوبد بن أبي عمران - وهو ضعيف - ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن النذر (٩) بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني ، حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النذر (١٠) يقول : إن رسول الله ﷺ سئل : «أى الأجلين قضى موسى؟» قال : «أبرهما وأوفاهما» . ثم قال النبي ﷺ : «إن موسى ، عليه السلام ، لما أراد فراق شعيب ، عليه السلام ، أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاهما ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لَوْن . قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قَوَالِبَ ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ، ولا كَمِيشة تُفَوّت الكف ، ولا تُعُول » . وقال رسول الله ﷺ : «إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها ، وهى السامرية» (١٢).

(١) فى ف ، أ : «عز وجل» .

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) «كشف الأستار» .

(٣) فى ف ، أ : «فقال» .

(٤ ، ٥) تفسير الطبرى (٤٤/٢٠) .

(٦) فى ف : «وقد» .

(٨) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) «كشف الأستار» .

(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : «المنذر» .

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) «كشف الأستار» .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(١١) فى أ : «إنكم إذا» .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا (١) ، فقال :

حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النُّدَر (٢) السلمي - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى ، عليه السلام (٣) ، أجر نفسه بعفة فرجه وطُعْمَة بطنه . فلما وفي الأجل - قيل : يارسول الله ، أيّ الأجلين ؟ قال - : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب (٤) لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى ، عليه السلام ، إلى عصاه فَسَمَّاهَا من طرفها ، ثم وضعها في أدنى الخوض ، ثم أوردتها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الخوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال : « فأثامت وأثلثت ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش - قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبُوب . قال أبو زرعة : الصواب ضبُوب - ولا عزُوز ولا ثُعُول ولا كميشة تُفَوَّت الكف » . قال النبي ﷺ : « فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » .

وحدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لهيعة : ما الفشوش ؟ قال : التي تَفْشُ بلبنها واسعة الشَّخَب . قلت : فما الضبُوب ؟ قال : الطويلة الضرع تحجره . قلت : فما العزُوز ؟ قال : ضيقة الشَّخَب . قال فما الثُعُول ؟ قال : التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التي تُفَوَّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم . وينبغي أن يُروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبُوب ولا ثُعُول ولا كميشة ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من (٥) كلام أنس بن مالك - موقوفا عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد (٦) ، فقال : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما دعى نبي الله موسى ، عليه السلام ، صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبلاً على الماء ، فلما رأت الخيال فرعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام (٧) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) ﴾

(٣) في ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٢) في ت ، ف ، أ : « المنذر » .

(١) في ت : « بزيادة غريبة » .

(٥) في ت : « عن » .

(٤) في ت : « قابله » .

(٦) في ت : « ما يقارب هذا » .

(٧) تفسير الطبري (٢٠ / ٤٤) .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) .

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله (١) : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ أَي : الأكمل منهما ، والله (٢) أعلم .

قال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا آخر . وهذا القول لم أره لغيره ، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والله (٣) أعلم .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ : قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ] (٤) ﴿ أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أى : رأى نارا تضىء له على بعد ، ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى : حتى أذهب إليها ، ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : قطعة منها (٥) ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تتدفؤون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى (٦) : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلي الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه : ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلُق ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى

(١) فى أ : « حيث قال » .

(٢) فى ت : « قاله » .

(٣) فى ف : « قاله » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ت : « قطعة من النار » .

(٦) فى ت : « قال الله تعالى » .

ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أى : التى فى يدك . كما قرره على ذلك فى قوله : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه : ١٧ ، ١٨] . والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى﴾ ، فعرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشئ : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك فى سورة « طه » .

وقال هاهنا : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها (١) واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتهما ، فتندحر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد . فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ، رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ : قال مجاهد : من الفرع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شئ أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال (٣) : كان موسى ، عليه السلام ، قد ملئ قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ، إنى أدرك بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره ، ففرغ (٤) الله ما كان فى قلب موسى ، عليه السلام ، وجعله فى قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعنى : إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحيان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله ، [والله

(٢) فى ت : « روى » .

(١) فى ت : « عظم خلقها » ، وفى ف : « عظم خلقتها » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « فتزع » .

(٣) فى ت : « بإسناده » .

أعلم [(١)] .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٣٥) .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ، ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ ، وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خيرَ بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِن لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونُ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٧ - ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ [يُصَدِّقُنِي] (٢) ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أنجح فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم [عنى] (٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منه على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال [الله تعالى] (٤) فى حق موسى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة قاهرة ، ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى [لرسوله محمد ﷺ] (٥) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ] (٦) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، كما قال

(٣) زيادة من أ .

(٢) زيادة من ت .

(١) زيادة من ف .

(٦) زيادة من ت ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

(٥) زيادة من ت ، أ .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] .

ووجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثم يتبدئ فيقول : ﴿ بآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ ، تقديره : أنتم ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا (١) .

ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٦) وقال موسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ أى : مفتعل مصنوع . وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه ، فما صعد معهم ذلك .

وقوله (٢) : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر (٣) الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ، عليه السلام ، مجيباً لهم : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعنى : منى ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى : النصرة والظفر والتأييد ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : المشركون بالله .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٤٠) وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (٤١) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (٤٢) .

(١) تفسير الطبرى (٤٨/٢٠) .

(٢) فى ف : « وما نرى » .

(٣) فى ت ، ف : « وقولهم » .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، [و] ^(١) قال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات : ٢٣ - ٢٦] يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصْرَحاً لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع - كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن ^(٢) فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثم رباً غيرى ، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] ، وقال : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى : طغوا وتجبروا ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ^(٣) ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أى : أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ أى : فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ ^(٤) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى : وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله ، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ . قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ الَّرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

(٢) فى ت : « أن » .

(٤) فى ت : « فاتبعناهم » .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٣) فى ت : « لا قيامة ولا معاد » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٣) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ يعنى : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التي مسحوا قرده ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ (١) .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث عوف بن أبي جميلة (٢) الأعرابي ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد موقوفاً (٣) . ثم رواه عن نصر بن على ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد - رفعه (٤) إلى النبي ﷺ - قال : « ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ ﴾ أى : من العمى والغي ، ﴿ وَهَدًى ﴾ إلى الحق ، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٥٠) .

(٢) فى أ : « حيلة » .

(٣) مسند البراز برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .

(٤) فى ت : « مرفوعاً » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٨) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أُمى لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى : ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا - بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له - : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعنى : يا محمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى : وما كنت مقيماً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيا شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ - قال أبو عبد الرحمن النسائى ، فى التفسير من سننه : أخبرنا على بن حجر ، أخبرنا عيسى - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن على ابن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة ، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن على بن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَةَ - وهو ابن عمرو بن جرير (٢) - أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ : أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا

(١) فى ت ، ف : « الغيب » وهو خطأ .

(٢) تفسير الطبرى (٥١/٢٠) والذى فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ ، يعنون - والله أعلم - : من الآيات الكثيرة ، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص (١) الزروع والثمار ، مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التي أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿أَجِئْنَا لَتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أُوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ، أى تعاونا ، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ﴾ أى : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أَدْرَى إِذَا يَمَمْتُ أَرْضاً أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أى : فما أدرى أيلينى الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال : يعنى : موسى وهارون ﷺ (٢) ﴿تَظَاهَرَا﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رزّين فى قوله : ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون : موسى وهارون . وهذا قول جيد قوى ، والله أعلم . وقال مسلم بن يسار ، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنى : موسى ومحمداً ، صلوات الله وسلامه عليهما (٣) . وهذا رواية عن الحسن البصرى .

وقال الحسن وقتادة : يعنى : عيسى ومحمداً ، صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجز له ذكر هاهنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ، فقال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . يعنون : التوراة والقرآن : وكذا قال عاصم الجندى ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبى زرعة ، واختاره ابن جرير (٤) .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ، سبحانه ، أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : ﴿سَاحِرَانِ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ ، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن ، كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام : ٩١ ، ٩٢] ،

(١) فى ت ، ف ، أ : « تنقيص » . (٢) فى ف ، أ : « عليهما السلام » . (٣) فى ف : « عليهما وسلم » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٣/٢٠) .

وقال في آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقالت الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] ﴾ (١) [الأحقاف : ٣٠] وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل [الله] (٢) على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد ، ﷺ (٣) ، وهو القرآن ، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُرِّم على بنى إسرائيل . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَاتَّبِعُوا بَكْتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، قال مجاهد : فضلنا لهم القول .
وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .
قال مجاهد وغيره : ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ يعنى : قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جعدة ، عن رفاعه - رفاعه هذا هو ابن قرظة القرطبي ، وجعله ابن منده : رفاعه بن سموا ، خال صفية بنت حبي ، وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير (٤) - قال : نزلت : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه (٥) .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

(٢) زيادة من ف .

(١) زيادة من أ .

(٣) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٢/٢٢٨) .

(٥) تفسير الطبرى (٥٦/٢٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٣/٥) من طريق حماد بن سلمة به

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء (١) من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

قال سعيد بن جبیر : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنُ الْحَكِيم ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى [يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى] (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين من حديث عامر الشعبي ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحني ، حدثنا ابن لهيعة ، عن سليمان (٤) بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا] (٥) » (٦) .

وقوله ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ (٧) بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

(١) فى ت ، ف : « الألباء » وفى أ : « الألباب » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .

(٤) فى ، أ : « سليم » .

(٦) المسند (٢٥٩/٥) .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « يقابلون على السيئ » .

(٥) زيادة من ف ، أ ، ومسنند أحمد .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفَهَ عليهم سَفِيه ، وكَلَّمَهُم بما لا يَلِيقُ بهم الجوابُ عنه ، أَعْرَضُوا عنه ولم يَقابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ ، ولا يصدر عنهم إِلَّا كَلَامٌ طيب . ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نُريدُ طَرِيقَ الجاهِلين ولا نُجِبُّهَا .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين (١) بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش فى أُنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا (٢) لهم : خِيَبَكُمُ اللهُ مِنْ رَكْبٍ . بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم (٣) بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؛ ما نعلم ركبا أحق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا [لهم] (٤) : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا (٥) .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أى ذلك كان (٦) .

قال : ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن (٧) ، قال : مازلت أسمع من علمائنا أنهم أنزلن (٨) فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى (٩) فى سورة المائدة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرُهَبَانًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦) وَقَالُوا
إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

(١) فى أ : « حتى » .

(٣) فى ت : « فتأتوهم » .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٢/١) .

(٦) فى أ : « كما » .

(٧) فى ت : « نزلت » ، وفى ف ، أ : « نزلن » .

(٨) فى أ : « نزلن » .

(٢) فى أ : « فقال » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٩) فى أ : « اللاتى » .

يقول تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : إِنَّكَ يَا مُحَمَّد ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً [شديداً] (١) طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحن أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة (٢) التامة .

قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب ، عن أبيه - وهو المسيب بن حزن المخزومي ، رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

أخرجاه (٣) من حديث الزهري (٤) . وهكذا رواه (٥) مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : « يا عمّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تُعيرنى (٦) بها قريش ، يقولون : ما حملة عليه إلا جزع الموت ، لأقررتُ بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك . فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن غريب (٧) ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان (٨) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثني أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٩) .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ . (٢) فى أ : « الحجة » . (٣) فى ت : « البخارى ومسلم » .

(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤) . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ف : « يعيرنى » . (٧) فى ت : « رواه الترمذى وقال : حسن صحيح » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٨) .

(٩) المسند (٤٣٤/٢) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال (١) : أي ابن أخى ، ملة الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال (٢) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم (٣) ، عن سعيد بن أبي راشد قال : كان رسول قيصر جاء (٤) إلى قال : كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه في حجره ، ثم قال : « ممن الرجل ؟ » قلت : من تنوخ (٥) . قال : « هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة ؟ » قلت : إني رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم . فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال (٦) : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ : [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع (٨) الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾] (٩) ، أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ . يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحرم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

وقوله : ﴿ يُجَبِّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أي : من عندنا ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلماذا قالوا ما قالوا .

وقد قال (١٠) النسائي : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جريج ، أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (١١) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ

(١) فى أ : « وكان » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) فى أ : « جاراً » . (٥) فى هـ : « تبرح » والمثبت من ف ، أ .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(٧) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٤١) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .

(٨) فى أ : « اتباعهم » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) . (١١) فى ت : « وقد روى » .

آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ .

يقول تعالى مُعْرِضاً بأهل مكة في قوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أى : طغت وأشرت وكفرت نعمة الله ^(١) ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] ولهذا قال : ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَتَسَكَّنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى : كثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقد ذكر ابن أبى حاتم [هاهنا] ^(٢) عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ، عليه السلام ^(٣) ، قال للهامة - يعنى البومة - : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله عز وجل ، ثم تلا : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ .

ثم قال الله ^(٤) مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهى مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ . فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٥) ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود : ١٧] . وتمام الدليل [قوله] ^(٦) : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى ^(٧) أممها وأصلها التى ترجع إليها . وثبت فى الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٨) ، أنه قال : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ أى : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم . حكاه الزمخشري وابن الجوزي ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ت ، ف : « تعالى » .

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٨) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(١) فى ف : « بنعم الله » ، وفى أ : « نعم الله » .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « فى » .

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا (١) ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه » (٢) .

[وقوله] (٣) : ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) أى : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة ؟
وقوله : ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ : يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب ببقاء الله ووعدته ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذنين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل ، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿أَيْنَ

(١) فى ت : « عن الحياة الدنيا وحقارتها » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « تعقلون » .

شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنناد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعنى : من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ، ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا أَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله (١) : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي مَا كُنَّا كَذِبًا لَكُنَّا كَذِبًا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ [أى] (٢) : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صاثرون إلى النار لا محالة .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهِتَدُونَ ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك (٣) ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه . هاه . لا أدري ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

وقال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

(٢) زيادة من أ .

(١) فى ت ، ف : « تعالى » ، وفى أ : « الله تعالى » .

(٤) فى ف ، أ : « عبده »

(٣) فى أ : « من نبيكم وما دينكم » .

أى : يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ ﴾ نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة . وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام فى بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم ما تكن ^(١) الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ سِوَاءَ مَنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغللبته وحكمته ورحمته ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى ^(٢) كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ أَوْ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِنَبَلٍ أَوْ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ أَوْ تَسْمَعُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

(١) فى ت ، ف : « فيجزي » .

(٢) فى هـ ، أ : « مكتمة » والمثبت من ت ، ف .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قوَّامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرَّ ذلك بهم ، ولسئمت النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ ﴾ أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضرَّ ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ، ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بكم ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : خلق هذا وهذا ، ﴿ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى : فى الليل ، ﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات فى هذا كثيرة (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ .

وهذا أيضاً نداء [ثان] (٢) على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديه الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى : فى الدار الدنيا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ : قال مجاهد : يعنى : رسولا . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى : لا إله غيره ، أى : فلم ينطقوا ولم يحيروا (٣) جواباً ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ .

(١) بعدها فى ت ، ف :

« فصل : فانظر إلى هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً ؟ يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وثباتها ، وتطلعت إلى معاشها وتصرفها . جاء فائق الإصباح سبحانه بالنهار ، فقدم حيته بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق ، وأزالها وكشفها عن العالم ، فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف فى معاشه ومصلحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فيا له من معاد ! ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر ، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً ، منعها من الاعتبار والاستدلال به على النشأة الثانية ، وإحياء الخلق بعد موتهم ، كما وردت السنة بذلك ، أنه يستجاب للعبد إذا قام من نومه يقول : الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور » .

(٣) فى ت : « فلم يحييوا » .

(٢) زيادة من أ .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام (١) .

قال ابن جريج : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى (٢) ، عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دعامه : كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أى : [من] (٣) الأموال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ أى : لِيُثْقَلُ حَمْلُهَا الْفَتَامَ مِنَ النَّاسِ لكَثْرَتِهَا .

قال الأعمش ، عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حُمِلت على ستين بغلا أغر محجلا . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال (٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى : مما أباح الله فيها (٥) من المأكَل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك

(٢) فى ف ، أ : « موسى بن عمران » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « المال » .

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٣) زيادة من ت .

(٥) فى ت ، ف : « لك » .

حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فأت كل ذى حق حقه .

﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ^(١) ، وتسبىء إلى خلق الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٧٨) .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى : أنا لا أفتر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بآنى أستحقه ، ولمحبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فى آنى أهل له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا (٢) مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرْبُ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر : ٤٩] . أى : على علم من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] أى : هذا أستحقه .

وقد روى عن بعضهم أنه أراد : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء : وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، وفى الصحيح عن النبى ^(٣) ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » ^(٤) . وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويح أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى ^(٥) من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات ، واختياره وفعله ، كما روى عن حيوة بن شريح المصرى ، رحمه الله ، أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار [فى هذا] ^(٦) كثيرة جداً يطول ذكرها .

(١) فى أ : « فى الأرض » . (٢) فى ت ، أ : « وإذا » وهو خطأ .

(٣) فى ف : « رسول الله » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .

(٥) فى ت ، ف : « سبحانه » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتمول بسببه . والصحيح المعنى الأول ؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال - : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ : على خير عندي .

وقال السدى : على علم أنى أهل لذلك .

وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفة بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى (١)] .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) .

يقول تعالى مخبراً عن قارون : إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجميل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون .

[كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٢) [السجدة : ١٧] » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ : قال السدى : وما يلقى الجنة (٤) إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى (٥) هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .

(٤) فى أ : « وما يلقاها أى الجنة » .

(٥) فى أ : « وما يلقاها » .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم - : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ^(١) ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، نحوه ^(٢) . وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ^(٣) ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ^(٤) ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد ^(٥) ، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا أبو معلى بن منصور ^(٦) ، أخبرنى محمد بن مسلم ، سمعت زياداً النميرى يحدث عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن ^(٧) كان قبلكم خرج في بردين فاختلف فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » ^(٨) .

وقد ذكر [الحافظ] ^(٩) محمد بن المنذر - شكر - في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً في مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وقمائه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذ به بعض قرابته فى كفه وذهب .

وقد ذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبى الله موسى ، عليه السلام ^(١٠) . واختلف فى سببه ، فعن ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالا على أن تبته موسى بحضرة الملائكة من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول : ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت فى الملائكة ذلك ^(١١) لموسى ، عليه السلام ، أرعد من الفرق ، وأقبل عليها ^(١٢) وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر ، وأنجأك من فرعون ، وفعل كذا و [فعل] ^(١٣) كذا ،

(١) فى ت : « خسف الله به » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٠) .

(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (٤) فى ت : « النبى » .

(٥) المسند (٤٠ / ٣) .

(٦) فى هـ : « أبو يعلى بن منصور » والصواب ما أثبتناه من مسند أبى يعلى . (٧) فى ف ، أ : « بمن » .

(٨) مسند أبى يعلى (٢٧٩ / ٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٦ / ٥) : « فيه زياد بن عبد الله النميرى وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطئ » .

(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » . (١١) فى أ : « بذلك » .

(١٢) زيادة من ف ، أ . (١٣) زيادة من ف ، أ .

لما أخبرتنى بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنِي فَإِنْ قَارُونَ أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا ، عَلَى أَنْ أَقُولَ لَكَ ، وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فعند ذلك خَرَّ مُوسَى لِلَّهِ عِزًّا وَجَلَّ سَاجِدًا ، وَسَأَلَ اللَّهَ فِي قَارُونَ . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَكَ فِيهِ ، فَأَمَرَ مُوسَى الْأَرْضَ أَنْ تَبْتَاعَهُ وَدَارَهُ فَكَانَ (١) ذَلِكَ .

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينتته تلك ، وهو راكب على البغال الشَّهْب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصَّبْغَة (٢) ، فمر في جَحْفَلِهِ ذَلِكَ عَلَى مَجْلِسِ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَام ، وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه . فدعاه موسى ، عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى ، أما لئن كنت فُضِّلْتَ عَلَيَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعون عليّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون في قومه ، فقال موسى (٣) : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى (٤) : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُرْ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَنِي (٥) اليوم . فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيهما . فأخذتهما إلى أقدامهم . ثم قال : خذيهما . فأخذتهما إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أقبلِي بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوى (٦) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسِفَ بِهِم إِلَى الْأَرْضِ السَّابِغَة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة] (٧) أضربنا عنها صفحاً .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه و [لا] (٨) حشمة . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [به] (٩) ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له [لا] (١٠) من نفسه ، ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينتته ﴿ قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه [وعن عباده] (١١) ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١٢) .

﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف

(١) فى ف ، أ : « وكان » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المصبغة » .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى ف ، أ : « عليه السلام » . (٤) فى ف ، أ : « قال : يا موسى » .

(٥) فى ت : « فلتطعننى » . (٦) فى أ : « اذهبوا به لا أرى » . (٧) ، (٨) زيادة من ت ، ف .

(٩ - ١١) زيادة من أ .

(١٢) المسند (١/٣٨٧) .

به ، لأننا وَدَدْنَا أن نكون مثله .

﴿ وَيَكَّأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله تعالى [هاهنا] (١) : ﴿ وَيَكَّأَن ﴾ ، فقال بعضهم : معناها : «ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفِّت فقليل : « ويك » ودل فتح « أن » على حذف « اعلم » . وهذا القول ضعفه ابن جرير (٢) ، والظاهر أنه قوى ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة «ويكأن» . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم .

وقيل : معناها : ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كآن » ، ففصلها وجعل حرف « وى » (٣) للتعجب أو للتنبيه ، و « كآن » بمعنى « أظن وأحسب » . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى : ألم تر أن ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

سَأَلَتَانِي الطَّلَاقُ أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مَا لِي ، قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرٍ
وَيَكَّأَنُ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْدِ سَبَبٌ ، وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرٍّ

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر .

وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم (٥) البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق .

وقال ابن جريج : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظماً وتجبراً (٦) ، ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ : عملاً بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان (٧) ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شرك نعله أن يكون أجود من شرك صاحبه ، فيدخل (٨) فى قوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (٧٧/٢٠) .

(٣) فى أ : « أى » .

(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، والبيت فى تفسير الطبرى (٧٧/٢٠) .

(٥) فى أ : « أشعب السماك » .

(٦) فى ف : « ولا تجبرا » .

(٧) فى أ : « سالم » .

(٨) فى أ : « فدخل » .

وهذا محمول على ما إذا أراد [بذلك] (١) الفخر [والتطاول] (٢) على غيره ؛ فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ [أنه قال] (٣) : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » (٤) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » .

وقال (٥) : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا (٦) مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٠] وهذا مقام الفصل العدل .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسولَه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : افترض عليك أدائه إلى الناس ، ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] (٧) [المائدة : ١٠٩] ، [وقال] (٨) : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

وقال السدى عن أبى صالح ، عن (٩) ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد مثلها . وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، [و] (١٠) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهري .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه .

(٥) فى ت ، ف : « وقوله » . (٦) فى ف : « وهذا » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) فى ت : « وقال » . (١٠) زيادة من ت .

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (١) : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ : إلى الموت .

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .
وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قزعة ، وأبى مالك ، وأبى صالح .

وقال الحسن البصرى : أى واللّه ، إن له لمعاداً (٢) ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه (٣) :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصْفُرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى مكة .

وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطَّنَافِسى - به (٤) . وهكذا روى العوفى ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك] (٥) قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفَةَ ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكية ، والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها ، وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجله ، صلوات الله وسلامه عليه (٦) ، كما فسر ابن عباس

(١) فى ت : « وعنه » .

(٣) فى ت : « كما روى البخارى بإسناده » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) وتفسير الطبرى (٨٠ / ٢٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى أ : « أجل النبى صلى الله عليه وسلم » .

بسورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أنه أجلُّ رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح (١) خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : قل - لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم - قل : ربي أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبهه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحي (٢) إليك أن الوحي ينزل عليك ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : إنما نزل (٣) الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أى : معيناً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، [أى (٤)] : ولكن فارقهم ونازهم وخالفهم .

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك (٥) لا تلتوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعَلِّمُكَلِمَاتِكَ ، ومؤيدُ دِينِكَ ، ومظهر ما أرسلت (٦) به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، فعبّر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر [كلمة (٧)] كَيْدٌ :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَآخِلًا لِلَّهِ بَاطِلٌ» (٨) .

وقال مجاهد والثورى فى قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ،

(١) فى أ : « وأنصح » . (٢) فى أ : « الذكر » .

(٣) فى ت ، أ : « أنزل » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) فى أ : « طريقتك » .

(٦) فى أ : « ما أرسلك » .

(٧) زيادة من ف ، أ ، وصحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

وحكاية البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبِّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله (١) عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية (٢) وهالكة وزائلة إلا ذاته (٣) تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .

قال (٤) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكير والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان (٥) ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم معادكم ، فيجزىكم (٦) بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، [والله أعلم .

آخر تفسير سورة « القصص » [(٧)

(٢) فى ت : « تفنى » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ت : فيجازيكم » .

(١) فى ف : « به وجه الله » ، وفى أ : « به وجهه » .

(٣) فى ت : « وجهه » .

(٥) فى ت : « بسنده أن » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

تفسير سورة العنكبوت

[وهى] (١) مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة » .

وقوله : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء » (٢) وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (٣) ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، ومثلها فى سورة « براءة » وقال فى البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون (٤) . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ [البقرة : ١٤٣] : إلا لنرى ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه [يتعلق] (٥) بالمعوم والموجود .

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : لا يحسب الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) استند (١ / ١٧٢) ، والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) ، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٣) هكذا وقعت الآية فى جميع المخطوطات ، والصواب بعدم إثبات قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ﴾ ؛ لأنها ليست نهاية تزييل الآية ونهاية تزييل الآية : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(٤) فى ف ، أ : « كيف كان يكون » . (٥) زيادة من ف ، أ .

هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى : يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : بئس ما يظنون .

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً^(١) ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات^(٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد]^(٣) منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما^(٤) كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) .

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه^(٥) غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

(١) فى ت : « بصير بالكائنات » .

(٢) فى أ : « موفراً » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « الذى » .

(٥) فى أ : « إليه » .

لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعِهُمَا ﴾ أى : وإن حرصا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما ، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حباً دينياً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ .

وقال (١) الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فى أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما ، فأنزل الله (٢) ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ ﴾ الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى أيضا (٣) ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿ (١١) .

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من [المكذبين] (٤) الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : فتنته أن يرتد عن دينه إذا أودى فى الله . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم ، ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم ، أى [كنا] (٥) إخوانكم فى الدين ، كما

(٢) فى ت ، ف : « فنزلت » .

(١) فى ت : « وروى » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) ، والمسند (١٨١ / ١) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) ، وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من ف ، أ .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، ليطيعة الله فى الضراء والسراء ، وإنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] ، [والله أعلم] (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣) .

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم - إن كانت لكم آثام فى ذلك - علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك فى رقتى » . قال الله تكذيباً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُصْرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً آخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم

القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً ^(١) وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سنّ القتل » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان .

وقد ذكر ^(٣) ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً فقال : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ، حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى ^(٤) ، عن أبى أمامة ، رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال : « إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتى لا يجوزنى اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان ابن فلان؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الله الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى ^(٥) : من كانت له تباعة - أو : ظلامة - عند فلان ابن فلان ، فهلّم . فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدى الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدى . فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلمات ، فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » . ثم نزع النبى ﷺ بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد ^(٦) فى الصحيح ^(٧) من غير هذا الوجه .

وقال ^(٨) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن أبى الخوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة ^(٩) الشمالى ، عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ^(١٠) ، فلا أَلْفَيْكَ تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك ^(١١) الله منك » ^(١٢) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ .

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يخبره عن نوح ^(١٣) ، عليه السلام ، : أنه مكث ^(١٤) فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً ، وجهاراً ،

(١) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(٣) فى ت : « روى » . (٤) فى أ : « البخارى » . (٥) فى ت ، ف : « أن ينادى » .

(٦) فى ف ، أ : « شواهد » .

(٧) بعدها فى ت ، أ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا فأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « عن أبى النسائي » .

(١٠) فى أ : « بإصبعه » . (١١) فى ت ، ف : « آتاه » .

(١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣١ / ١٠) من طريق إسحاق بن أبى حسان عن أحمد بن أبى الخوارى به .

(١٣) فى ت : « قوم نوح » . (١٤) فى أ : « لبث » .

ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ قَلَبْتُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويبدى الأمر وإليه ترجع ^(١) الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ، ويكتبهم ويجعلهم أسفل السفالين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهك ^(٢) ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة : يقال إن عمره كله [كان] ^(٣) ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .
وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وقال عون بن أبي شداد : إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضاً غريب ، رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .
وقال الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاماً . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) فى أ : « وائل » .

(١) فى ف : « يرجع » .

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿ [الملك : ٥] أى : وجعلنا نوعها ، فإن التى يرمى ^(١) بها ليست هى التى زينة للسماء ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ^(٣) ﴾ ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجهاً ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر ^(٤) ، فإنه المشكور على النعم ، لا مُسَدِّى لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتوها ^(٥) آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى .

وروى الوالى ^(٦) ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكاً ، أى : تحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد - فى رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

وهى لا تملك لكم رزقاً ، ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحریم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ^(٧) ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى

(١) فى ف : « ترمى » . (٢) فى أ : « السماء » . (٣) فى ت : « وجعلناها آية للعالمين » .

(٤) فى أ : « الشكر » . (٥) فى ف : « سميتوها » . (٦) فى أ : « البخارى » .

(٧) فى ف ، أ : « وحده لا شريك له » .

به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا ^(١) لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .
وقال قتادة في قوله : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال : يُعْزَى نَبِيهِ ﷺ . وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ . وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا ^(٢) .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام [لقومه] ^(٣) يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ، والله أعلم .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة ^(٤) من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذى يقول للشيء : كن ، فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعُدل ؛ لأنه

(١) فى ت : « فأخلصوا » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠ / ٨٩) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « الباهرة » .

المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم » (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شئ خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى : جحدوها (٢) وكفروا بالمعاد ، ﴿ أُولَئِكَ يَنْسَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : موجه فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٢٥) .

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ، ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ، ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوَّطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عَنَانِ السماء : ولم توقد (٣) نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً . ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : سلَّمه [الله] (٤) منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقررّاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخذكم (٥) هذا يُحَصِّلُ لكم المودة

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٧٧) من حديث أبى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « جحدوها بها » .

(٣) فى ت : « توجد » .

(٤) زيادة من ت ، ف .

(٥) فى ف ، أ : « إنما اتخذتم » .

فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ، فبقى هذه الصداقة والمودة بغضةً وشنآنا ، ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجادون ما كان بينكم ، ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون (١) الأتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال (٢) ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي (٣) ، حدثنا أبو عاصم الثقفى [حدثنا] (٤) الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومى ، عن أبيه ، عن جده (٥) ، عن أم هانئ - أخت على بن أبى طالب - قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان (٦) » ، فقالت الله ورسوله أعلم « ثم ينادى مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون » قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم « ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم » قال : « فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلمات الدنيا - يعنى : المظالم - ثم ينادى : يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب » (٧) .

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخى إبراهيم ، يقولون هو: لوط ابن هاران بن آزر ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة [إبراهيم] (٨) الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد فى الصحيح (٩) : أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال : [هى] (١٠) أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له : « إنك : أختى » ، فلا تكذبنى ، فإنه ليس على وجه الأرض [أحد] (١١) مؤمن غيرك وغيرى (١٢) ، فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا - والله وأعلم - أنه ليس على وجه

(٣) فى أ : « الأحمصى » .

(٢) فى ت : « روى » .

(١) فى ت ، ف : « المتبوعين » وهو خطأ .

(٦) فى ت ، ف : « الطرفين » .

(٥) فى ت : « بإسناده » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي به ، وقال : « لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمى فى المعجم (٣٥٥ / ١٠) : « فيه أبو عاصم - الربيع بن إسماعيل - منكر الحديث ، قاله أبو حاتم » .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٧١) .

(١٠) زيادة من ت .

(١٢) فى ت : « غيرى وغيرك » .

(١١) زيادة من ت ، أ .

الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل « سدوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم (١) ما تقدم وما سيأتى .

وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه (٢) أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال (٣) ابن عباس ، والضحاك : هو المكنى عنه بقوله : ﴿ قَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهى من سواد (٤) الكوفة إلى الشام . قال : وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها ، حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم » .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال (٥) :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالى ، فجيئته ؛ إذ جاء رجل ، فانتبذ الناس وعليه خميص ، وإذا (٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، تلفظهم (٧) أرضهم ، تقذرهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تخلف » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس (٨) من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى عدها زيادة على عشرين مرة « كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم » (٩) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدستوائى ، عن قتادة ، به (١٠) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى [أبى] (١١) ، عن قتادة ، عن شهر بن

(١) فى ت : « إبراهيم » . (٢) فى ت ، ف : « الذى هو » . (٣) فى أ : « قاله » .

(٤) فى ف ، أ : « من أرض سواد » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف : « فإذا » .

(٧) فى ف : « تلفظهم » . (٨) فى ت : « ناس » .

(٩) المسند (١٩٨/٢) .

(١٠) المسند (٢٠٩/٢) .

(١١) زيادة من سنن أبى داود .

حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير أهل الأرض أئزهم مهاجر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى حية ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت (٣) عبد الله بن عمر يقول (٤) : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بأخرة الآن ، والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلة فى أعناقكم ، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى فى الأرضين (٥) إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (٦) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد : لا أعلمه إلا قال - : يحقر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه . كلما طلع منهم قرن قطعاه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة ، أو أكثر، وأنا أسمع (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النصر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى ابن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع - وقال أبو النصر ، عن حمزة ، عن نافع - عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون (٨) وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولد له ولد صالح] (٩) فى حياة جده . وكذلك (١٠) قال الله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

(١) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٢) .

(٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « عن » . (٤) فى أ : « سمعت عبد الله بن عمرو قال » .

(٥) فى ت ، ف : « الأرض » . (٦) فى ، هـ ، ت ، ف ، أ : « تقيل معهم حيث قالوا » والمثبت من المسند .

(٧) المسند (٨٤/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبي وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح

(١١ / ٣٨٠) : « سنده لا بأس به » .

(٨) فى ف : « الأرض » . (٩) زيادة من ت ، ف . (١٠) فى ف : « ولذلك » .

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ [الأنبياء : ٧٢] أى : زيادة ، كما قال : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (١) .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ [نَافِلَةً] ﴾ (٢) ، قال : « هما ولدا إبراهيم » . فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ، هذه خلعة (٣) سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملئهم مبشراً بالنبي العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام [من الله تعالى] (٤) .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنىء والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

﴿ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٨)
أَنْتُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .

(٢) زيادة من ت ، وفى أ : « من الله » .

(٣) فى أ : « خلقة » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

المُفْسِدِينَ (٣٠) ﴿٣٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً فى الملأ ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالت عائشة ، رضى الله عنها ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ، حدثنا سَمَاكُ بْنُ حَرْبٍ ، عن أبى صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ ^(١) قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة عن أبى يونس القشيري ، حاتم بن أبى صغيرة ^(٢) ، به ^(٣) . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة ^(٤) ، عن سَمَاكُ .

وقال ^(٥) ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم ^(٦) ، عن مجاهد : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ قال : الصغير ، ولعب الحمام ^(٧) والجلاشق ، والسؤال فى المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٨) .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ^(٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ^(٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أم هانئ » .

(٢) فى أ : « حيوه » .

(٣) المسند (٦ / ٣٤١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٠) .

(٤) فى أ : « حيوه » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ت : « بإسناده » .

(٨) فى أ : « الفاسقين » وهو خطأ .

(٧) فى أ : « الحمام » .

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً بَيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ .

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، فى هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همّة لهم إلى الطعام نكّرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه فى سورة « هود » و « الحجر » . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك ، ﴿ سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ، أى : اهتم ^(١) بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف ^(٢) عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة . ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببيعد ، وجعل [الله] ^(٣) مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ^(٤) ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أى : واضحة ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَمِينَ ﴿٣٧﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أئذّر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ .

قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الممتحنة : ٦] .

ثم نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد ، وهو السعى فيها والبغى على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) فى أ : « خوفا » .

(١) فى ف ، أ : « اغتم » .

(٤) فى ت : « القيامة » .

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها^(١) ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وقد تقدمت قصتهم مبسطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ ، قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم ، فأخذهم^(٢) بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهى قرية^(٣) من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى . وكانت العرب تعرف مساكنهما^(٤) جيداً ، وتمر عليها كثيراً . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة . وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ، ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ أى : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنأً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر^(٥) . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم^(٦) الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، وهم^(٧) فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : إنما فعل ذلك

(١) فى ت : « حناجرهم » .

(٢) فى ت ، ف : « وأخذهم » .

(٣) فى ت : « حناجرهم » .

(٤) فى ت : « مساكنهم » .

(٥) فى ف ، أ : « خاوية » .

(٦) فى ف ، أ : « وهو » .

(٧) فى ف ، أ : « وهو » .

بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم .

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ فَكُلًّا ^(١) أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ [الآية] ^(٢) ، أى : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى أن ابن جرير قال : قال ^(٣) ابن عباس فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، قال : قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا ﴾ ، قال : قوم نوح .

وهذا ^(٤) منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جرير لم يدركه . ثم قد ذكر فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق .

وقال قتادة : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، قوم شعيب . وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ^(٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ^(٤٣) ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه ^(٥) فليس فى أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك ^(٦) بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتصلعون منه .

قال ^(٧) الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني ابن لهيعة ، عن أبى قبيل ^(٨) ، عن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ مَثَلٍ ^(٩) .

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول [الله] ^(١٠) تعالى :

(١) فى ت : « فمنهم » وهو خطأ .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى ت : « عن » .
(٤) فى ت : « وهو » .
(٥) فى ت : « وذهابه » .
(٦) فى ف : « متمسك » .
(٧) فى ت : « روى » .
(٨) فى ت : « بإسناده » .
(٩) المسند (٢٠٣ / ٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٤ / ٨) : « إسناده حسن » .
(١٠) زيادة من ت ، وفى ف : « تبارك و » .

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

وقال (١) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن سنان ، عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني ، لأنني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٤) اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبراً] (٢) عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني : لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه : ١٥] ، ﴿ لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى أمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعا : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعدا » (٣) . [ذكر الآثار الواردة فى ذلك] (٤) :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » (٥) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) فى ت : « رواه » .

(٣) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم - كما سيأتى - من طريق عمر بن أبي عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٤ / ١١) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس به .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألبانى فى الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن - وهو البصرى - وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا فى سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعته الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

٢ - جهالة عمر بن أبي عثمان ، ذكره ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل (١٢٣ / ١ / ٣) وقال : « سمع طاوساً قوله ، روى عنه يحيى ابن سعيد » .

وحدثنا علي بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عن ذكره ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقف (٢) .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا علي بن هاشم بن (٣) البريد ، عن جوير ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال : وقال سفيان : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : ٨٧] قال : فقال سفيان : أى والله ، تأمره وتنهاه (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن جوير ، عن الضحاك ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - وقال أبو خالد مرة : عن عبد الله - : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهاه (٥) عن الفحشاء والمنكر » (٦) .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيب الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها (٧) .

وقال ابن جرير : قال علي : حدثنا إسماعيل بن مسلم (٨) ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعداً » (٩) .

والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جرير - يعنى ابن عبد الحميد - عن الأعمش ، عن أبي صالح قال : أراه عن جابر - شك الأعمش - قال : قال رجل للنبي ﷺ : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه (١٠) ما يقول » (١١) .

(١) المعجم الكبير (٥٤/١١) وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : « إسناده لين » .

(٢) تفسير الطبرى (٩٩/٢٠) .

(٣) فى ف : « عن » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٩/٢٠) وفيه جوير وهو متروك .

(٥) فى ف : « تنهى » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٤٦٥) مرفوعا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

(٧) ورواه ابن أبى شيبه فى المصنف (١٣ / ٢٩٨) من طريق زائدة عن عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : « لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ الآية » .

(٨) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « وقال ابن جرير : حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » والمثبت من الطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٩٩ / ٢٠) وهو من مراسيل الحسن .

(١٠) فى ف : « سينهاه » .

(١١) مسند البزار برقم (٧٢١) « كشف الأستار » وقال الهيمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله ثقات » .

وحدثنا محمد بن موسى الحرشي ^(١) ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش عن أبي صالح ، عن جابر ، عن النبي ﷺ بنحوه - ولم يشك ^(٢) - ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا في إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أو غيره ، وقال قيس عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزيد : عن عبد الله ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش قال : أنا أبو صالح ^(٣) ، عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول (٤) » (٥) .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الأول ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم . وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ^(٦) ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه .

وقال ابن عَوْن الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبى سليمان : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه .

وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبى هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك . قلت : فإن صاحباً لى فى المنزل يقول غير الذى تقول : قال : وأى شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه . صدق .

قال : وحدثنا أبى ، حدثنا النفيلى ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس

(١) فى ف ، أ : « الجرشي » .

(٢) مسند البزار برقم (٧٢٢) « كشف الأستار » .

(٣) فى هـ ، ت ، ف : « أبو صالح أخبرنا » ، والمثبت من المسند .

(٤) فى ف : « ستنهاه ما تقول » .

(٥) المسند (٢ / ٤٤٧) ، ورواه البزار فى مسنده برقم (٧٢٠) « كشف الأستار » من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمى فى المجمع

(٢ / ٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى أ : « خلال » .

فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه (١) .

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهْنَا وَإِلَيْكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) .

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف .

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتي هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير (٢) ، وحكاه عن ابن زيد .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق (٣) ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحيثئذ ينتقل من الجدال إلى الجلال ، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نصره بالسيف .

قال مجاهد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ، يعنى : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ﴾ ، يعنى : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ،

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) .

(٢) تفسير الطبرى (٢١ / ٢) .

(٣) فى ف ، أ : « المحجة » .

ولكن نؤمن به إيماناً مجمالاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ولا مؤولاً .

وقال البخارى ، رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ^(١) ، رضى الله عنه ، قال : كان أهل الكتاب ^(٢) يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهانا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » : وهذا الحديث تفرد ^(٣) به البخارى ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عُمر ، أخبرنا يونس ، عن الزهري ، أخبرنى ابن أبى نملة ^(٥) : أن أبا نَمْلَةَ الأنصارى أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ ، جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » : قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسوله وكتبه ، فإن كان حقاً لم ^(٦) تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم ^(٧) تصدقوهم » ^(٨) . قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمارة . وقيل : عمار . وقيل : عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصارى ، رضى الله عنه .

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدثون به غالبه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حُرَيْث ^(٩) بن ظُهَيْر ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية ، تدعوه إلى دينه كتالية المال ^(١٠) .

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ^(١١) ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله ^(١٢) ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ أحدث ^(١٣) تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو ^(١٤) من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن ^(١٥) مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم ^(١٦) .

(١) فى ت : « روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة » .

(٢) فى هـ ، ت ، ف : « كان أهل التوراة » والمثبت من البخارى .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) .

(٥) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » . (٦ ، ٧) فى ت : « فلا » .

(٨) المسند (١٣٦ / ٤) .

(٩) فى أ : « حرب » .

(١٠) تفسير الطبرى (٢١ / ٤) .

(١١) فى أ : « سليمان » . (١٢) فى ت : « روى البخارى بإسناده » . (١٣) فى ت : « أحدث الكتب » .

(١٤) فى ف ، أ : « وقالوا : هذا هو » . (١٥) فى ف : « من » .

(١٦) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣) .

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحرار - فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (١) .

قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت (٢) أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك ، كل بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب (٣) على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب .

وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط (٤) جيد .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ ، يعنى العرب من قريش وغيرهم ، ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغضى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيئات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ ، أى : قد لبثت فى قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب (٥) . وهكذا صفة فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] . وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً أبداً] (٦) إلى يوم القيامة (٧) ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين

(١) صحيح البخارى برقم (٧٣٦١) .

(٢) فى ت : « وضعت » .

(٣) فى أ : « الكتاب » .

(٤) فى ف : « ومناسبه وارتباطه » . (٥) فى ف : « لا يقرأ ولا يكتب » .

(٦) زيادة من ف ، و فى أ : « دائماً » . (٧) فى ف ، أ : « الدين » .

يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ، عليه السلام ^(١) ، كتب يوم الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حملة على ذلك رواية فى صحيح البخارى : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر فكتب » . ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجى ، وتبرؤوا منه ، وأنشدوا فى ذلك أقوالا ، وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال ، عليه الصلاة والسلام ^(٢) ، إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » ^(٣) ، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ، عليه السلام ^(٤) ، حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو ﴾ أى : تقرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ ، لتأكيد النفى ، ﴿ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضاً ، وخرج مخرج الغالب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقوله : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو كنت تحسنها ^(٥) لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : [هذا] ^(٦) القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمراً ونهياً وخبراً ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » ^(٧) .

وفى حديث عياض بن حمار ^(٨) ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان » ^(٩) . أى : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقتة النار » ^(١٠) . لأنه محفوظ فى الصدور ، ميسر ^(١١) على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ؛ ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة : « أناجيلهم فى صدورهم » .

(١) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٢) فى ف ، أ : « ﷺ » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣١) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « ﷺ » . (٥) فى ت : « تحسن الكتابة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وسيأتى إن شاء الله .

(٨) فى أ : « حماد » .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١٥١ / ٤) من حديث عقبة بن عامر وتقدم الكلام عليه فى فضائل القرآن .

(١١) فى ت : « وميسر » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك ، آياتٌ بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ^(١) . ونقله عن قتادة ، وابن جريج . وحكى الأول عن الحسن [البصرى] ^(٢) فقط .

قلت : وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ^(٥٠) أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(٥٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدتهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم [به] ^(٣) - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أُمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٥) .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف ، ١ .

من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ ^(١) مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه ^(٢) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . أخرجاه ^(٣) من حديث الليث ^(٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل و ﴿ ذِكْرَى ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : قل : ﴿ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ^(٥) ﴾ أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه ، بأنه أرسلنى ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [أى] ^(٦) : لا تخفى عليه خافية .
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ^(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٥٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل

(١) فى جميع النسخ : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .

(٤) المسند (٢ / ٣٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) .

(٥) فى أ : « كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » وهو خطأ .

(٦) زيادة من ت ، أ .

عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وقال هاهنا : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه .

ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة ، عن سِمَاك ، عن عِكْرِمَةَ قال فى قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال : البحر .
وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبي ؛ أنه سمع ابن عباس يقول : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ : وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتشر الكواكب فيه ، وتكور فيه الشمس والقمر ، ثم يستوقد فيكون هو جهنم .
وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حبيب ، حدثنا (١) صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « البحر هو جهنم » ، قالوا : ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ، ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل (٢) .
هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر ٤٨ ، ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسَحَرْتَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦] .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده عن » .

(٢) المسند (٤ / ٢٣٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴿

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثني جُبَيْرُ بن عمرو القرشي ، حدثني أبو سعد الأنصاري ، عن أبي يحيى مولى ^(١) الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم » ^(٢) .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا ، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة ، رحمه الله ، آوهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيّوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة ^(٣) .

(١) في ت : « روى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(٢) المسند (١ / ١٦٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤ / ٧٢) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(٣) بعدها في ت - وأظنها من الناسخ - ما يلي : « أما قصة هجرة الحبشة ، فقال ابن إسحاق : حدثني الزهري ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أمه أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار النجاشي ، آمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا اتهموا بينهم ، أن يبعثوا إلينا رجلين جلدتين ، وأن يهدوا إلى النجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا له هدية وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي ، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم » .

قالت : فخرجنا حتى قدمنا عليه ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار فلم يبق بطريق من بطارقتهم إلا دفعوا إليه هديته قبل أن يكلموا النجاشي ، ثم قالوا لكل بطريق : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم ديناً وأعلم بما عابوا عليهم ؛ فقالوا لهما : نعم ، ثم أتتهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم وآباءهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي ، فقالت بطارقتهم حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشي وقال : لاها الله لا أسلمهم إليهم أبداً ولا أكاد ، قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواي حتى أدعوه فأسألهم عما يقول هذان الرجلان . فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى بلادهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني ونزلوا بلادى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون لهذا الرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، قال : فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أسأفته فنشروا مصاحفهم حوله ، فلما دخلوا عليه سألهم ، فقال : ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل .

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله

= قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لئوحد ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله عز وجل ، فعبدنا الله لا نشرك به شيئاً ، وحرماناً ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وقتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال له النجاشى : وهل عندك مما جاء به من عند الله شئ ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدىراً من ﴿ كهيعص ﴾ .

قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما يتلى عليهم . وقال النجاشى : إن هذا الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . لا والله لا أسلمهم إليكما ولا أكاد . قالت : فلما خرجا من عنده . قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم . فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إن سألكم عنه . قالوا : نقول فيه ما قال الله عز وجل ، وما جاء به نبينا ، كائن فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه . قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ . يقول فيه : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فغضب النجاشى يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال له : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال . فقال : وإن تناخرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم : الآمنون . من سبكم غُرْمٌ ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آديت رجلاً منكم . والدبر : بلسان الحبشة الجبل . وردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى ، فأطيعهم فيه . قالت : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما . قالت أم سلمة : فكنت أتعرض لهم ليسبونى فأغرمهم ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله ما أغلا لعلى ذلك ، إذ انبرى له رجل من الحبشة ينازعه ملكه . قالت : فوالله ، ما أعلمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزنه ، عند ذلك تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى . فأتى رجلاً لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . قالت : وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يشهد وقعة القوم ثم يأتينا بخبر القوم ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالت : وكان من أحدث القوم سناً . قالت : فنفعوا له قربة فجعلوها فى صدره ، ثم سبح حتى خرج إلى النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله عز وجل للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له من بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك الحال متوقعين لما هو كائن ، إذا طلع الزبير يسعى ، ويليح بثوبه ، ألا أبشروا ، قد ظهر النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ، فوالله ما أعلمنا فرحاً فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدما على رسول الله ﷺ وهو بمكة .

وروى عن الزبير قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أهل أرضه ، جاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم فنقاتل معك ، وترى جرائتنا ، ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، فأتى ذلك عليهم .

المرجع [والمآب] (١) ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم (٢) الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبدا لا ييغون عنها حولا ، ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، وناذبوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثني أبي ، حدثنا صفوان المؤذن ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبي سلام الأسود ، حدثني أبو معاتق (٣) الأشعري ، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن (٤) رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غُرَفًا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة (٥) والناس نيام (٦) .

[قوله] (٧) : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم (٨) بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر (٩) شيئاً لغد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : الله يفيض لها رزقها على ضعفها ، ويسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ، حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي ، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري ، عن رجل (١٠) ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لي : « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ، قال : « لكنني أشتهيه ،

(١) زيادة من أ . (٢) في ت : « ووفاه تمام » .

(٣) في هـ ، ت : « أبو معاوية » ، والصواب ما أثبتناه من ف ، أ ، والمسند (٥ / ٣٤٣) .

(٤) في ت : « روى ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي مالك الأشعري » .

(٥) في أ : « وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل » .

(٦) ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥ / ٣٤٣) من طريق أبي معاتق عن أبي مالك به ، وسيأتي عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٧) زيادة من ت .

(٨) في ف : « فهم » .

(٩) في أ : « ولا يدخر » .

(١٠) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده » .

وهذه صبح رابعة منذ لم أزق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنني لا أكنز ديناراً ولا درهما ، ولا أخبئ رزقا لغد » (١) . (٢) .

وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزري ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض ، خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ، فيقيض الله له طيراً (٣) صغاراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحنانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يارازق النعاب (٤) في عشه وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر ، كقول النبي ﷺ : « سافروا تصحوا وترزقوا » .

قال البيهقي أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رداد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار (٥) ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تصحوا وتغنموا » . قال : ورويناه عن ابن عباس (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن دراج ، عن عبد الرحمن بن حنبل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا » (٧) .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً (٨) . وفي

(١) في ت : « إلى غد » .

(٢) ورواه البغوي في تفسيره (٢٥٣ / ٦) من طريق إسماعيل بن زرارة عن الجراح بن المنهال به - وقال الشوكاني في فتح القدير (٢١٣ / ٤) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتمدة ، وفي إسناده أبو العطوف الجزري وهو ضعيف » . أ . هـ مستفاداً من حاشية تفسير البغوي .

(٣) في ت : « طيوراً » .

(٤) في ت : « وروى البيهقي بسنده » .

(٥) في ت : « البغاب » وفي أ : « النعام » .

(٦) السنن الكبرى (١٠٢ / ٧) ورواه ابن عدي في الكامل (١٩٠ / ٦) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، وعامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبي حاتم في العلل (٣٠٦ / ٢) : « سألت أبي عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٧) المسند (٣٨٠ / ٢) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

(٨) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠٢ / ٧) ، من طريق بسطام بن حبيب عن القاسم عن أبي حازم عن ابن عباس مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في الكامل (٥٧ / ٧) من طريق نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، مرفوعاً . وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفاً ، وسيأتي مرفوعاً ، وجاء من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً . ورواه ابن عدي في الكامل (٤٥٤ / ٣) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، مرفوعاً وقال : « سوار هذا عامة ما يرويه غير محفوظ » .

لفظ : « سافروا مع ذوى الحدود والميسرة » (١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٦١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ .

يقول تعالى مقرا (٢) أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون أنه (٣) المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقر ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء (٤) المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلييتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الأباد .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا

(١) رواه الدليمى فى مسند الفردوس برقم (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وذكره السيوطى فى الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

(٢) فى ت : « الأصنام » .

(٣) فى ف : « بأنه » .

(٤) فى ت : « مخبراً » .

منهم دائما ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبي جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى في البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره في البر أيضا ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيما ، وكان (٢) كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ : هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ .

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمة ، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي ، ومن دخله كان آمنا ، فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ١ - ٤] .

وقوله : ﴿ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه [غيره من] (٣) الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله ، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم بيد ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ ، أي : لا أحد أشد

(١) في ت : « أنجكم » وهو خطأ .

(٣) زيادة من أ .

(٢) في ت ، ف : « فكان » .

عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء . ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ، يعنى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، أى : لنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، أى : طرقتنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكا - فى قول الله ^(١) : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا عيسى بن جعفر - قاضى الرى - حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن المغيرة ، عن ^(٣) الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس ^(٤) الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . [وفى حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرنى عن الإحسان » . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

[انتهى تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة ^(٥)] ^(٦)

(٢) فى أ : « قلبه » .

(١) فى ت ، أ : « قوله تعالى » .

(٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى » .

(٤) فى ت : « وليس » .

(٥) فى هـ : « والله أعلم » .

(٦) زيادة من ت .

تفسير سورة الروم

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلَمْ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ اَمْرٌ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ .

[نزلت] (١) هذه الآيات حين غلب (٢) سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل ملك الروم حتى أجهز إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل ، كما سيأتى .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (٣) ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فى اَدْنٰى الْاَرْضِ ﴾ قال : غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر (٤) الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر (٥) ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس (٦) سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُونِ » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دُونِ العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فى اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بَضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ اَمْرٌ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هكذا رواه (٧) الترمذى والنسائى جميعا ، عن الحسين (٨) بن حُرَيْث ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان بن سعيد الثورى (٩) به ، وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « غلبت » .

(٤) فى ف : « يظهر » . (٥) فى ت : « فذكروه » ، وفى ف ، أ : « فذكروا » . (٦) فى ت : « خمسين » .

(٧) فى ت : « ورواه » . (٨) فى أ : « الحسن » .

(٩) المسند (٢٧٦/١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٩) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصاغانى ^(١) ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جرير :

حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا محمد بن سعيد - أو سعيد ^(٢) الثعلبي الذي يقال له : أبو سعد من أهل طرسوس - حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، ذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر ^(٣) .

حديث آخر : قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه ^(٤) ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربي ، عن داود بن أبي هند ، عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله - هو ^(٦) ابن مسعود رضى الله عنه - قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذكر ^(٧) ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد ستين في الأجل » . قال : فما مضت الستين حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ إلى قوله : ﴿ [وَعَدَ اللّٰهُ] ^(٨) لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ ﴾ ^(٩) .

حديث آخر : قال ^(١٠) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي ، حدثنا مؤمل ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال : لما نزلت : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ، قال المشركون لأبي بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً ، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسأه ذلك وكرهه ، وقال لأبي بكر : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال : تصديقاً لله ولرسوله . فقال : « تَعَرَّضَ لَهُمْ وَأَعْظَمَ الْخَطَرَ واجعله إلى بضع سنين » . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا :

(١) في أ : « الصنعاني » .

(٢) في ف ، أ : « أبو سعد » .

(٣) تفسير الطبري (١٢/٢١) .

(٤) في ت : « البخاري ومسلم » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٧٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .

(٦) في ت : « وروى ابن جرير عن » . (٧) في ت : « فذكروا » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) تفسير الطبري (١٤/٢١) .

(١٠) في ت : « روى » .

نعم . [قال] (١) : فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارساً ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » (٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، أخبرنى ابن أبى الزناد ، عن عروة بن الزبير (٣) ، عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ، ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفى ذلك قول الله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحي مكة : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ ، قال (٤) ناس من قريش لأبى بكر : فذاك بيننا وبينك (٥) . زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ . قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير (٦) .

هكذا ساقه الترمذى ، ثم قال : هذا (٧) حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وقد روى نحو هذا مراسلاً عن جماعة من التابعين ، مثل عكرمة ، والشعبى ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، والزهرى ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود فى تفسيره حيث قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، عن عكرمة قال : كانت فى فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك ، فأشيرى على ، أيهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان . وهذا شهريراز (٨) ، وهو أحلم من كذا - تعنى أولادها الثلاثة - فاستعمل أيهم شئت . قال : فإننى قد استعملت الحليم . فاستعمل شهريراز (٩) ، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) ورواه أبو يعلى فى المسند الكبير ، كما فى إنحاف المهرة للبوصيرى (ق ١٨٣ سليمانىة) من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعة ، عن المؤمل بنحوه ، وقال البوصيرى : « وله شاهد من حديث نيار بن مكرم رواه الترمذى » . وهو الآتى بعده .

(٣) فى ت : « رواه أبو عيسى الترمذى » . (٤) فى ت ، ف : « فقال » . (٥) فى ت ، ف : « وبينكم » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٩٤) .

(٨ ، ٩) فى ت : « شهريراز » .

(٧) فى ت : « وقال الترمذى » .

قال أبو بكر بن عبد الله : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لو رأيتها ^(١) لرأيت المدائن التي خربت ، والزيتون الذي قطع . فأتيت الشام بعد ذلك فرأيتها ^(٢) .

قال عطاء الخراساني : حدثني يحيى بن يعمر : أن قيصر بعث رجلا يدعى قطعة بجيش من الروم ، وبعث كسرى شهريراز ^(٣) ، فالتقيا بأذرعات وبُصرى ، وهى أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم ، فغلبتهم فارس . ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون .

قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، [ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب] ^(٤) ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا ، ولا يقرن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ . فقام إليه أبى بن خلف فقال : كذبت يا أبا فضيل . فقال له أبو بكر : أنت أكذب ياعدو الله . فقال : أنا حبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين . ثم جاء ^(٥) أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ما هكذا ذكرت ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدته في الخطر وماده في الأجل » . فخرج أبو بكر فلقى أبا فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ، تعال أزايدك في الخطر وأمدك في الأجل ، فاجعلها مائة قلووس لمائة قلووس إلى تسع سنين . قال : قد فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون .

قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز ^(٦) ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كائى جالس على سرير كسرى . فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز ^(٧) : إذا أتاك كتابى [هذا] ^(٨) فابعث إلى برأس فرخان . فكتب إليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت فى العدو ، فلا تفعل . فكتب إليه : إن فى رجال فارس خلفاً منه ، فعجل إلى برأسه . فراجعته ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريداً إلى أهل فارس : إنى قد نزعت ^(٩) عنكم شهريراز ، واستعملت عليكم فرخان . ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال : إذا ولى فرخان الملك ، وانقاد له أخوه ، فأعطه هذه . فلما قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ، ودفع إليه الصحيفة ، قال ^(١٠) : اثنوني بشهريراز ^(١١) ، وقدمه ليضرب عنقه ، قال : لا تعجل [على] ^(١٢) حتى أكتب وصيتي ، قال : نعم . فدعا بالسفط فأعطاه

(١) فى ف : « لو أتيتها » .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/٢١) من طريق سنيد به .

(٣) فى ت : « شهريراز » ، وفى ف ، أ : « بشهريراز » .

(٤) فى ت : « شهريراز » .

(٥) فى ف : « عزلت » .

(٦) زيادة من ت .

(٧) زيادة من ت ، ف .

(٨) زيادة من ف .

(٩) فى ف : « فقال » .

(١٠) فى ت : « بشهريراز » .

(١١) فى ت : « فجاء » .

الصحائف^(١) وقال : كل هذا راجعتُ فيك كسرى ، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد . فرد الملك إلى أخيه شهريراز^(٢) ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إن لى إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصّحف ، فالقنى، ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا ، فإنى ألقاك فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقىا فى قبة ديباج ضربت لهما ، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا^(٣) ترجمانا بينهما ، فقال شهريراز^(٤) : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى . وقد خلعناه جميعا ، فنحن نفاتله معك . قال : قد أصبتما . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا . قال : أجل . فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما . [قال]^(٥) : فأهلك الله كسرى ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وفرح المسلمون معه .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة ، فقوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء^(٦) عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محارب إلى جهة الشمال ، فكان^(٧) الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية^(٨) من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها - يقال : تقيّة - واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا [كثيرا]^(٩) متشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم^(١٠) ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقة ، ووضعوا له القوانين - يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيرَوا دين المسيح ، عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق^(١١) واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس^(١٢) والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ، ثم الشماسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس

(١) فى ت ، ف ، أ : « ثلاث صحائف » . (٢) فى ت : « شهريراز » . (٣) فى ت ، ف : « فدعا » .
(٤) فى ت : « شهريراز » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى أ : « أتباع » .
(٧) فى ف : « وكان » . (٨) فى ت : « القنداقية » ، وفى ف : « الغنداقية » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « جماعته » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « وصلوا إلى الشرق » . (١٢) فى ف ، أ : « والقرايين » .

والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه (١) اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة (٢) محاريب ، وبنى أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة » (٣) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّك عليهم فى رئاسة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناوَه كسرى ملك الفرس ، ومَلَّك البلاد كالعراق وخراسان والرَّى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رئاسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لخصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من (٤) ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيده ، ورأى فى نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء . فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا (٥) ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوَعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره ، وسأل كسرى أن يُمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصلهِ ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيَّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولا فأولا ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركبه على

(١) فى أ : « زمانه » . (٢) فى ف : « بثلاث » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩٢) وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان فى الثقات وباقي رجال الإسناد ثقات » .

(٤) فى ت : « فى » . (٥) فى ت : « الأرض » .

حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد (١) فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل (٢) لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصرارى ، وبقي كسرى وجيوشه (٣) حائرين لا يدرون ماذا يصنعون . لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غلب الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع (٤) سنين من غلب الفرس للروم (٥) .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرع وبُصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله (٦) أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ، وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحى ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُناجبة (٧) : ﴿ اَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٨) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٩) .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ، ونويت .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثورى ، والسدِّى ، وغيرهم . وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبخارى ، من حديث الأعمش ، عن عطية (١٠) ، عن أبى سعيد قال : لما

(١) فى أ : « فجذ » . (٢) فى أ : « لا مسلك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وجنوده » .

(٤) فى ت : « ثلاث » . (٥) فى ت ، ف : « من غلب فارس للروم » ، وفى أ : « من غلب فارس الروم » .

(٦) فى ف : « والله » . (٧) فى ت : « مبايعته » .

(٨) سنن الترمذى برقم (٣١٩١) ، وتفسير الطبرى (١٢/٢١) .

(٩) تفسير الطبرى (١٦/٢١) .

(١٠) فى ت : « وقد روى مالك » .

كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَذِي يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ نَبَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام (٢) الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم (٣) ، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً (٤) الله عز وجل ، ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجاء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه - : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم (٥) الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم .

والأمر (٦) فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ههنا : ﴿ وَيَوْمَذِي يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ نَبَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أسيد الكلابى ، قال : سمعت (٨) العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٢) وتفسير الطبرى (١٦/٢١) .

(٢) فى ف : « يوم » . (٣) فى أ : « وغير واحد » . (٤) فى ت : « تشكراً » .

(٥) فى ت ، ف : « عام » . (٦) فى ت : « فالأمر » . (٧) زيادة من ت .

(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن » .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا (١) الذى أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن (٢) له ولا فكرة .

قال الحسن البصرى : والله لبلغ (٣) من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى .

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٠) .

يقول تعالى منها على التفكير فى مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا (٤) أنها ما خلقت سدى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة (٥) إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل (٦) الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « ليلغ » .

(٢) فى أ : « لا ذكر » .

(١) فى أ : « هو » .

(٤) جميع النسخ : « فيعلموا » وهو خطأ ، والصواب : « فيعلمون » لعدم جواز النصب فيها ؛ لأنها لم تسبق بطلب ، فتكون الفاء ناصبة .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « والدلالات » .

(٥) فى ت : « وأنها مؤجلين » .

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿١﴾ أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه (١) ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا فى الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمرؤا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّ يَرْيِدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وعلى هذا تكون (٤) السوإى منصوبة مفعولاً لأسأؤوا . وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوءَ ﴾ أى : كانت السوإى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوإى منصوبة خبر كان . هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم ، وهو الظاهر ، والله أعلم ، ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذُّ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى : كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : يبأس المجرمون .

وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى رواية : يكتب المجرمون .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

(١) فى ت : ﴿ يَبْدَأُ ﴾ . (٢) فى ت : « أمر » . (٣) فى ت ، ف : « وقال » .

(٤) فى ف : « يكون » .

(٥) تفسير الطبرى (١٨/٢١) .

(٦) فى ت : « ومنقول » .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذِّدِ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ، قال قتادة : هي - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون .

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله ، قال العجاج :

الحمد (١) لله الذى أعطى الحبرَ موالى الحق إن المولى شكر (٢)

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ، فالعشاء (٣) هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء . فسبحان خالق هذا وهذا ، فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى ، عن أبيه (٤) ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني ، عن أبيه (٦) ، عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ .

(١) فى ت : « فالحمد » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٩/٢١) ، ولسان العرب لابن منظور مادة « حبر » .

(٣) فى ت : « فالعشى » . (٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أنس الجهنى » .

(٥) المسند (٤٣٩/٣) .

(٦) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١﴾ الآية بكمالها ، أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته . إسناده جيد (١) ، ورواه أبو داود في سننه (٢) .

وقوله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، كقوله : ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج : ٥ - ٧] ، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتَ سَحَابًا نَقَّالًا سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٥٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصوّر فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيفا القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بينى المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ

(١) في أ : «إسناده ضعيف» ، وهو الصواب .

(٢) المعجم الكبير (٢٣٩/١٢) وسنن أبي داود برقم (٥٠٧٦) .

بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغندر ، قالا : حدثنا عوف ، عن قسامة بن زهير ^(١) ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك » .

ورواه أبو داود والترمذي من طرق ، عن عوف الأعرابي ، به ^(٢) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكن لكم أزواجا ، ﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يعنى بذلك : حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] ^(٣) إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل ^(٤) يمسك المرأة إما لمحبتة لها ، أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ،

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ .

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفافها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله : ﴿ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، هؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلَاهُم ، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين ،

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٢) المسند (٤٠٠ / ٤) وسنن أبي داود برقم (٣٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥) .

(٣) زيادة من ت ، ف . (٤) فى ت ، ف : « فالرجل » .

وفم وخذان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح (١) ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : يعون .

قال الطبرانى : حدثنا حجاج بن عمران السدوسى ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلَثة ، حدثنى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه (٢) ، عن زيد بن ثابت ، رضى الله عنه ، قال : أصابنى أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم ، [أتم عيني و] (٣) أهدئ ليلي » فقلتها ، فذهب عني (٤) .

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ [خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : [(٥) تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج ﴾ [الحج : ٥] . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، إذا اجتهد فى اليمين يقول : لا ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض

(١) فى أ : « قبيح » . (٢) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٣) زيادة من ت ، ف ، ومعجم الطبرانى .

(٤) المعجم الكبير (١٢٤/٥) ، ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٤٥) وابن عدى فى الكامل (١٥٠/٥) من طريق عمرو بن الحصين به ، وقال ابن عدى : « تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظم الحديث ، ويروى عن قوم معروفين » . وله شاهد من حديث أنس ، حسنه الحافظ ابن حجر كما فى الفتوحات الربانية لابن علان (١٧٧/٣) .

(٥) زيادة من ت .

غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (٢٦) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧) .
يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : ملكه وعبيده ، ﴿ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً .

وفى حديث درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، مرفوعاً : « كل حرف فى (١) القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة » (٢) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال [على] (٣) بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعنى : أيسر عليه .

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البدأة ، والبدأة عليه هينٌ . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزناد ، عن الأعرج (٤) ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله : كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ . وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٥) .

انفرد بإخراجه البخارى كما انفرد بروايته - أيضاً - من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة ، به (٦) . وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، أو مثله (٧) .
وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء .

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٧٥/٣) ، وتقدم الحديث عند تفسير الآية : ١١٦ من سورة البقرة . قال الحافظ ابن كثير : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى ، أو من دونه ، والله أعلم » .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى ت : « وقال البخارى بإسناده » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٥) .

(٧) المسند (٣٥٠/٢) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خثيم . ومال إليه ابن جرير ، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس كقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير .

وقد أُنشد بعض المُفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنِبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بَلَا امْتِرَاءٍ كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنَّجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلَّى يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ : الذى (١) لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شرعاً وقدرًا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨) بل اتَّبِع الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٩) .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا فى تلييتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ، ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى : لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك (٢) ، كذلك الله لا شريك له .

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بُشِّرَ بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات . وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عباده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله ، يساويه فيه . ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرّج الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدثنا حماد بن شعيب ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبیر (١) ، عن ابن عباس قال : كان يلى أهل الشرك : لبيك اللهم [لبيك] (٢) ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٣) .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سقها من أنفسهم وجهلا : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [أى : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم] (٤) ، ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢) .

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وفى الحديث : « إني خلقت

(١) فى ت : « روى الطبرانى بإسناده » . (٢) زيادة من ت .

(٣) المعجم الكبير (٢٠ / ١٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٣ / ٣) : « وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .

(٤) زيادة من ت ، أ .

عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر فى الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على [(١) الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية (٢)] .

وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلبة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جببر ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد (٣) فى قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى : لدين الله .

وقال البخارى : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ، خَلَقَ الأولين : [دين الأولين] (٤) ، والدين والفطرة : الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن (٥) : أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلي ، عن الزهرى ، به (٦) . وأخرجاه - أيضا - من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ (٧) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فمنهم الأسود بن سريع التميمي . قال (٨) الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن (٩) ، عن الأسود بن سريع [التميمي] (١٠) قال : أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه ، فأصبت ظهرا (١١) ، فقتل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » . فقال رجل : يا رسول الله ، أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « ألا إنما خياركم أبناء المشركين » . ثم قال : « لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية » . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » .

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف : « والنصرانية والمجوسية » . (٣) فى ت : « وسعيد بن جببر وغيرهم » .

(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) فى ت : « ثم روى بسنده » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٨) فى ت : « فروى » . (٩) فى ت : « بإسناده » . (١٠) زيادة من ف .

(١١) فى ت ، ف : « ظفرا » .

ورواه النسائي في كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هُشَيْم ، عن يونس - وهو ابن عبيد - عن الحسن البصري ، به (١) (٢) .

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٣) عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (٤) .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَّانَةَ ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (٥) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجه في الصحيحين ، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك (٦) .

وقد قال (٧) أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أنبأنا عمار بن أبي عمار ، عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين . حتى حدثني فلان عن (٨) فلان : أن رسول الله ﷺ سئل (٩) عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرني . فأمسكت عن قولي (١٠) .

ومنهم عياض بن حمار المجاشعي ، قال (١١) الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مطرف ، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إن ربي ، عز وجل ، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا ، كل مال نحلته عبادي حلال ، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فآفصلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله ، عز وجل ، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان .

(١) في ت : « وروى أيضاً بإسناده » .

(٢) المسند (٤٣٥/٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦١٦) .

(٣) في ف : « عرب » .

(٤) المسند (٣٥٣/٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٨/٧) : « وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٥) في ت : « وروى أيضاً بإسناده » .

(٦) المسند (٣٢٨/١) وصحيح البخاري برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠) .

(٧) في ت : « وروى » .

(٨) في ت ، ف : « ابن » . (٩) في أ : « عن رسول الله ﷺ أنه سئل » .

(١٠) المسند (٧٣/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٨/٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

(١١) في ت : « وقال » .

ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذا يُلْغُوا رأسي فيدعوه خبزاً . قال (١) : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْرَكَ ، وأنفق عليهم فسنفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، الذين هم فيكم تبعاً ، لا يبتغون أهلاً ولا مالا . والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن (٢) أهلك ومالك » . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش (٣) .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى : التمسك بالشرعية (٥) والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِنْ طَعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ طِغْيَاكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] .

وقوله : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ ﴾ : قال ابن زيد ، وابن جريج : أى راجعين إليه ، ﴿ وَأَتَقُوهُ ﴾ أى : خافوه وراقبوه ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير : [حدثنا ابن حميد (٦) ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن يزيد (٧) بن أبى مريم قال : مر عمر ، رضى الله عنه ، بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة (٨) ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن [من] (٩) المنجيات : الإخلاص ، وهى الفطرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر : صدقت .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة : أن عمر ، رضى الله عنه ، قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه (١٠) .

وقوله : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبد الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ،

(١) فى ت ، ف : « فقال » .

(٢) فى ت : « على » .

(٣) فى ت ، ف : « الفاحش » .

(٤) المسند (١٦٢/٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٥) فى ت : « التمسك بالشرعة » .

(٦) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٧) فى أ : « زيد » .

(٨) فى ت : « الآية » .

(٩) زيادة من ت .

(١٠) تفسير الطبرى (٢٦/٢١) .

وهذه الأمة^(١) أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة^(٢) إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ^(٣) ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ، عليه السلام^(٤) ، عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « ما أنا عليه [اليوم] ^(٥) وأصحابى »^(٦) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم ، إذا فريق منهم ، [أى]^(٧) فى حالة الاختبار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره . وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ، هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك .

ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٨) ، قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ههنا [هو]^(٩) الذى يقول للشئ : كن ، فيكون .

ثم قال منكرأ على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة ، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أى : ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن [لهم]^(١٠) شئ من ذلك .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله ووفقه ؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود : ١١] ، أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان

(١) فى ت : « الآية » . (٢) فى أ : « ضالة » . (٣) فى ف : « رسوله » .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٥) زيادة من أ ، والمستدرک .

(٦) المستدرک (١٢٨ / ١ ، ١٢٩) ، وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف ص (٦٣) : « إسناده حسن » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت : « يعلمون » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) زيادة من أ .

خيراً له ، وإن أصابته ضرأء (١) صبر فكان خيراً له (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠) .

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ أى : من البر والصلة ، ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة (٣) .

ثم قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسر ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبي - وهذا الصنيع مباح (٤) ، وإن كان لا ثواب فيه (٥) ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] أى : لا تعطى العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح (٦) ، يعنى : ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها (٧) وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما [جاء] (٨) فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فِيرِيَّهَا لصاحبها كما يُرِيَّي أَحَدَكُمْ قَلْوَةً أَوْ فَصِيلَةً ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد » (٩) .

(١) فى ت : « الضراء » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

(٣) فى ت ، ف : « الأخرى » .

(٤) فى ت : « فسر ابن عباس وغيره » .

(٥) فى ت : « به » .

(٦) فى أ : « لا يصلح » .

(٧) فى أ : « أفضلها » .

(٨) زيادة من أ .

(٩) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) .

وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أى : هو الخالق الرازق ^(١) ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأُملاك والمكاسب ، كما قال ^(٢) الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبي شرحبيل ، عن حبة وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئا فأعنَّاه ، فقال : « لا تياسا من الرزق ما تهزَّرت رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » ^(٣) .

وقوله : ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعزٌّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) .

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي ، وغيرهم : المراد بالبر ههنا : الفياقى ، وبالبحر : الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف .

وقال زيد ^(٤) بن رفيع : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ ، يعنى : انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى ^(٥) دوابه . رواه ابن أبى حاتم .

وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، عن سفيان ، عن حميد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد ^(٦) البحر : أخذ السفينة غصباً .

وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر : ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر : جزائره .

(١) فى ١ : « الرزاق » . (٢) فى ت : « كما روى » .

(٣) المسند (٤٦٩/٣) .

(٤) فى ١ : « يزيد » . (٥) فى ت ، ف : « يعنى » . (٦) فى ت ، ف : « وفى » .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَحَ ملك أيلة ، وكتب له ببحره ، يعنى : ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى (١) الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لَحَدُّ يُقَامُ فى الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يطرؤا أربعين صباحا » (٢) . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس - أو أكثرهم ، أو كثير منهم - عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق (٣) البركات من السماء والأرض ؛ ولهذا إذا نزل عيسى [ابن مريم] (٤) ، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فياكل من الرمانة الفئام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ؛ [ولهذا] (٥) ثبت فى الصحيح (٦) : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (٧) .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عوف ، عن أبى قحذم قال (٨) : وجد رجل فى زمان زياد - أو : ابن زياد - صرة فيها حبّ ، يعنى من بر أمثال النوى ، عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل (٩) .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فى الأرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٣٦٢/٢) ، والنسائى فى السنن (٧٥/٨) من حديث أبى هريرة ، ولم يقع لى فى سنن أبى داود .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « حصول » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ت ، أ : « الصحيحين » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥١٢) .

(٨) فى ت : « وروى أنه » .

(٩) المسند (٢٩٦/٢) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴾ أى : يتفرقون ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، بمجئ الغيث (١) عقيها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعاش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ﴾ هذه تسليية من الله لعبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٢) ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذِّبَ الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب (٤) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما

(٢) فى ت : « ﷺ » .

(٤) فى ت : « بإسناده » .

(١) فى ت ، ف : « بمجئ المطر والغيث » .

(٣) فى ت : « وروى » .

من امرئ مسلم يردُّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٥١) .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي (٢) ينزل منها الماء (٣) فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يمدّه فيكثره ويُنمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا ، ينشئ سحابة فتري فى رأى العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تملأ أرجاء الأفق . وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقلا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، وكذلك قال ههنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴾ .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الوراق ، وقتادة : يعنى قطعا .

وقال غيره : متراكما ، قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلًا قريبا من الأرض .

وقوله : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فتري المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، فقال ابن جرير : هو

(١) ورواه أحمد فى المسند (٤٤٨/٦) من طريق إسماعيل ، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم (١٠٢) من طريق جرير كلاهما عن ليث - وهو ابن أبى سليم - به ولم يذكر الآية .

(٢) فى أ : « الذى » . (٣) فى ت : « المطر » .

تأكيد . وحكاه عن بعض أهل العربية .

وقال آخرون : [وإن كانوا] ^(١) من قبل أن ينزل عليهم المطر ، ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أى : الإنزال ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله - أيضا - قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانة فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبئت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المطر ، ﴿ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ ، يابسة على الزرع الذى زرعه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم [إليهم] ^(٢) من النعم ، كما قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمَغْرُمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هشيم ^(٣) ، عن يعلى ابن عطاء ، عن أبيه ^(٤) ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر [فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ، وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة فى مهاها : صبا ودبور ، وجنوب ، وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه] ^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو ^(٦) عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد الله ابن عيَّاش ^(٧) ، حدثنى عبد الله بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الريح مسخرة من الثانية - يعنى الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور . قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذا تكفأ الأرض وما عليها ،

(١) زيادة من أ . (٣) فى أ : « هاشم » .

(٢) زيادة من أ .

(٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى أ : « ابن » .

(٧) فى أ : « عباس » .

ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم » ، فهي التي قال الله في كتابه : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) [الذاريات : ٤٢] . هذا حديث غريب ، ورفع منكر . والأظهر أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، رضى الله عنه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ .

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ (٢) كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهذى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون (٣) الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ ، على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر (٤) ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جفوا؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » (٥) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرحاً وتوبخاً ونقمة .

(١) سيأتى تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٤٢ من سورة الذاريات .

(٢) فى ت : « ولا يبلغ » . (٣) فى ت : « يسمعون » .

(٤) فى ت ، ١ : « فى روايته أن النبى ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا فى القليب ، قليب بدر » .

(٥) قال الإمام الزركشى رحمه الله فى كتابه « الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة » ص (١٢١) : « أخرج البخارى عن ابن عمر قال : وقف النبى ﷺ على قليب بدر فقال : « هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » ، ثم قال : « إنهم الآن يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قال النبى ﷺ : « إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق » . قال السهلى فى الروض : « وعائشة لم تحضر ، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ ، وقد قالوا له : يا رسول الله ، أتخاطب قوماً قد جفوا أو أجفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحال عالين ، جاز أن يكونوا سامعين ، إما بأذان رؤوسهم ، إذا قلنا : إن الروح تعاد إلى الجسد أو إلى بعضه عند المسألة . وهو قول جمهور أهل السنة ، وإما بأذن القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه . قال : وقد روى أن عائشة احتجت بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنَ الْقُبُورِ ﴾ وهذه الآية كقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى ﴾ أى : إن الله هو الذى يهذى ويوقف ويدخل الموعدة إلى أذان القلوب لا أنت ، وجعل الكفار أمواتاً وصماً على جهة التشبيه بالأموات وبالصم ، فالله هو الذى يسمعهم على الحقيقة إذا شاء ، فلا تعلق لها فى الآية لوجهين : أحدهما : أنها إنما نزلت فى دعاء الكفار إلى الإيمان ، الثانى : أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم ، وصدق الله ، فإنه لا يسمعهم إذا شاء إلا هو » .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً [له] (١) ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » (٢).

[وثبت عنه عليه السلام أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدم والجماذ ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

وروى عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام .

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامى بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فتتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، ثنا بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم ، وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : ثنا محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثوري قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقليل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خدّاش ، ثنا جعفر بن سليمان ، عن أبي التّياح يقول : كان مُطَرَّفٌ يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التّياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم ؛ حدثني محمد بن الحسن ، ثنا يحيى بن أبى بكر ،

(١) زيادة من أ .

(٢) الاستذكار لابن عبد البر من طريق بشر بن بكير ، عن الأوزاعي ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس ، مرفوعاً . ولفظه : « ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزءاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيت يوماً ، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناي فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج ، وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه ، عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته . قال : يا بنى ، ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك ، قال : فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام ، ثنا عثمان بن سويد الطقأوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت . فكنت آتيتها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى ، فقلت لها : يا أمى ، كيف أنت ؟ قالت : أى بنى ، إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الرياح ، وتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة ، هذا ابنك ، قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات .

حدثنى محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال : أنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاؤونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : ثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظمى ، قال : بم أعظك ، أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو الأموى ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة سمجة ، فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أى بنى ، ما كان أشد فرحى بك

وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحيت لذلك حياءً شديداً ، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات ، قال : فكنت أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر ، وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إياها لا رجعة فيها ولا حور ، يا مصلح الصالحين ، ويا هادي المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم^(١) .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) .

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يكسى لحما ، ويُفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى . ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل^(٢) ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ؛ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن فضيل ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق^(٣) ، عن عطية العوفي ، قال : قرأت على ابن عمر : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾^(٤) ، فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ ، ثم قال : قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت على ، فأخذ على كما أخذت عليك .

ورواه أبو داود والترمذي - وحسنه - من حديث فضيل ، به^(٥) . ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، بنحوه^(٦) .

(٢) في ت ، ف ، أ : « فيكهل » .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٤) في أ : « ضعفا وشيبة » .

(٣) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٥) المسند (٥٨/٢) ، وسنن أبي داود برقم (٣٩٧٨) ، وسنن الترمذي برقم (٢٩٣٦) .

(٦) سنن أبي داود برقم (٣٩٧٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (٥٥)
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
وَلَكِنِّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ .

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ،
وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة
واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يُعَذَّرَ إليهم . قال الله
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى :
فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لهم حين
يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ، ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾
أى : من يوم خلقتكم إلى أن بعثتم ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ ﴾ أى : [لا ينفعهم] (١)
اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : ولاهم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ
يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحنا
لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
مُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون
أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال [الله] (٢) تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ
عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛
ولهذا قال ههنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : اصبر
على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك
فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق
الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا ، رضى الله عنه ، وهو فى الصلاة - صلاة

الغداة - فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شريك ، عن عثمان بن أبى زُرعة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجعد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظبيان ، عن أبى تيماء قال : صلى على (٢) رضى الله عنه ، صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على (٣) ، وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر] (٤) :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، سمعت شبيب - أبا روح - يحدث عن رجل (٥) من أصحاب النبى ﷺ ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها الروم فأوهم ، فقال : «إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» (٦) .

وهذا إسناد حسن ومتن حسن (٧) ، وفيه سر عجيب ، ونبا غريب ، وهو أنه ، عليه السلام (٨) ، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة (٩) بصلاة الإمام .

[آخر تفسير سورة « الروم »] (١٠)

(١) تفسير الطبرى (٣٨/٢١) .

(٢) ، ٣ ، فى ف ، أ : « على بن أبى طالب » .

(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن رجل » .

(٦) المسند (٤٧١/٣) .

(٧) فى ت : « إسناده حسن ومتنه حسن » .

(٨) فى أ : « ﷺ » .

(٩) زيادة من ت .

(٩) فى هـ : « معدوقة » .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ (١) تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ .

تقدم في أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ (٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفعلون بسماعه ، كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال : هو - والله - الغناء .

قال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يزيد بن يونس ، عن أبي صخر ، عن أبي معاوية البجلي ، عن سعيد بن جبيرة ، عن أبي الصهباء البكري ، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ - فقال عبد الله : الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها (٢) ثلاث مرات (٣) .

(١) زيادة من أ .

(٢) في ت : « فرددها » .

(٣) تفسير الطبري (٣٩/٢١) .

حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد ابن جبير ، عن أبي الصهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء (١) .

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلي بن بديمة .

وقال الحسن البصري : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي : حدثنا وكيع ، عن خلاد الصفار ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن (٢) ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله عز وجل على : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير ، من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه (٣) ، ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب . وضعف (٤) على بن يزيد المذكور .

قلت : علي ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء . والله أعلم .

وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : فيضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

(١) تفسير الطبرى (٣٩/٢١) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٩٥) ، وتفسير الطبرى (٤٠/٢١) .

(٤) فى ت : « وفى إسناده » .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أى : هذا المقل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) 》 .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة (١) لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار ، من المآكل والمشرب ، والملابس المساكن ، والمراكب والنساء ، والنصرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا ييغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ، الذى قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) 》 .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ ، قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها . وقد تقدم تقرير هذه المسألة فى أول سورة « الرعد » بما أغنى (٢) عن إعادته .

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ يعنى : الجبال أُرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى : لئلا تميد بكم .

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها

(١) فى ف : « التابعة » ، وفى أ : « المتابعة » .

(٢) فى ت : « بما يغنى » .

وألوانها إلا الذى خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر .

وقال الشعبى : والناس - أيضاً - من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى : المشركين بالله العابدين معه غيره ، ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ، ﴿ مُبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١٢) .

اختلف السلف فى لقمان ، عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال سفيان الثورى ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفتس من النبوة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعى ، رحمه الله : حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أبى الأشهب (٢) ، عن خالد الربيعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أطيّب مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيّب

(١) تفسير الطبرى (٤٣/٢١) .

(٢) فى ١ : « الأشعث » .

مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرت أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا (١) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبياً .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حكّام بن سلم ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، قاضياً على بني إسرائيل .

وذكر غيره : أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن (٢) داود ، عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان لقمان ، عليه السلام ، عبداً أسود غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : أأنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعني (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٤) عبد الرحمن ابن يزيد (٥) عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : أأنت عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَّرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعني .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفى كونه نبياً ، ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّ الرق ينافي كونه نبياً ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وكيع (٦) ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله (٧) أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش القتباني ، عن عمر مولى غفرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بني الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم . قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال : وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي (٨) ، إن صَغَيْتَ (٩) إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى ، وحفظى فرجى ، وقولى بصدق ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعني ، فذاك الذى صيرنى إلى ما (١٠) ترى .

(١) تفسير الطبرى (٤٣/٢١) .

(٢) فى أ : « زمان » .

(٣) تفسير الطبرى (٤٤/٢١) .

(٤) فى أ : « بن » .

(٥) فى ت : « عن وكيع » .

(٦) فى ف ، أ : « أبى » .

(٧) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده » .

(٨) فى ت : « فإله » .

(٩) فى ف ، أ : « إن صنعت » .

(١٠) فى ت ، ف ، أ : « كما » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نُفَيْل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عَبْدِ بن رَبَّاح ، عن ربيعة ، عن (١) أبي الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه قال يوماً - وذكرَ لقمان الحكيم - فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صَمَصَامَةً سَكِيْتًا ، طويل التفكير ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط ييزق ولا يتنخَّع ، ولا يبول ولا يتغوط ، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتى الحكام ، لينظر ويتفكر ويعتبر (٢) ، فبذلك أوتى ما أوتى .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبي حاتم ، فقال :

حدثنا أبي ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خيَّرَ الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذَرَّ عليه الحكمة - أو : رش عليه الحكمة - قال : فأصبح ينطق بها . قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرَ ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عَزَمَةً لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنك أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إليَّ .

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فالله أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ، ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه (٣) به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين (٤) لقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا ﴾

(٣) فى أ : « خصه »

(٢) فى ت : « ويعتب » .

(١) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى » .

(٥) فى ف : « كقوله » .

(٤) فى ت ، ف : « الشاكر » .

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران في قول حكاه السهيلي . وقد ذكره [الله] ^(١) تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : هو أعظم الظلم .

قال البخارى حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ^(٢) ، عن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألا ^(٣) تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به ^(٤) .

ثم قرآن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين . كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ . قال مجاهد : مشقة وهن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراساني : ضعفاً على ضعف .
وقوله : ﴿ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يَرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .
ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى : فإنى سأجزيك ^(٥) على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ، ومحمود بن غيلان قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ^(٦) ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ ابن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني [رسول] ^(٧) رسول الله ﷺ إليكم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً ، وأن المصير إلى

(٣) فى أ : « ألم » .

(٢) فى ت : « روى البخارى بسنده » .

(١) زيادة من ت .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٤) .

(٥) فى أ : « سأجزيك » .

(٧) زيادة من ت ، أ .

(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بسنده » .

الله ، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .
وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما (١) على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعنك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، أى : محسناً إليهما ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعنى : المؤمنين ، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند [عن أبى عثمان النهدي] (٢) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فى هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلاً براً بأبى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بى ، فيقال : «ياقاتل أمه» . فقلت : لا تفعلنى يا أمه ، فإننى لا أدع دينى هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً [آخر] (٣) وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى هذا لشيء ، فإن شئت فكلنى ، وإن شئت لا تأكلنى . فأكلت (٤) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] (٥) خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير الشأن والقصة . وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالٍ ﴾ والأول أولى .

وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى :

(١) فى أ : « تتابعهما » . (٢) زيادة من أسد الغابة ، والدر المنثور . (٣) زيادة من ت ، ف .

(٤) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/٢١٦) عن داود بن أبى هند .

(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض (١) ، فإن الله يأتي بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ : أنها صخرة تحت الأرضين (٢) السبع ، ذكره السدّي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى ، وأبى مالك ، والثورى ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا والله أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد : أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال (٣) الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

ثم قال : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ، علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث : « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من الخيلة ، والخيلة لا يحبها الله » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقر (٥) عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلم وأنت معرض . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جبّير ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم .

وقال إبراهيم النخعى : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام .

(١) فى ف : « والأرض » . (٢) فى ف ، أ : « الأرض » . (٣) فى ت : « كما روى » .

(٤) المسند (٢٨/٣) ، وحسنه الهيثمى فى المجمع (٢٢٥/١٠) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .

(٥) فى ت ، أ : « فتحقر » .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعْر : داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلَفَّتَ (١) أعناقها عن رؤوسها ، فشبّه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُنِيّ التَّغْلَبِيّ :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا (٢)

وقال أبو طالب في شعره :

وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نَقْرُ ظِلَامَةً إِذَا مَا ثَنَوْا صَعْرَ الرُّؤُوسِ نُقِيمَهَا (٣)

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : جذلا متكبرا جبارا عنيدا ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ، فخور : أي على غيره ، وقال تعالى (٤) : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا محمد بن عمران ابن أبي ليلى ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى (٥) ، عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه ، فقال : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلني ، وعلاقة سوطي ، فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغتمط (٦) الناس » (٧) .

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته (٨) .

وقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مشيا مقتصدا ليس بالبطيء المتشط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين .

وقوله : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبألغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي : غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقىء ثم يعود في قيئه » .

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الأعرج (٩) ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ [أنه] (١٠) قال : « إذا سمعتم صياح الديكة

(١) في ت : « تلتفت » ، وفي أ : « بلغت » .

(٢) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٢٧/٢) .

(٣) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٩/١) .

(٤) في أ : « وقد قال الله تعالى » . (٥) في ت : « وروى الطبراني بإسناده » . (٦) في ت ، ف : « تغمص » .

(٧) المعجم الكبير (٦٩/٢) وفيه انقطاع بين ابن أبي ليلى وثابت .

(٨) المعجم الكبير (٧٠/٢) من طريق عبد الرحمن بن يزيد ، عن عطاء ، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٢/٩) :

« وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

(٩) في ت : « وروى النسائي عند تفسير هذه الآية بإسناده » .

(١٠) زيادة من أ .

فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير ^(١) فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » .
وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به ^(٢) ، وفي بعض
الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من
الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أتمودجاً ودستوراً إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرنى نَهْشَل بن
مُجَمَّع الضبى عن قزعة ، عن ابن عمر ^(٣) ، رضى الله عنه ^(٤) ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال :
« إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » ^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعى ، عن
موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيَّمَة يحدث عن أبى موسى الأشعرى] ^(٦) أن رسول الله ﷺ
قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » ^(٧) .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَة ، حدثنا السرى بن يحيى ^(٨) قال : قال
لقمان لابنه : يا بنى ، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن
المسعودى ^(٩) ، عن عَوْن بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم
بسهم الإسلام - يعنى السلام - ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا
فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ^(١٠) ، عن
حفص ابن عمر ، رضى الله عنه ، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه
وعظة ويخرج خردلة ، حتى نقذ الخردل ، فقال : يا بنى ، لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل
لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن
الحرانى ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى ، حدثنا أبيّن ^(١١) بن سفيان المقدسى ، عن خليفة
ابن سلام ، عن عطاء بن أبى رباح ^(١٢) ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا

(١) فى ت : « الحمار » .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى (١١٣٩١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٠١) ، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٩) وسنن أبى داود برقم (٥١٠٢)
وسنن الترمذى برقم (٣٤٥٩) .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف : « عنهما » .

(٥) المسند (٨٧/٢) .

(٦) زيادة من أ ، والمستدرک .

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤١١/٢) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » وأقره الذهبى .

(٨) فى ت : « وروى أيضاً بإسناده عن السرى بن يحيى » . (٩) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن القاسم بن مخيمرة » .

(١٠) فى ت : « وروى أيضاً » . (١١) فى ت ، أ ، ف ، هـ : « أنس » ، والتصويب من المعجم الكبير وكتب الرجال .

(١٢) فى ت : « وروى الطبرانى بسنده » .

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن » (١) .
قال أبو القاسم الطبراني : أراد الحبش .

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً [و] (٢) نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله ابن موسى المدني ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رَبِّ أَشْعَثَ ذِي طَمْرَيْنٍ يُصَفِّحَ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ ، إِذَا (٣) أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » (٤) .
ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ، فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (٥) .

[وروى أيضاً عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة »] (٦) .

وقال أبو بكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يكيى عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يكييك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » (٧) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عثام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « رَبِّ ذِي طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ ، لَوْ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ ، وَلَمْ يَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً » (٨) .

وقال أيضاً : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى بَابَ أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً أَوْ دَرَاهِمًا أَوْ

(١) المعجم الكبير (١١/١٩٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤/٢٣٥) : « فيه أبي بن سفيان وهو ضعيف »

(٢) زيادة من ت ، ف . (٣) في ت ، ف : « لو » .

(٤) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٠٥٤) « مجمع البحرين » قال : « حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، فذكر مثله - ثم قال - : لم يروه عن حفص إلا أسامة » ، وله شاهد في صحيح مسلم برقم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

تنبيه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(٥) ورواه الترمذى في السنن برقم (٣٨٥٤) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه » (٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (٨) .

(٨) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس برقم (٣٢٤٦) من طريق ابن أبي الدنيا .

فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سألَه (١) الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .
وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ملوك الجنة كل (٣) أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلبلج في صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » (٤) .

قال : وأنشدني عمر بن شبة ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :
ألا ربّ ذى طمرين في منزل غداً زرابيه مبثوثة ونمارقه
قد اطردت أنهاره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقه (٥)

وروى - أيضا - من حديث عبيد الله بن زحر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : « قال الله : من أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضا في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك » . قال : ثم نقد رسول الله بيده وقال : « عجّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه » (٦) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله (٧) إلى الله الغرباء . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم (٨) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى (٩) يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترّك ؟ ألم . . . ؟ ألم . . . ؟ ألم أحمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله . وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (١٠) :

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد ابن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرئ من

(١) فى ت : « ولو سأل الله » .

(٢) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (١) ، وهو مرسل .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « من هو » .

(٤) ورواه ابن أبى الدنيا فى الأولياء برقم (٩) عن الحسن مرسلأ بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .

(٥) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (٥) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٣) وقد قال ابن حبان : « إذا روى عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم » .

(٧) فى أ : « أحب العباد » .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٦) .

(١٠) أى ابن أبى الدنيا .

(٩) فى ت ، أ : « عز وجل » .

الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبي فديك ، عن محمد بن عبد الواحد الأحنسي ، عن عبد الواحد بن أبي كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً ، مثله (٢) .

وروى عن الحسن مرسلاً نحوه (٣) ، فقليل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق (٤) .

وعن علي ، رضي الله عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سمك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف ؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا علي بن الجعد ، أخبرنا شعبة ، عن عوف ، عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عترة (٥) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يغمه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقليل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص ، واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي ﷺ ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يُشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التي يُشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

(١) التواضع والخمول برقم (٣٠) وفيه سنن بن سعد ضعيف .

(٢) التواضع والخمول برقم (٣١) وقال العراقي : « ليس معروفاً من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبي هريرة » .

(٣) التواضع والخمول برقم (٣٢) .

(٤) التواضع والخمول برقم (٣٣) .

(٥) في أ : « هارون بن أبي عسيرة » .

وحدثنا خالد بن خدّاش : حدثنا حماد ، عن أبي حنيفة - صاحب الزيادة - قال : كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .
وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم ، والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه ^(١) ، مالههم تفاقدوا .
وفى بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبنى إسرائيل : ما لكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألبنوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس ، رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ^(٢) .
وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا » ^(٣) .
وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد » ^(٤) . وعن سنّان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » ^(٥) ، وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » ^(٦) .
وقال ابن أبي الدنيا : حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أخبرنى أبى وعمى ، عن جدى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الأجوفان : الفم والفرج » ^(٧) .

وقال أسامة بن شريك : كنت عند رسول الله ﷺ ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » ^(٨) .
وقال يعلى بن مملك ^(٩) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء - يبلغ به - قال : « ما [من] ^(١٠) شئ أثقل فى الميزان من حسن الخلق » ^(١١) ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به ^(١٢) .
وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » ^(١٣) .
حدثنا عبد الله بن أبى بدر ، حدثنا محمد بن عبيد ^(١٤) ، عن محمد بن أبى سارة ، عن الحسن

(١) فى ت ، أ : « المطرق بمطرفه » .

(٢) التواضع والخمول برقم (١٦٣) .

(٣) التواضع والخمول برقم (١٦٤) .

(٤) التواضع والخمول برقم (١٦٨) .

(٥) التواضع والخمول برقم (١٦٩) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٦٦) .

(٧) التواضع والخمول برقم (١٧٠) .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٧١) .

(٩) فى ت ، أ ، ف ، هـ : « سماك » والصواب ما أثبتناه من كتب الرجال .

(١١) التواضع والخمول برقم (١٧٢) .

(١٢) التواضع والخمول برقم (١٧٣) .

(١٣) التواضع والخمول برقم (١٧٤) .

(١٤) فى ت ، ف : « عنين » ، وفى أ : « عيسى » والصواب ما أثبتناه من التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكتب الرجال .

(١٠) زيادة من أ .

ابن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح » (١) .
وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً ، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

وعن أبي أويس ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعاً : « ألا أخبركم بأكملكم إيماناً ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .
وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله ﷺ : « ما حسن الله خلق رجلٍ وخلقه فتطعمه النار » (٤) .

وعن عبد الله بن غالب الحداني ، عن أبي سعيد مرفوعاً : « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » (٥) ، وقال ميمون بن مهران ، عن رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر » (٦) .

حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » (٧) .

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٨) .
وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود - رفعه - : « لا يدخل الجنة من في قلبه (٩) مثقال حبة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة (١٠) من إيمان » (١١) .
وقال إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه الله على وجهه في النار » (١٢) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعاً : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (١٣) .
وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما (١٤) السلام ، ذات يوم البساط في مائتي

(١) التواضع والخمول برقم (١٧٦) .

(٢) التواضع والخمول برقم (١٧٧) .

(٣) التواضع والخمول برقم (١٧٨) .

(٤) التواضع والخمول برقم (١٨٠) .

(٥) التواضع والخمول برقم (١٨٢) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٨٣) .

(٧) التواضع والخمول برقم (١٨٤) .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٩٠) .

(٩) في ت ، ف ، أ : « ذرة » .

(١٠) في ت ، ف ، أ : « ذرة » .

(١١) التواضع والخمول برقم (١٩٢) .

(١٢) التواضع والخمول برقم (١٩٦) .

(١٣) التواضع والخمول برقم (١٩٨) .

(١٤) في ت : « عليه » .

(١٠) في ف ، أ : « ذرة » .

ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن ، فَرُفِعَ حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان ، حتى إن أحدنا ليقدر نفسه ، يقول : خرج من معجى البول مرتين (١) .

وقال الشعبي : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَتُرِيدُ أَنْ نَبْنِيَهُمْ أَكْوَافًا ﴾ [القصص: ١٩] وقال الحسن : عجا لآبن آدم ، يغسل الخرق بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات ، قال : حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا حماد بن زيد ، عن علي بن الحسن ، عن الضحاك بن سفيان ، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم (٢) . وقال الحسن ، عن يحيى ، عن أبي قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَرَحَهُ وَمَلَّحَهُ . وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - : ما دخل قلب رجل شيء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق . ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن (٣) من في بطنه خرق ؟ . فقال له كالمعتز إليه : يا عم ، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا (٤) هذه المشية .

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعاً : « مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (٥) . ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعاً مثله (٦) . وحدثنا محمد بن بكّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره » (٧) . و « بينما رجل يتبختر في برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٨) . وروى الزهري عن سالم ، عن أبيه : « بينما رجل . . . » إلى آخره (٩) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

(١) التواضع والخمول برقم (٢٠٠) .

(٢) التواضع والخمول برقم (٢١٠) .

(٣) في ف ، أ : « مشى » .

(٥) التواضع والخمول برقم (٢٣٨) .

(٦) التواضع والخمول برقم (٢٣٩) .

(٧) التواضع والخمول برقم (٢٣٢) .

(٨) التواضع والخمول برقم (٢٣٣) .

(٩) التواضع والخمول برقم (٢٣٤) .

(٤) في ف ، أ : « يتعلمون » .

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته فى ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ، ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَن يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنَنْبِئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أسلم وجهه لله ، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أى : فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہُ ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزئهم عليه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فطبع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم] (١) ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ومدّه سبعة أبحر [(٢) معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدداً .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] (٣) ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فليس المراد بقوله : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاماً ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا تكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت . كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثني ابن أبي محمد ، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرايت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ [الإسراء : ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلا » . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » . وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يسار . وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، والله (١) أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .

وقوله : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ أى : ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] (٢) نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده (٣) . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ بمعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطول ذلك ويقصر هذا ،

(١) فى ت ، ف : « فالله » . (٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وتوكيده » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفى هـ : « الآية » .

وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر ، رضى الله عنه ، الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت » (١) .

وقال ابن أبى الحاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبى رباح (٢) ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلکها ، فإذا غربت جرت بالليل فى فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر . إسناده صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ (٣) وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما (٤) فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى : العلى : الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شيء ، فكل (٥) شيء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « السموات » وهو خطأ .

(٤) فى ت : « من » .

(٥) فى ت ، ف : « وكل » .

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّرَ البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَازِلٌ ﴾ أى : كالجبال والغمام ، ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغدَّار . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن (١) زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والختر : أتم الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب :

وَأَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ
مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدَرٍ وَخَتَرٍ (٢)

وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وأمراً لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه .

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] (٣) ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُّه ويمنيه ، وليس من ذلك شىء بل كما قال تعالى :

(١) فى ١ : « و » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، ا .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٥٤/٢١) .

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠] .

قال وهب بن منبه : قال عزيز ، عليه السلام : لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي ، وأرق نومي ، فضرعت ^(١) إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له : أخبرني هل تشفع أرواح المصدقين ^(٢) للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها ^(٣) فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره ^(٤) ولا يحزن لحزنه ، ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهتم همه ويكي عوله ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبي حاتم .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه [الله] ^(٥) تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدتها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة ، سمعت أبي - بريدة - ^(٦) يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» ^(٧) .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجه .

حديث ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ^(٨) قال : قال رسول الله ﷺ : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

(١) في ف : « وتضرعت » (٢) في ت ، ف : « الصديقين » (٣) في ت ، ف ، أ : « إن يوم القيامة فيه » .

(٤) في ت « ولا يهتم بهم أحد » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن بريدة » .

(٧) المسند (٣٥٣/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٩٠/٧) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٨) في ت : « وروى البخاري عن عبد الله بن عمر » . (٩) في ت : « النبي » .

أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى « كتاب الاستسقاء » من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان بن سعيد الثورى ، به (١) . ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر : أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، انفرد به أيضا (٢) .

ورواه الإمام أحمد عن غُندَر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد ؛ أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٣) .

[حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله (٤) : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾] (٥) (٦) .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة (٧) .

ورواه أيضا عن وكيع ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة به (٨) .

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه (٩) ؛ أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربَّتها ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة

(١) المسند (٢٤/٢) وصحيح البخارى برقم (١٠٣٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧) .

(٣) المسند (٨٥/٢) .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٣٨٦/١) .

(٧) المسند (٤٣٨/١) .

(٨) المسند (٤٤٥/١) .

(٩) فى ت : « وروى البخارى » .

العُرَاةَ رُؤُوسِ النَّاسِ ، فِذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ (١) إِلَّا اللَّهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ... ﴾ ، ثُمَّ انصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ : « رَدَّوهُ عَلَيَّ » . فَأَخَذُوا لِرَدِّهِ ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَقَالَ : « هَذَا جَبْرِيلُ ، جَاءَ لِيَعْلَمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » (٢) .

ورواه البخاري أيضا في « كتاب الإيمان » ، ومسلم من طرق ، عن أبي حيان ، به (٣) . وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري . وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله ، وهو من أفراد مسلم (٤) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأُتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ (٥) واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، [حدثني] (٦) ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثني ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والنبين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا (٧) فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثني ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان : أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثني متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . في خمسٍ لا يعلمهنَّ إلا هو (٨) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثني . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأمة ولدت ربَّتها - أو : ربها - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها] . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : « العرب » (٩) (١٠) .

حديث غريب ، ولم يخرجوه

حديث رجل من بني عامر : روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعي بن حراش ، عن رجل من بني عامر ؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرجني إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولي له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسَمِعته يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن ، فدخلت ، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن

(١) في ت : « لا يعلمهم » .

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٧٧) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٠) وصحيح مسلم برقم (٩) .

(٤) صحيح مسلم برقم (٨) .

(٥) في ف ، أ : « بين يديه » .

(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند .

(٧) في ف : « فإذا » .

(١٠) المُسند (٣١٨/١) .

تَدَعُوا اللّات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد علّم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (١) . وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جدبة ، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ] ﴾ (٢) ، إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . قال مجاهد : وهى (٣) مفاتيح الغيب التى قال الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ : قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة (٥) بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله ميتة (٦) عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٧) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحفري ، عن

(١) المسند (٣٦٨/٥) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) فى أ : « وهن » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٦/٢١) .

(٥) فى ت : « فروى أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير فى مسند أسامة » .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « منية » .

(٧) المعجم الكبير (١٧٨/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٩٦/٧) ، « ورجاله رجال الصحيح » وفيها : « منية » بدل : « ميتة » .

سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن مطر بن عكّامس قال : قال رسول الله ﷺ (١) : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به (٢) . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى ﷺ غير هذا الحديث . وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » (٣) ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبي المليح بن أسامة (٤) ، عن أبي عزة (٥) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » .

وأبو عزة هذا هو : يسار (٦) بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهذلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل [بن إبراهيم - وهو ابن علية (٧) ، وقال : صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل (٨) ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٩) .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعى قالا : حدثنا عمر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » . ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عمر بن على المقدمى (١٠) . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سليمان بن أبى مسيح (١١) قال : أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى همدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مَّا كَانَ يَجْمَعُهُ	سَوَى حُنُوطِ غَدَاةِ الْيَنِّ مَعَ خَرَقِ
وَغَيْرِ نَفْحَةِ أَغْوَادٍ تُشَبِّهُ لَهُ	وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لُنُطَلِقَ !
لَا تَأْسَيْنَ عَلَى شَيْءٍ فَكُلْ فَتَى	إِلَى مَنِيَّتِهِ سَيَّارُ فِى عَنَقِ (١٢)
وَكُلْ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْتَ يُخْطِئُهُ	مُعَلَّلٌ بِأَعَالِيلٍ مِنَ الْحَمَقِ
بِأَيِّمَا بَلَدَةٍ تُقَدَّرُ مَنِيَّتُهُ	إِنْ لَا يُسَيِّرُ إِلَيْهَا طَائِعًا يُسْقِ

(١) فى ت : « روى عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده أن رسول الله ﷺ قال » .

(٢) زوائد المسند (٢٢٧/٥) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٦) .

(٣) لم أجده فى المطبوع من المراسيل .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (٥) فى أ : « عن أبى عزة الهذلى » . (٦) فى ف : « بشار » .

(٧) المسند (٤٢٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٧) .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٩) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٨) « مجمع البحرين » من طريق عباد بن صهيب ، عن عبيد الله بن أبى حميد به ، وعباد ابن صهيب متروك .

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٦٧/١) من طريق محمد بن خالد الوهيب ، عن إسماعيل بن أبى خالد بنحوه .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « شيخ » . (١٢) فى ت : « يسير فى عنق » .

أورده الحافظ ابن عساكر ، رحمه الله ، فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (١) ، وهو أعشى همدان ، وكان الشعبى زوج أخته ، وهو مَزُوجٌ بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على (٢) مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبَّتْهُ (٣) إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره (٤) ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » (٥) .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال : « ما جعل الله منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة » (٦) .

[آخر تفسير سورة « لقمان » والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل] (٧)

(١) لم أجد الآيات فيما بين يدي من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور .

(٢) فى ت ، ف : « عكرمة » .

(٣) فى ف : « أنت » .

(٤) فى ت ، ف : « أمره » .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/٢٦٤) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » . والكلام هنا متعلق برواية

البزار ولم أستسغ تقديمها ؛ لورودها هكذا فى النسخ .

(٦) المعجم الكبير (١/١٧٨) وقد مر ذكره .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

تفسير سورة السجدة (١)

وهي مكية.

قال البخارى فى « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرْمُزٍ الأعرج (٢) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن ليث ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تفرد به أحمد (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلَمْ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ولا مرية أنه نزل (٦) ، ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ، بل يقولون : ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾ .

(٣) فى ت : « رسول الله » .

(٢) فى ت : « وروى البخارى بإسناده » .

(١) فى أ : « سورة آلم السجدة » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠) .

(٥) المسند (٣/ ٣٤٠) .

(٦) فى ف ، أ : « منزل » .

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر (١) على كل شيء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .
﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عدل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائي ههنا حديثا فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الخداد ، حدثنا الأخضر بن عجلان ، عن ابن جرير المكي ، عن عطاء (٢) ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم (٣) السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلق من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جرير ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق (٥) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأخبار وهو أصح » (٦) ، وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل (٧) أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] (٨) خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

(١) فى ت ، ف ، أ : « القاهر » . (٢) فى ت : « وروى مسلم والنسائي حديثا » . (٣) فى ت : « على العرش يوم » .

(٤) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٢) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠) .

(٦) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤١٣ ، ٤١٤) ومن أعله من الحفاظ ابن المدينى كما نقل ذلك البيهقى فى الأسماء والصفات ص (٢٧٥)، وقد رد ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى صحيحته برقم (١٨٣٣) ، والحديث يحتاج إلى بحث ، والله أعلم .

(٧) فى ت ، ف : « ينزل » . (٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

مِمَّا تَعْدُونَ ﴿٦﴾ .

﴿ ذَلِكْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها - هو ﴿ الْعَزِيز ﴾ الذى قد عزَّ كلَّ شَيْءٍ فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، ﴿ الرَّحِيم ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته [وهذا هو الكمال : العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل] (١) .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ .

يقول تعالى : إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال : أحسن خلق كل شَيْءٍ . كأنه جعله من المقدم والمؤخر .

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ، يعنى : خلق أبا البشر آدم من طين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما ، ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ ، يعنى : العقول ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : بهذه القوى التى رزقكموها الله عز وجل (٢) . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض (٣) وذهبت ، ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟ أى : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك (٤) ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قُدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص

(٣) فى أ : « الأرضين » .

(٢) فى ف ، أ : « تعالى » .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٤) فى أ : « تلك الحال » .

معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة « إبراهيم » (١) ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا (٢) ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء (٣) . ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ ، بنحوه مرسلًا . وقاله ابن عباس ، رضى الله عنهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ ، حدثنا (٤) عمرو بن شمر (٥) عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي ﷺ : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » . فقال ملك الموت : يامحمد ، طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر ، فى بر ولا (٦) بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرف (٧) بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ، لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها (٨) .

قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند (٩) مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهداً يقول (١٠) : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن (١١) يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن

(١) عند الآية السابعة والعشرين ، وقد جاء الحديث بتمامه فى نسخة ت .

(٢) فى ت : « كما » . (٣) فى ت : « شاء » . (٤) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن » .

(٥) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن سمرة » ، والتصويب من البداية والنهاية والمعجم .

(٦) فى ت : « أو » . (٧) فى ف ، أ : « لأعرف » .

(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠ / ٤) ، والبراز فى مسنده برقم (٧٨٤) « كشف الأستار » من طريق إسماعيل بن أبان ، عن عمرو

ابن شمر الجعفى ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن الحارث بن الخزرج عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، فأسنده

ولم يرسله ، ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة وقال : « عمرو بن شمر متروك الحديث » .

(٩) فى ف : « فى » . (١٠) فى ت : « وقال مجاهد » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « به » .

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴿

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١) ﴾ أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا (٢) دخلوا النار بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أى : إلى الدار الدنيا ، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات (٣) الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ - ٢٩] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] .

﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار (٤)

لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا

[هذا] (٥) العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : [إننا] (٦) سنعاملكم معاملة الناسى ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجنّة : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم (٧) ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جزاءً وفاً . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٢٤ - ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

(٢) فى ت : « إذ » .

(١) بعدها فى ف ، أ : « فارجعنا نعمل صالحاً » .

(٤) فى ت ، ف : « قد ذرأته للنار » .

(٣) فى ت ، ف : « بآيات » .

(٦) زيادة من ت .

(٥) زيادة من أ .

(٧) فى ت : « كفرهم وتكذيبهم » .

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلًا ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [أى (١)] عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعلها الجهله من الكفرة الفجرة ، [وقد (٢)] قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ثم قال [تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾] يعنى بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى [(٣) : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾] ، يعنى بذلك : قيام الليل .

وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد (٤) .

وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رواحة ، رضى الله عنه :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ
[أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقَلُّوْبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ] (٥)
يَبِيتُ يُجَافَى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن مُرَّة الهمداني ، عن ابن مسعود (٦) ، عن النبي ﷺ قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطأته ولخافه ، ومن بين أهله وحيه (٧) إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطأته ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٨) رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له فى

(٣) زيادة من ت ، ف .

(٢) زيادة من ت .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٤) تفسير الطبرى (٦٣/٢١) .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود » .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « من بين بنيه وأهله » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

الرجوع ، فرجع حتى أهرى دمه ، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي ، حتى أهرى دمه .

وهكذا رواه أبو داود في « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل (٢) ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله (٣) ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في (٤) جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ ، حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبي الله . فأخذ بلسانه ثم قال : « كَفَّ عليك هذا » . فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به (٥) . وقال (٦) الترمذى : حسن صحيح . ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال (٧) يحدث عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل » ، وتلا هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٨) .

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ ، عن النبي ﷺ بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ ، فى قوله تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٩) .

(١) المسند (٤١٦/١) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣٦) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « يا رسول الله » . (٤) فى ت : « من » .

(٥) المسند (٢٣١/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٦١٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٧٣) .

(٦) فى ت : « رواه » . (٧) فى أ : « الزبير » .

(٨) تفسير الطبرى (٦٤/٢١) .

المَضَاجِعِ ﴿١﴾ ، قال : « قيام العبد من الليل » (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فطر بن خليفة ، عن حبيب بن أبي ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جبير ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال : « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفي الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب (٢) ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم (٣) الذين كانت ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ الآية ، فيقومون وهم قليل » (٤) .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثني مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [الآية] (٦) ، كنا نجلس في المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧) .
وقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ؛ فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن [البصري] (٩) : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم .

قال البخاري : قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ ﴾ الآية : حدثنا علي بن

(١) تفسير الطبري (٢١/٦٤ ، ٦٥) .

(٢) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده » .

(٣) في ت : « لتقم » .

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده ، وأبو يعلى في المسند الكبير كما في المطالب العالية (٤/٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها .

(٥) في ت : « وقال البزار بإسناده عن بلال قال » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٩٠) : « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف » .

(٨) في ت ، ف ، أ : « أعمالهم كذلك » .

(٩) في ت : « ولا يخطر » .

(١٠) زيادة من أ .

عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله (١). قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأى شيء؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة، به (٢). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ثم قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا (٣) أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً من بلك ما أطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، قرأ أبو هريرة: «قُرَّتْ أَعْيُنٌ». انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق (٥). ورواه الترمذى فى التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٦).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة (٧)، رضى الله عنه، قال حماد: أحسبه عن النبي (٨) ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

(١) فى ف، أ: «تعالى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧).

(٣) فى ف، أ: «عن».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى «رواية أبي معاوية» بعد الحديث المتقدم.

(٥) المسند (٣١٣/٢) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق.

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٦٦/٢١).

(٧) فى ت: «وروي مسلم عن أبي هريرة».

(٨) فى ت: «رسول الله».

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (١) .

وروى (٢) الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت (٣) سهل بن سعد الساعدي ، رضى الله عنه ، يقول : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (٤) ، إلى قوله : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب ، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثني العباس بن أبي طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبي مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ ، يروى عن ربه ، عز وجل ، قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . لم يخرجوه (٦) .

وقال (٧) مسلم أيضا في صحيحه : حدثنا ابن أبي عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن سعيد ، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر - يرفعه إلى النبي ﷺ - قال : « سأل موسى ، عليه السلام (٨) ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله (٩) ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك . فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع (١٠) أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصدقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ورواه الترمذى عن ابن أبي عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي ، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (١١) .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦) .

(٢) فى أ : « وقال » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٥) المسند (٥/٣٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .

(٦) تفسير الطبرى (٦٧/٢١) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) فى ت : « ﷺ » .

(٩) فى ف ، أ : « وعشرة أمثاله معه » .

(١٠) فى ف « تسمع » .

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائني ، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خيثمة ، عن محمد بن جحادة ، عن عامر^(١) بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيدي . فيمكث معها سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي^(٢) قال الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، ويخبرون أن الله عنهم^(٣) راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أبي اليمان الهوزني - أو غيره - قال : الجنة مائة درجة ، أولها درجة فضة وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، [وآنيته فضة]^(٤) وترابها المسك . والثانية ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيته ذهب ، وترابها المسك . والثالثة لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيته اللؤلؤ ، وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغطريف ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس^(٦) ، عن النبي ﷺ ، عن الروح الأمين قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة]^(٧) وسع الله له في الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فحدثت بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يَعِدُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٦] . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسره إلى الله ، لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرّة أعين^(٨) .

﴿ أَقْمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

(٢) في أ : « أنا من الذين » .

(١) في ت : « وروى ابن أبي حاتم عن عباس » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبري .

(٣) في ت : « عليهم » .

(٥) تفسير الطبري (٦٦/٢١) .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبري .

(٦) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .

(٨) تفسير الطبري (٦٧/٢١) .

وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ
بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً
لرسله ، بمن كان فاسقاً ، أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ
فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى
مُعيط ؛ ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات
الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ، ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور
والغرف العالية ، ﴿ نُزُلًا ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن
الطاعة ، ﴿ فَمَا وَهُمْ نَارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم
والملائكة تقمعهم .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقرعاً وتوبيخاً .
وقوله : ﴿ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] ﴾ (٤) قال (٥) ابن
عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده
ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النخعى ،
والضحاك ، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجزرى ، وخصيف .

وقال ابن عباس - فى رواية عنه - : يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

(٢) فى ت ، ف : « لرسول الله » .

(١) زيادة من أ .

(٤) زيادة من ت .

(٣) فى ت : « قلوبهم بقاء الله ومقتضاها » .

(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة (١) ، عن عبد الله : ﴿ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابتهم (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني عبيد الله بن عمر القواريري ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَةَ (٣) ، عن الحسن العُرنِي ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبي ليلى (٤) ، عن أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : المصيبات (٥) والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام (٦) .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه (٧) . وعند البخاري عن ابن مسعود ، نحوه (٨) . وقال عبد الله بن مسعود (٩) أيضا ، في رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرِموا (١٠) ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى : لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه الله : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز (١١) ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عبادة بن نُسَيٍّ ، عن جنادة بن أبي أمية (١٢) ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد (١٣) لواء في غير حق ، أو عقى والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ » (١٤) .

(١) فى ت : « وروى النسائي بإسناده » .

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .

(٣) فى ف ، أ : « عَزْرَة » .

(٤) فى ت ، أ : « المضمار » .

(٥) زوائد المسند (١٢٨/٥) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضى خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .

(٨) فى ت : « وعن ابن مسعود » . (٩) فى ت ، أ : « وأعوز أشد العورة » .

(١٠) فى ت : « هزموا » . (١١) فى ت ، أ : « وأعوز أشد العورة » .

(١٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » . (١٣) فى ت : « اعتقد » ، وفى أ : « أعقد » .

(١٤) تفسير الطبرى (٦٩/٢١) .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢٣)
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ : قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء (١) . ثم روى عن أبي العالية الرياحى قال : حدثني ابن عم نبيكم - يعنى ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلاً آدم طويلاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة . ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه » ، ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ ، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحلوانى ، حدثنا روح بن عباد ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفى قوله :

﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ ، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل (٣) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيهِ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحرّفوا وأولّوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً (٤) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (٥) قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز .

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخرجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمى - أو : عمى على أبي - سئل سفيان عن قول على ، رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى [١] : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ] (٢) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧) .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ﴾ أى : وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢] ، وقال : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى : إن فى ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل (٣) متظاهرة .

﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السيج ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهى [الأرض] (٤) التى لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨] ، أى : يبساً لا تنبت شيئاً .

(٣) فى ت ، أ : « دلالات » .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزُ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هي] (١) المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء .

قال ابن لهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عمن حدثه قال : لما فُتحت مصر ، أتى أهلها عمرو بن العاص - [وكان أميراً بها] (٢) - حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمَدنا إلى جارية بكر بين (٣) أبيها ، فأرضينا أبيها ، وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا ، فألقها في النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد . . . فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب « السنة » له (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبًّا وَقُضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . [مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] ﴾ (٥) [عبس : ٢٤ - ٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وقال ابن أبي نجیح ، عن رجل ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً ، إلا ما يأتيها من السيول .

وعن ابن عباس ، ومجاهد : هي أرض باليمن .

وقال الحسن ، رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام .

وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : الأرض الجرز : التي لا نبات فيها

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) زيادة من ت . (٣) في أ : « من » .

(٤) كتاب السنة للالكائي برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء » : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثنا محمد بن

إسحاق ، حدثنا عبد الله بن صالح ، عن ابن لهيعة به ، وهو مرسل .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥] .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ (٣٠) .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا ، ويُنْتَقِمُ لَكَ مِنَّا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ - ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى : ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أى : أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبُ الْمُنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأيدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وييل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، [والله أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة «الم السجدة»] (٢)

تفسير سورة الأحزاب

[وهى] (١) مدنية .

قال [عبد الله بن] الإمام أحمد (٢) : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ابن بهدكة ، عن زر قال : قال لى أبى بن كعب : كآين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كآين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم (٣) حكيم (٤) .
ورواه النسائي من وجه آخر ، عن عاصم - وهو ابن أبى النجود ، وهو ابن بهدكة - به (٥) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان (٦) فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) فى هـ : « قال الإمام أحمد : إنما قاله عبد الله بن أحمد » ، وفى ت ، ف ، أ : « قال الإمام أحمد » وأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق ، والذي فى المسند : « حدثنا عبد الله ، حدثنا خلف » .

(٣) فى ت ، أ : « عزيز » .

(٤) المسند (١٣٢/٥) .

(٥) النسائي فى السنن الكبرى برقم (٧١٥٠) .

(٦) فى أ : « أنه قد كان » .

وَكَيْلًا ۖ أَى: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ۖ ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوى أمراً حسيماً معروفاً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى أمأ له ، كذلك لا يصير الدعى ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة : ٢] .

وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۖ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفى ؛ فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ، كان النبى ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۖ ﴾ ، كما قال فى أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ههنا : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۖ ﴾ : قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ۖ ﴾ أى : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۖ ﴾ أى : الصراط المستقيم |

وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية رداً عليه . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . قاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن قابوس - يعنى ابن أبى ظبيان - أن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرايت قول الله تعالى (١) : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ ﴾ ، ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ ﴾ (٢) .

(١) فى ف : « عز وجل » .

(٢) المسند (١/٢٦٧) .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن صاعد الحرانى - وعن عبد بن حميد ، عن أحمد بن يونس - كلاهما عن زهير ، وهو ابن معاوية ، به . ثم قال : وهذا حديث حسن . وكذا رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث زهير ، به (١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك (٢) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز إدعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر [الله] (٣) تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط .

قال البخارى ، رحمه الله : حدثنا معلى (٤) بن أسد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا موسى ابن عقبة قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيدا بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٥) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا (٦) ندعو سالما ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل على ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا ، فقال ﷺ : « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث (٧) .

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعوى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة (٨) زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لَكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيْ أَزْوَاجٍ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازا عن زوجة الدعوى ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فممنزلة منزلة ابن الصلب شرعا ، بقوله ، عليه السلام (٩) فى الصحيحين : « حرّموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » (١٠) . فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ،

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٩) وتفسير الطبرى (٧٤/٢١) .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٩٢/٢) . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ . (٤) فى ف : « يعلى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٧) .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « إنا كنا » .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٤٥٣) عن عائشة ، رضى الله عنها .

(٨) فى ف : « مطلقة » . (٩) فى أ : « ﷺ » .

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

عن الحسن العُرنى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لَنَا مِنْ جَمْع ، فجعل يَلَطِّخُ أَفْخَاذَنَا ويقول : « أُبَيِّنِي لَا ترموا الجُمرة (١) حتى تطلع الشمس » (٢) . قال أبو عُبَيْد وغيره : « أُبَيِّنِي » : تصغير بنى (٣) . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً فى صحيح مسلم ، من حديث أبى عَوَّانة الوضاح بن عبد الله الشَّكْرِي ، عن الجَعْدِ أبى عثمان البصرى ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَى » . ورواه أبو داود والترمذى (٤) .

وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيَهُمْ » : أمر [الله] (٥) تعالى برد أنساب الأدياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا (٦) آباءهم ، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضاً عما فاتهم من النسب . ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمره القضاء ، وتبعته ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فاحتمليها (٧) . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة (٨) ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عميس - وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتى - يعنى أسماء بنت عميس . فقضى النبى (٩) ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » (١٠) .

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام (١١) ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : « فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيَهُمْ » .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال أبو بكره : قال الله ، عز وجل : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيَهُمْ » ، فأنا ممن لا يُعرف أبوه ، وأنا من إخوانكم فى الدين . قال أبى : والله إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتضى (١٢) إليه .

(١) فى ف : « جمرة العقبة » .

(٢) المسند (٣١١/١) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائى (٢٧٠/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠٢٥) .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « أبني » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٥١) وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣١) .

(٥) زيادة من ت ، أ . (٦) فى أ : « يعلموا » .

(٧) فى ت ، أ : « فاحتملتها » . (٨) فى أ : « بحجته » . (٩) فى أ : « فقضى بها النبى » .

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء ، رضى الله عنه .

(١١) فى ف : « ﷺ » .

(١٢) فى ت : « لانتضب » .

وقد جاء في الحديث: «من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر» (١). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبرى من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أى: إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله أمراً بعباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت» (٣). وفي صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر» (٤). وفي الحديث الآخر: «إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما يكرهون» (٥) عليه.

وقال هاهنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى (٦): ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وفي الحديث المتقدم: «من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر». وفي القرآن المنسوخ: «فإن (٧) كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله (٨) محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم [فإنه كفر بكم - أو: إن كفراً بكم - أن ترغبوا عن آبائكم]» (٩)، وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني [كما أطرى]» (١٠) عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله» (١١). وربما قال معمر: «كما أطرت النصارى ابن مريم» (١٢).

ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم» (١٣).

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦).

(١) فى أ: «وهو يعلمه إلا كفر».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٠٨) من حديث أبى ذر، رضى الله عنه، بلفظ مقارب.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس.

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٥٢).

(٥) فى أ: «والأمر يكرهون».

(٦) فى ف: «الله».

(٧) فى أ: «فإنه».

(٨) فى ت: «إن الله بعث»، وفى ف: «إن الله، عز وجل، بعث».

(٩)، (١٠) زيادة من ت، ف، والمسند.

(١١) فى ف، أ: «أنا عبد الله وقولوا عبد الله ورسوله».

(١٢) المسند (٤٧/١).

(١٣) المسند (٣٤٢/٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٣٤) كلاهما عن أبى مالك الأشعرى بلفظ: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية».

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحهم لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»^(١). وفي الصحيح أيضاً أن عمر، رضى الله عنه، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله^(٢)، لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى. فقال: «الآن يا عمر»^(٣).

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وقال البخارى عندها^(٤): حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا [محمد بن] ^(٥) فليح، حدثنا أبى، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فأما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا. فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتنى فأنا مولاه». تفرد به البخارى^(٦).

ورواه أيضاً فى «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله^(٧). ورواه الإمام أحمد، من حديث أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول الله بنحوه^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ عن أبى سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأما رجل مات وترك ديناً، فإلى. ومن ترك مالا فلورثته»^(٩). ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل^(١٠)، به نحوه.

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا

= لا يتركهن: الفخر فى الأنساب ثم ذكر هذه الثلاث.

(١) صحيح البخارى برقم (١٤).

(٢) فى أ: «فقال: والله يا رسول الله».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦٣٢).

(٤) فى ف، ت، أ: «عند هذه الآية الكريمة».

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى.

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨١).

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٩٩) وتفسير الطبرى (٧٧/٢١).

(٨) المسند (٣٣٤/٢).

(٩) فى ف: «فهو لورثته».

(١٠) المسند (٢٩٦/٣) وسنن أبى داود برقم (٢٩٥٦).

تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم . وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء (١) في جمع المذكر السالم تغليبا؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله (٢).

وقد روى عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »، وروى نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود:

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب يمينه »، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان (٣).

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ » وقوله: « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى: فى حكم الله « مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ » أى: القرباب أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجر يرث الأنصارى دون قراباته (٤) وذوى رحمه، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبى حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، فقال: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى بكر المصعبى - من ساكنى بغداد - عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عز وجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ »، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة (٥)، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نغم الإخوان، فواخيئناهم ووارثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلانا، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بنى زريق، سعد الزرقى، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير:

(١) فى ف، أ: « فيدخل النساء فيه ».

(٢) فى ت: « رضى الله عنه ».

(٣) سنن أبى داود برقم (٨) وسنن النسائي (٣٨/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٣).

(٤) فى ت: « لما قدمنا إلى المدينة ».

(٥) فى ت: « أقاربه ».

وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بنى، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيرى، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا .

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ أى : ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أى : هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول، الذى لا يبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال (١): قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى (٢)، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية، وفى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على [هذا] (٣) الترتيب. فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ [وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ] (٤)﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه - صلوات الله [وسلامه] (٥) عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله [وسلامه] (٦) عليهم .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ الدمشقى، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى قتادة، عن الحسن (٧)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، فى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية: قال النبى ﷺ: « كنت أول النبيين فى الخلق

(١) فى ت، ف: « وإن كان تعالى » .

(٢) فى ت: « إلى ما هو جار فى قدره الأول »، وفى ف: « إلى ما هو جار فى قدره الأزلى » .

(٣) زيادة من ف . (٤) زيادة من ت، ف . (٥) (٦) زيادة من ف، أ .

(٧) فى ت: « روى ابن أبى الدنيا » .

وآخرهم فى البعث، [قُبْدَى بى] (١) قبلهم » (٢) سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة مرسلًا ، وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا ، فإلله أعلم .

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أو أحمد ، حدثنا حمزة الزيات ، حدثنا على بن ثابت ، عن أبى حازم (٣) ، عن أبى هريرة قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين (٤) . موقوف ، وحمزة فيه ضعف (٥) .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذر من صلب آدم ، كما قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : ورفع أباهم آدم ، فنظر إليهم - يعنى : ذريته - وأن فيهم الغنى والفقر ، وحسن الصورة ، ودون ذلك ، فقال : رب ، لوسويت بين عبادك؟ فقال : إني أحببت أن أشكر . وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج ، عليهم كالنور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذى يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ نُوْحٌ وَإِبْرَاهِيْمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (٦) الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ : العهد .

وقوله : ﴿ لَيْسَ أَلِصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ ، قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أعمهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : موجعًا ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عبادة المؤمنين ، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح

(١) زيادة من ت ، ف ، والدلائل والكامل .

(٢) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٦) وابن عدى فى الكامل (٣/٣٧٣) وتام فى الفوائد برقم (٣/١٠٠) من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة به ، وفى إسناده علتان :

الأولى : الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

الثانية : سعيد بن بشير ضعيف وقد خولف ، خالفه أبو هلال وسعيد بن أبى عروبة كما ذكره المؤلف فقالا : عن قتادة مرسلًا ، ا . هـ . مستفادًا من السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) للشيخ ناصر الألبانى .

(٣) فى ت : « وروى أبو بكر البزار بإسناده » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٦٨) « كشف الأستار » .

(٥) فى ت : « موقوف ضعيف » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

المشهور.

وقال موسى بن عقبة وغيره كانت في سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب رسول الله ﷺ (١) ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرجت قريش في أحايishها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق (٢)، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا (٣) ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجال والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراى في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري [اليهودى] (٤)، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰئِلِكِ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم (٥) يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى الله عنه، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله، عز وجل، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق (٦) لهم خيمة ولا شئ ولا تُوقَد لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ (٧) .

قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثني، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت

(٢) فى ف: « المشرق » .

(١) فى ف: « النبى » .

(٤) زيادة من ت . فى ت، ف: « فيقال » .

(٣) فى ت، ف: « فأسندوا » .

(٧) بعدها فى ف: « وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا » .

(٦) فى ت: « يبق » .

الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقى ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل . قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن حفص بن غياث ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فذكره .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : أرسلنى خالى عثمان بن مظعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة ، فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ ، فأذن لى ، وقال : « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا » . قال : فذهبت والريح تسفى كل شىء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ ، قال : فما يلوى أحد منهم عنقه . قال : وكان معى ترس لى ، فكانت الريح تضربه على ، وكان فيه حديد ، قال : فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى ، فأنفدها (٢) إلى الأرض (٣) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يا بن أخى ، والله لو رأيتمنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يَشْرَطُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرَطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يَقم أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لى يد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا » . قال : فذهبت فدخلت [فى القوم] (٤) ، والريح وجنود الله ، عز وجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسيه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والحُفّ ، وأخلفتنا بنو قُريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون (٥) . والله

(١) تفسير الطبرى (٨٠ / ٢١) .

(٢) فى ١ : « فأبعدها » .

(٣) تفسير الطبرى (٨٠ / ٢١) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والسيرة النبوية .

(٥) فى ١ : « ما ترون » .

ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت ، لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مرّحل ، فلما رأتى أدخلنى بين رجله ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع ، وسجد وإنى فيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطّان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (١) .

وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ریح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتى بخبر القوم ، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال : « اتنى بخبر القوم ، ولا تدعهم على » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كبد قوسى ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تدعهم على » ، ولو رميته لأصبت . قال : فرجعت كأنما أمشى فى حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ ، وألبسنى من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان (٢) » (٣) .

ورواه يونس بن بكير ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم : أن رجلاً قال لحذيفة ، رضى الله عنه : نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه ، ورأيتموه ولم نره . فقال حذيفة : ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه ، والله لا تدرى يا بن أخى لو أدركته كيف كنت تكون . لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق فى ليلة باردة مطيرة . . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً (٤) .

وروى بلال بن يحيى العبسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً (٥) .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ، من حديث عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدؤللى ، عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال : ذكر حذيفة مشاهدتهم مع رسول الله ﷺ (٦) ، فقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣١) .

(٢) فى أ : « نوا » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٧٨٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير به .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣/٣١) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥٠) عن موسى بن أبى المختار ، عن بلال العبسى ، عن حذيفة .

(٦) فى ت : « مع النبى » .

جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكننا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحداً إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبی ﷺ ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة » . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى على وما على جنة (١) من العدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى ، ما يجاوز ركبتى . قال : فأتانى ﷺ وأنا جاث على ركبتى فقال : « من هذا؟ » فقلت : حذيفة . قال : « حذيفة » . فتقاصرت بالأرض (٢) فقلت : بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم . [قال : قم] (٣) ، فقممت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » - قال : وأنا من أشد [الناس] (٤) فزعاً ، وأشدهم قرأ - قال : فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » . قال : فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرأ فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئاً . قال : فلما وليت قال : « يا حذيفة ، لا تحدثن فى القوم شيئاً حتى تأتيني » . قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش ، فأضعه فى كبد قوسى لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني » ، [فأمسكت] (٥) ورددت سهمى إلى كنانتي ، ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيل الرحيل ، لا مقام لكم . وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرستهم (٦) الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبی ﷺ ، فلما انتصفت فى الطريق أو نحو من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك (٧) معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فوالله ما عدا أن رجعت راجعتى القر وجعلت أقرق ، فأومأ إلى رسول الله ﷺ [بيده] (٨) وهو يصلى ، فدنوت منه ، فأسبل على شملته . وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يترحلون (٩) ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ (١٠) ۝ (١١) ۝ » .

وأخرج أبو داود فى سننه منه : كان رسول الله ﷺ : إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار ،

به (١١) .

(٣) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .

(٧) فى ف : « نحواً من ذلك » .

(٢) فى ت : « إلى الأرض » .

(٦) فى ت ، ف : « وفرستهم » .

(٩) فى أ : « يترحلون » .

(١) فى أ : « جنة » .

(٤ ، ٥) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .

(٨) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .

(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٤٥١) .

(١١) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ : تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الخوف والفرع ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ .

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك (١) .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ : ظن المؤمنون (٢) كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال معتب (٣) بن قشير - أخو بنى عمرو بن عوف - : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون (٤) ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبى ، حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا الزبير - يعنى : ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان - عن رُتَيْج ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح ، فزههم بالريح . وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى عامر العقدى (٦) .

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) .

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا وزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق ، فنجم نفاقه ، والذى فى قلبه شبهة أو

(١) تفسير الطبرى (٨٣/٢١) .

(٢) فى ت : « ظن المتون » .

(٣) فى أ : « معتب » .

(٤) فى ت : « يستأصلون » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) المسند (٣/٣) .

حَسِيكَةً، ضَعْفُ حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة ، كما جاء في الصحيح : « أريت [في المنام] (١) دارَ هجرتكم ، أرض بين حَرَّتَيْنِ فذهب وهلَى أنها هَجَرَ ، فإذا هي يثرب » (٢) ، وفي لفظ : « المدينة » .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن مهدي ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد ابن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن البراء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من سَمَى المدينة يثرب ، فليستغفر الله ، هي طابة ، هي طابة » (٣) .

تفرد به الإمام أحمد ، وفي (٤) إسناده ضعف ، والله أعلم .

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق ، يقال له : يثرب بن عييل بن مهلايل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلي ، قال : وروى عن بعضهم أنه قال : إن لها [في التوراة] (٥) أحد عشر اسما : المدنية ، وطابة ، وطيبة ، والمسكينة ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة .

وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة : ياطيبة ، وياطابة ، ويامسكينة ، [لا تقلى الكنوز ، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى] (٦) .

وقوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أى : هاهنا ، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة ، ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم . ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد .

وذكر ابن إسحاق : أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْظَى ، يعنى : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ، ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴾ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بَيُّوتُنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ : أنهم لو

(١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .

(٢) رواه البخارى في صحيحه برقم (٧٠٣٥) من حديث أبى موسى ، رضى الله عنه .

(٣) المسند (٢٨٥/٤) .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) فى ت : « فى » .

دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ ، وَقَطَرُ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ ، وَهِيَ الدَّخُولُ فِي الْكُفْرِ ، لِكُفْرِهِمْ سَرِيعاً . وَهُمْ لَا يَحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَذْنَى خَوْفٍ وَفَزَعٍ .

هكذا فسرهما قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .
ثم قال تعالى : يَذْكُرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ ، أَلَا يُولُوا الْأَدْبَارَ وَلَا يَفِرُوا (١) مِنَ الزَّحْفِ ، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أَي : وَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ ، لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ .
ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي : بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي : يَمْنَعُكُمْ ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لغيرهم مِنْ دُونِ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مَغِيثٌ (٢) .

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)
أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لإخوانهم ، أَي : أصحابهم (٣) وعُشْرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أَي : إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالشُّمَارِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . أَشْحَةً عَلَيْكُمْ أَي : بِخِلَاءِ بِالْمُودَةِ ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ .
وقال السُّدِّي : ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ أَي : فِي الْغَنَائِمِ .

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي : مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجَبْنَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ﴾ أَي : فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ ، تَكَلَّمُوا كَلَاماً بَلِيغاً فَصِيحاً عَالِياً ، وَادَّعَوْا لَأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ .

وقال ابن عباس : ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ (٤) أَي : اسْتَقْبَلُوكُمْ .

(١) فِي ت ، ف : « أَلَا يُولُونَ وَلَا يَفِرُونَ » . ر (٢) فِي ت ، ف ، أ : « مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا مُجِيرًا مَغِيثًا » .

(٣) فِي ت : « أَي لِأَصْحَابِهِمْ » .

(٤) فِي أ : « سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ » .

وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد (١) شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله للحق .

وهم مع ذلك أشحه على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم (٢) كما قال فى أمثالهم الشاعر (٣) :

أفى السِّلَمِ أعياراً (٤) جَفَاءً وغلظةً وفى الحربِ أمثالَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ

أى : فى حال المسألة كأنهم الحمير . والأعيار : جمع عير ، وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُمْؤِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى : سهلاً هيناً عنده .

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَهُمْ فَأَنْهَى اللَّهُ الَّذِينَ فِي الْأَعْرَابِ أَنْ يُسْأَلُوا عَنْ أَنْبَاءِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠) .

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ، بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَهُمْ فَأَنْهَى اللَّهُ الَّذِينَ فِي الْأَعْرَابِ أَنْ يُسْأَلُوا عَنْ أَنْبَاءِهِمْ﴾ أى : ويودّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون (٥) حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم ، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) .

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبي ﷺ (٦) يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجعوا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم فى

(١) فى أ : « فقد » . (٢) فى ت : « فيهم » .

(٣) البيت لهند بنت عتبة ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١) .

(٤) فى ت : « أعيار » . (٥) فى ت : « لا يكونوا » .

(٦) فى ت : « برسول الله » .

الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ ﴾ .

قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى في « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝ ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس (١) وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه (٢) يزيد وينقص . وقد قررنا ذلك فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ۝ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة [ما زادهم] (٣) ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ۝ ﴾ بالله ، ﴿ وَتَسْلِيمًا ۝ ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) ۝ ﴾ .

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ۝ ﴾ ، قال بعضهم : أجله .

وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝ ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه (٤) قال : لما نسخنا الصحف (٥) ، فَقَدْتُ آيَةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى - الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين - : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ ۝ ﴾ .

(١) فى ف : « بالنسبة إلى إيمان الناس » .

(٢) فى ت : « أن الإيمان » .

(٣) زيادة من ت .

(٤) فى ت : « روى البخارى عن زيد بن ثابت » .

(٥) فى ت ، أ : « المصحف » .

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى - فى التفسير من سننهما - من حديث الزهرى ، به (١) . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وقال (٢) البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثني أبى ، عن ثُمَامَةَ ، عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت (٤) قال : قال أنس : عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ (٥) عنه ، لئن أراى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (٦) أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس (٧) : يا أبا عمرو، أبى . واهأ لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتى الربيع ابنة النضر (٨) - : فما عرفتُ أخى إلا بينانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . قال : فكانوا يُروْنَ أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به (٩) . ورواه النسائى أيضا وابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه - يعنى : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غُيِّبْتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين، لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعنى : المشركين - ثم تقدم فلقى سعد - يعنى : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا (١٢) يقولون : فيه وفى أصحابه [نزلت] (١٣) : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٤) والمسنند (١٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠١) .

(٢) فى ت : « روى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٣) .

(٤) فى ت : « غبت » . (٥) فى ت : « غبت » .

(٦) زيادة من ف ، والمسنند .

(٧) فى ت : « عمة الربيع بنت النضر » .

(٨) أنس بن النضر .

(٩) المسند (١٩٣/٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٠) .

(١٠) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤) وتفسير الطبرى (٩٣/٢١) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « وطعنة برمح ورمية بسهم فكانوا » .

(١٣) زيادة من ف .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد، والنسائى فيه أيضا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به (١). وقال الترمذى : حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان ، عن محمد بن طلحة بن مُصَرَّف ، عن حميد ، عن أنس ، به (٢) ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير ، من حديث المعتمر بن سليمان ، عن حميد ، عن أنس ، به (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى ، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، حدثنى أبى ، عن جدى ، عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ﷺ من أحد ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٥) . فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعلى ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّانِ فقال : « أيها السائل ، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلَحى ، به (٦) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا، وابن جرير ، من حديث يونس بن بُكَيْر ، عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابْنى طلحة ، عن أبيهما ، به (٧) . وقال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يونس .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو عامر - يعنى : العقدي - حدثنا إسحاق - يعنى : ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية ، رضى الله عنه ، فلما خرجت ، دعانى فقال : ألا أضع عندك يابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نجه » (٨) .

ورواه (٩) ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الحميد الحِمَانى ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلَحى ، عن موسى بن طلحة قال [(١٠) : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نجه » (١١) .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ ﴾ قال : عهده ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يوما

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) .

(٣) تفسير الطبرى (٩٣/٢١) . (٤) فى ت : « وروى » .

(٥) بعدها فى ت ، ف ، أ : « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » .

(٦) تفسير الطبرى (٩٤/٢١) .

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٠٣) .

(٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٠٢) من طريق عمرو بن عاصم ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة ، به وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه » .

(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .

(١١) تفسير الطبرى (٩٣/٢١) .

(١٢) فى أ : « فصدق » .

وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل (١) تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد .
وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّ بَيُّوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ ﴾ (٢) كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلال ليميز (٣) الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم (٤) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ (٥) الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو (٦) أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد (٧) كونه ، وإن كان العلم (٨) السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظةهم عليه . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل (٩) الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٢٥) .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ] (١٠) [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فتناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق

(٣) فى ت : « فيميز » .

(٢) فى ت : « وقد » .

(١) فى ت : « من بدل » .

(٥) فى ت : « يعلم » .

(٤) فى ت : « بما علمه منهم » ، وفى ف : « بما يعلمه منهم » .

(٨) فى ت : « العالم » .

(٧) فى ف : « قبل » .

(٦) فى ت : « يبلو » .

(١٠) زيادة من أ .

(٩) فى ت ، ف : « والعمل » .

جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغیظهم وحقهم، لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ، بما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه (١) من الآثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق همم بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى : لم يحتاجوا (٢) إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ (٣) : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة (٤) .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٥) .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحاق : لما (٦) انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز (٧) قريش بعد ذلك ، وكان هو بغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق (٨) حديث صحيح ، كما قال (٩) الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنى أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرد يقول (١٠) : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه ، من حديث الثورى وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، به (١١) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى : بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ

(١) فى ت : « مما عملوا » . (٢) فى أ : « لم يحتاجوا » . (٣) فى ت : « ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف فى اللفظ .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢) .

(٦) فى ت ، ف : « فلما » . (٧) فى أ : « تعد » .

(٨) فى ت : « وهذا الذى ذكره ابن إسحاق » .

(٩) فى ت : « رواه » . (١٠) فى ت : « قال » .

(١١) المسند (٢٦٢/٤) وصحيح البخارى برقم (٤١٠٩) .

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ .

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النَّضْرِي - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك ، قد جئتكَ بعز الدهر ، أتيتكَ بقريش وأحاييشتها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتني بذلّ الدهر . ويحك يا حيي ، إنك مشؤوم ، فدعنا (١) منك . فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي (٢) إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له (٣) أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيد الله ونصر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل (٤) من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة [من] (٥) ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة . وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل ، أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » . قال : لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال : « أين ؟ » . قال : بنى قريظة ، فإن الله أمرنى أن أزلزل عليهم . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يُعْنَفَ واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تُقرَّ عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما

(١) فى ت : « دعنا » . (٢) فى أ : « حتى » . (٣) فى ت : « لهم » . (٤) فى ت : « يغسل رأسه » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

أقبل وهو راكب [على حمار] (١) قد وطؤوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يأسعد، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً (٢) وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (٣) ، وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكثفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم (٤) ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة ، الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً (٥) ، ولله الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل أبائهم الحجاز قديماً ، طمعاً في اتباع النبی الامی الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم (٦) ومنه سميت صياصي البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ (٧) ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا (٨) في الدنيا ، فانعكس

(١) زيادة من ت ، ف ، والبداية والنهاية . (٢) فى ت : « إجلالاً له » .

(٣) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى البداية والنهاية (١٢٣/٤) من طريق عاصم بن عمر ، عن عبد الرحمن بن عمر ، عن علقمة بن وقاص قال : قال رسول الله ﷺ فذكره ، وأظن فى السند خطأ . ورواه ابن سعد فى الطبقات (٤٢٦/٣) من طريق محمد ابن صالح التمار ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه سعد بن أبى وقاص مرفوعاً بلفظ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » ، وأصله فى صحيح البخارى من دون قوله : « فوق سبع سموات » برقم (٣٠٤٣) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٩/٢) .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وبسيطاً » .

(٦) فى ت : « كذا قال مجاهد وغير واحد من السلف » ، وفى أ : « كذا قال مجاهد وغيرهم من السلف » .

(٧) فى ف : « النبى » . (٨) فى ت ، ف ، أ : « ليعزواهم » .

عليهم الحال ، وانقلب الفال (١) ، انشمر (٢) المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا (٣) ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ ﴾ (٤) فَرِيقًا ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْمُ بْنُ بِشِيرٍ ، أخبرنا عبد الملك بن عمير ، عن عطية القرظي قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيظَةَ فَشَكُوا فِيَّ ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا : هَلْ أَنْبَتَ بَعْدَ ؟ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتَ ، فَخَلَى عَنِّي وَالْحَقْنَى بِالسَّبِي .

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق ، عن عبد الملك بن عمير ، به (٦) . وقال الترمذی : « حسن صحيح » . ورواه النسائي أيضاً ، من حديث ابن جُرَيْجٍ ، عن ابن أبي نَجِيجٍ ، عن مجاهد ، عن عطية ، بنحوه (٧) .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أى : جعلها لكم من قتلکم (٨) لهم ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ : قيل : خيبر . وقيل : مكة . رواه مالك ، عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ : قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى (٩) عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفوا الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنّه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز (١٠) ويقول :

لَبَّثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت : فقممت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَةٌ (١١) له - تعنى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجرينة (١٢) ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوّر . قالت : فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى (١٣)

(١) فى ت ، أ : « وانقلب عليهم الفال » . (٢) فى أ : « انشمر » . (٣) فى ت : « فلما راموا العز أذلوا » .

(٤) فى ت : « يقتلون ويأسرون » . (٥) فى ت : « روى » .

(٦) المسند (٣١١/٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٩٢/٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٢) .

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٩) .

(٨) فى ت ، ف : « قبلكم » .

(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(١٠) فى ت : « يرتجز » .

(١١) فى ت : « مشيقة » ، وفى ف : « نشيقة » . (١٢) فى ت : « محلبة » . (١٣) فى ت ، ف : « لى » .

ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة^(١) عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوُّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعداً رجل من قريش ، يقال له ابن العرقة بسهم^(٢) ، وقال له : خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحلَه فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتني حتى تُقر عيني من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرقاً كُلُّهُ ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثنياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ﷺ لأُمته ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، [فخرج رسول الله ﷺ]^(٣) فمر على بنى غنم^(٤) وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصره خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ]^(٥) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمِل عليه ، وحَفَّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النكايه ، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئاً ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالي في الله لومة لائم . قال^(٦) : قال أبو سعيد^(٧) : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فاقبضني إليك . قال : فانفجر كُلُّهُ ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخُرْص ، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فَحَصَرَهُ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر : قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

قال علقمة : فقلت : أى أمّه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته^(٨) .

(١) فى ف : « النسيقة » . (٢) فى ت ، ف : « بسهم له » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند .

(٤) فى ت ، ف : « نعيم » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند . (٦) فى ت ، ف ، أ : « قالت » .

(٧) فى أ : « أبو سعد » .

(٨) المُسند (٦/١٤١) .

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن غير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة نحواً من هذا ، ولكنه (١) أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ .

هذا أمر من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال (٤) البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة ، رضى الله عنها ، زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيّر أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « وإن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (٥) .

وكذا رواه معلقاً عن الليث : حدثنى يونس ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن عائشة ، فذكره وزاد : قالت : ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت (٦) .

وقد حكى البخارى أن معمرًا اضطرب ، فتارة (٧) رواه عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، وتارة رواه عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة (٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : لما نزل الخيار قال لى رسول الله ﷺ : « إنى أريد أن أذكر لك أمراً ، فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قلت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : فردّه عليها . فقالت : فما هو يا رسول الله ؟ قالت : فقرأ عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ إلى آخر الآية . قالت : فقلت : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة . قالت : ففرح بذلك النبى ﷺ (٩) .

(١) فى ت ، أ : « ولكن » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١١٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٩) .

(٣) فى ت : « ﷺ » .

(٤) فى ت : « فروى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٥) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٦) .

(٧) فى أ : « فيه فتادة و » .

(٨) صحيح البخارى (٥٢٠ / ٨) « فتح » .

(٩) تفسير الطبرى (١٠٠ / ٢١) .

وحدثنا ابن وكيع ، حدثنا محمد بن بشر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : لما نزلت آية التخيير ، بدأ بى رسول الله ﷺ ، فقال : « يا عائشة ، إني عارض عليك أمراً ، فلا تفتاتى فيه [بشيء] ^(١) حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان » . فقلت : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : « قال الله عزوجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ » . قالت : فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ولا أوامر فى ذلك أبوى أبى بكر وأم رومان ، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجْرَ فقال : « إن عائشة قالت كذا وكذا » . فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن كلهن ^(٢) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن محمد بن عمرو ، به .

قال ابن جرير : وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنا أبى ، عن ^(٣) محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نساءه أمر أن يخبرهن ، فدخل على فقال : « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك » . فقلت : وما هو يأنبى الله ؟ قال : « إني أمرت أن أخيركن » ، وتلا عليها آية التخيير ، إلى آخر الآيتين . قالت : فقلت : وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك ؟ فإني أختار الله ورسوله ، فسر بذلك ، وعرض على نساءه فتابعن كلهن ، فاخترن الله ورسوله ^(٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن سنان البصرى ، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى عقيل ، عن الزهرى ، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قالت عائشة ، رضى الله عنها : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نساءه ، فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا ^(٥) عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم ^(٦) أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن .

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً ، عن قتيبة ، عن الليث ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، مثله ^(٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً . أخرجاه من حديث الأعمش ^(٨) .

(١) زيادة من ت ، ف ، والطبرى .

(٢) تفسير الطبرى (١٠١/٢١) .

(٣) فى أ : « أنبأنا » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠١/٢١) .

(٥) فى أ : « ألا » .

(٦) فى ف : « أعلم » .

(٧) كذا ولم أجده بهذا السند فيهما ، ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف ولعلنى أتداركه فيما بعد .

(٨) المسند (٤٥/٦) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، رضى الله عنه ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفاً ، فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه (١) وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » . فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلنى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً (٢) ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » .

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى ، فرواه هو والنسائى ، من حديث زكريا بن إسحاق المكى ، به (٣) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا على بن هاشم بن البريد ، عن محمد بن عبيد [الله بن على] (٤) ابن أبى رافع ، عن عثمان بن على بن الحسين ، عن أبيه ، عن على ، رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ خير نساءه الدنيا والآخرة ، ولم يخيرهن الطلاق (٥) .

وهذا منقطع ، وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك . وهو خلاف الظاهر من الآية ، فإنه قال : ﴿ فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم .

قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

[ولم يتزوج واحدة منهن ، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالاته فأمنت به ونصرته ، وكانت له وزير صدق ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، رضى الله عنها ، فى الأصح ، ولها خصائص منها : أنه لم يتزوج عليها غيرها ، ومنها أن أولاده كلهم منها ، إلا إبراهيم ، فإنه من سريته مارية ، ومنها أنها خير نساء الأمة .

(١) فى ف : « نواجذه » . (٢) فى ت : « مبشراً » .

(٣) المسند (٣/٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٠٨) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(٥) زوائد المسند (٧٨/١) .

واختلف فى تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال ، ثالثها الوقف .

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال : اختصت كل واحدة منهما بخاصية ، فخديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام ، وكانت تُسَلَّى رسول الله ﷺ وتثبته ، وتسكنه ، وتبذل دونه مالها ، فأدركت غرة الإسلام ، واحتملت الأذى فى الله وفى رسوله وكان نصرتها للرسول فى أعظم أوقات الحاجة ، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها . وعائشة تأثيرها فى آخر الإسلام ، فلها من التفقه فى الدين وتبليغه إلى الأمة ، وانتفاع بنيتها بما أدت إليهم من العلم ، ما ليس لغيرها . هذا معنى كلامه ، رضى الله عنه .

ومن خصائصها : أن الله ، سبحانه ، بعث إليها السلام مع جبريل ، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك . روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : أتى جبريل ، عليه السلام ، النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة ، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنى ، وبشرها بيت فى الجنة ، من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب (١) وهذه لعمر الله خاصة ، لم تكن لسواها . وأماً عائشة ، رضى الله عنها ، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبى ﷺ ، فروى البخارى بإسناده أن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرئك السلام » . فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى ما لا أرى ، تريد رسول الله ﷺ (٢) .

ومن خواص خديجة ، رضى الله عنها : أنه لم تسوء قط ، ولم تغاضبه ، ولم ينلها منه إيلاء ، ولا عتب قط ، ولا هجر ، وكفى بهذه منقبة وفضيلة .

ومن خواصها : أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة .

فصل :

فلما توفاهما الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة ، رضى الله عنها ، وهى سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جيل بن عامر بن لؤى ، وكبرت عنده ، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة ، فأمسكها . وهذا من خواصها : أنها أثرت بيومها حب النبى ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ ، وحبا له ، وإيثاراً لمقامها معه ، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ، ويقسم لنسائه ، ولا يقسم لها وهى راضية بذلك مؤثرة ، لترضى رسول الله ﷺ .

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ، وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بستين ، وقيل : بثلاث ، وبني بها بالمدينة أول مقدمه فى السنة الأولى ، وهى بنت تسع ، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة ، وتوفيت بالمدينة ، ودفنت بالبقيع ، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين ، ومن خصائصها : أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، كما ثبت ذلك عنه فى البخارى وغيره ، أنه سئل أى الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » . قيل : فمن الرجال ؟ قال : « أبوها » (٣) .

ومن خصائصها أيضاً : أنه لم يتزوج بكرة غيرها ، ومن خصائصها : أنه كان ينزل عليه الوحي وهو

(١) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٨) .

(٣) لم أقف عليه فى صحيح البخارى . وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص ، رضى الله عنه .

فى لحافها دون غيرها .

ومن خصائصها: أن الله، عزوجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: « ولا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . فاستن بها بقية أزواجه ﷺ ، وقلن كما قالت .

ومن خصائصها : أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل فى عذرها، وبراءتها، وحيأ يتلى فى محاريب المسلمين ، وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها أنها من الطيبات ، ووعدا المغفرة والرزق الكريم ، وأخبر ، سبحانه ، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها ، ولم يكن بذلك الذى قيل فيها شر لها ، ولا عيب لها ، ولا خافض من شأنها ، بل رفعها الله بذلك ، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء ، فيا لها من منقبة ما أجلها . وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بوحى يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، فهذه صديقة الأمة ، وأم المؤمنين ، وحب رسول الله ﷺ ، وهى تعلم أنها بريئة مظلومة ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها ، قد بلغ أذاهم إلى أبويها ، وإلى رسول الله ﷺ ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها ، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين ، أو شهراً أو شهرين ، قد قام ليلة أو ليلتين ، فظهر عليه شئ من الأحوال ، ولا حظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات ، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم ، ويغتتم بصالح دعائهم ، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم ، فيتمسح بأثوابهم ، ويقبل ثرى أعتابهم ، وأنهم من الله بالمكانة التى تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم فى الحال ، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال ، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شئ إلا رضاهم .

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ، ولكن من وراء تخلف ، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الضميم ، والعقل غير المستقيم ، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه ، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه ، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه . نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وينبغى للعبد أن يستعيز بالله أن يكون عند نفسه عظيماً ، وهو عند الله حقيراً ، ومن خصائص عائشة، رضى الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضى الله عنهم ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين ، استفتوها فيجدون علمه عندها .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتها . ومن خصائصها : أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها فى خرقة حرير ، فقال النبي ﷺ : « إن يكن هذا من عند الله يمضه » (١) . ومن خصائصها : أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ ، فيتحنفونه بما يحب فى منزل أحب نسائه إليه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وتكنى أم عبد الله ، وروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً ، ولا يثبت ذلك .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ومن شهد بدرًا ، توفيت سنة سبع ، وقيل : ثمان وعشرين ، ومن خواصها : ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة : أن النبي ﷺ طلقها ، فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة .

وقال الطبراني في المعجم الكبير : حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى ، حدثنا جدى حرملة ، حدثنا ابن وهب ، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي ، عن موسى بن علي بن رباح ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، أن النبي ﷺ طلق حفصة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فوضع التراب على رأسه ، وقال : ما يعبا الله بآبن الخطاب بعد هذا . فتزل جبريل ، عليه السلام ، على النبي ﷺ فقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر (١) .

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة ، فتتصر بالحبشة ، وأتم الله لها الإسلام ، وتزوجها رسول الله ﷺ وهى بأرض الحبشة ، وأصدقها عند النجاشي أربعمئة دينار ، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة ، وولى نكاحها عثمان بن عفان ، وقيل : خالد بن سعيد بن العاص ، وهى التى أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة ، وقالت له : إنك مشرك ، ومنعته الجلوس عليه .

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد ، توفيت سنة اثنين وستين ، ودفنت بالبقيع ، وهى آخر أزواج النبي ﷺ موتاً ، وقيل : بل ميمونة ، ومن خصائصها : أن جبريل دخل على النبي ﷺ ، وهى عنده فرأته فى صورة دحية الكلبي . ففى صحيح مسلم عن أبي عثمان قال : أنبت أن جبريل أتى النبي ﷺ ، وعنده أم سلمة ، فقال : فجعل يتحدث ، ثم قام فقال نبي الله ﷺ : « من هذا ؟ » أو كما قال . قالت : هذا دحية الكلبي . قالت : وايم الله ، ما حسبت إلا إياه ، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ ، يخبر أنه جبريل ، أو كما قال ، قال سليمان التيمي : فقلت لأبي عثمان : ممن سمعت هذا الحديث ؟ قال : من أسامة بن زيد (٢) . وزوجها ابنها - عمر - من رسول الله ﷺ ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج ، ورد الإمام أحمد ذلك ، وأنكر على من قاله ، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم فى صحيحه أن عمر بن أبي سلمة - ابنها - سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم ؟ فقال : « سل هذه » يعنى : أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله ، فقال : لسا كرسول الله ﷺ ، يحل الله لرسوله ما شاء . فقال رسول الله ﷺ : « إني أتقاكم لله وأعلمكم به » (٣) أو كما قال . ومثل هذا لا يقال لصغير جداً ، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة . وقال البيهقي : وقول من زعم أنه كان صغيراً ،

(١) المعجم الكبير (٢٩١/١٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٣٣٤) : « فيه عمرو بن صالح الحضرمي ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٥١) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٠٨) .

دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبل عند مولاة زيد بن حارثة ، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات ، وأنزل عليه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان ، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته ، وهذا من خصائصها . توفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة ، وتوفيت ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكانت سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، ف وقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبتها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين ، وهى التى أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حبي ، من ولد هارون بن عمران أخى موسى ، سنة سبع ، فإنها سبيت من خيبر ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبى الحقيق ، فقتله رسول الله ﷺ ، وتوفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها . قال أنس : أمهرها نفسها ، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة ، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريتها صداقها ، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد ، رحمه الله . قال الترمذى : حدثنا إسحاق بن منصور ، وعبد بن حميد ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : صفية بنت يهودى ، فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك ؟ » قالت : قالت لى حفصة : إني ابنة يهودى . فقال النبي ﷺ : « إنك لابنة نبي وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى ، فبما تفخر عليك ؟ » ثم قال : « اتق الله يا حفصة » (١) . قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . وهذا من خصائصها ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسرف وهو على تسعة أميال من مكة ، وهى آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، توفيت سنه ثلاث وستين ، وهى خالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن عباس ، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهى التى اختلف فى نكاح النبي ﷺ لها . هل نكحها حلالاً أو محرماً ؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير فى نكاحها .

قال الحافظ أبو محمد المقدسى وغيره : وعقد على سبع ولم يدخل بهن ، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة ، وأنهن نساؤه ﷺ فى الدنيا والآخرة ، فمن فارقتها فى حياتها ولم يدخل ، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتى دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليماً [(٢)] .

(١) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) زيادة من ت .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر (١) أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن (٢) بحكمهن [وتخصيصهن] (٣) دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهى النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: فى الدنيا والآخرة. وعن ابن أبى نجيح [عن مجاهد] (٤) مثله.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى: سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: يطع (٥) الله ورسوله ويستجيب ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أى: فى الجنة، فإنهن فى منازل رسول الله ﷺ، فى أعلى عِلين، فوق منازل جميع الخلائق، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٣٣) واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً (٣٤) ﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ [٦] بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن فى الفضيلة

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «يخبرن».

(١) فى ت: «فاستقر».

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) فى ت، ف: «يطيع».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ .

قال السيّدّي وغيره : يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى : دغل ، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ : قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير .

ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

وقوله : ﴿ وَقرْنِ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا (١) تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تَفِلَات » ، وفى رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا حميد بن مسعدة (٣) ، حدثنا أبو رجاء الكلبى ، روح بن المسيب ثقة ، حدثنا ثابت البنانى (٤) ، عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قعد - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين (٥) فى سبيل الله » .

ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب ، وهو رجل من أهل البصرة مشهور (٦) .

وقال (٧) البزار أيضاً : حدثنا محمد بن المننى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن مَورِق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون (٨) بروحة ربها وهى فى قعر بيتها » .

ورواه الترمذى ، عن بُندَار ، عن عمرو بن عاصم ، به نحوه (٩) .

وروى البزار بإسناده المتقدم ، وأبو داود أيضاً ، عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى مَخْدَعها أفضل من صلاتها فى بيتها ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » (١٠) . وهذا إسناد (١١) جيد .

(١) فى ت : « ولا » .

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود فى السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر .

(٣) فى أ : « مسعود » . (٤) فى ت : « وروى أبو بكر البزار بإسناده » . (٥) فى ت : « المجاهد » .

(٦) مسند البزار برقم (١٤٧٥) « كشف الأستار » ورواه أبو يعلى فى المسند (١٤٠/٦) وابن حبان فى المجروحين (٢٩٩/١) من طريق أبى رجاء الكلبى بنحوه . قال ابن حبان : « وكان روح ممن يروى عن الثقات الموضوعات ، ويقلب الأسانيد ، ويرفع الموقوفات » ثم قال : « لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للاختبار » . وقال ابن عدى فى الكامل : « أحاديثه غير محفوظة » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى أ : « ما يكون » .

(٩) سنن الترمذى برقم (١١٧٣) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه برقم (٣٢٩) « موارد » عن عمرو بن عاصم ، به ، وشك ابن خزيمة فى سماع قتادة هذا الحديث من مورك .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٧٠) .

(١١) فى ت : « إسناده » .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن^(١) مشية وتكسر وتغنج - فنهى الله عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود - يعني ابن أبي الفرات - حدثنا علي بن أحمر، عن عكرمة^(٢) عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين^(٣) الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(٤).

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير: عن عكرمة أنه كان ينادى في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت^(٥) في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال:

حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن^(٦) ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

(١) في أ: «لها». (٢) في ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٣) في ت، ف: «وتنزل».

(٤) تفسير الطبري (٤/٢٢).

(٥) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى».

(٦) في ت: «انزلت».

وقال عكرمة : من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ .

فإن كان المراد أنهم كنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا علي بن زيد (١) ، عن أنس ابن مالك ، رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن عفان ، به . وقال : حسن غريب (٢) (٣) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، أخبرني أبو داود ، عن أبى الحمراء قال : رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ، [قال : رأيت رسول الله ﷺ] (٤) إذا طلع الفجر ، جاء إلى باب على وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » (٥) .

أبو داود الأعمى هو : نفع بن الحارث ، كذاب .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا شداد أبو عمار (٦) قال : دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم ، فذكروا علياً ، رضى الله عنه ، فلما قاموا قال لى : ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى . قال : أتيت فاطمة أسألها عن على فقالت : تَوَجَّهَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه على وحسن وحسين ، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ، ثم لف عليهم (٧) ثوبه - أو قال : كساءه - ثم تلا هذه الآية : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ، « اللهم (٨) هؤلاء أهل بيتى ، وأهل بيتى أحق » ، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبى عمير (٩) ، عن الوليد بن مسلم ، عن أبى عمرو الأوزاعى بسنده نحوه - زاد فى آخره : قال وائلة : فقلت : وأنا يا رسول الله - صلى الله عليك - من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلى » قال وائلة : إنها من أرجى ما أرتجى (١٠) .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ، عن الفضل بن دكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربى ، عن شداد أبى عمار قال : إني لجالس عند وائلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً

(٢) فى ت : « حديث حسن » .

(١) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) المسند (٢٥٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٦) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .

(٥) تفسير الطبرى (٦/٢٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠/٢٢) من طريق منصور بن الأسود ، عن أبى داود بنحوه .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن شداد بن عمار » .

(٧) فى أ : « عمر » .

(٨) فى ت ، ف : « وقال : اللهم » .

(١٠) المسند (١٠٧/٤) وتفسير الطبرى (٦/٢٢) .

فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذى شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء على وفاطمة وحسن حسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: «وأنت». قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي (١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن غير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأنته فاطمة، رضى الله عنها، ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادعى زوجك وابنيك». قالت: فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان (٢) تحته كساء خيبرى، قالت: وأنا في الحجرة أصلى، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فادخلت رأسى البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إني إلى خير، إني إلى خير» (٣).

في إسناده من لم يسم (٤)، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المعدل (٥)، عن عطية الطفاوى، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت (٦): بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعلياً بالسدة قالت: فقال لى: «قومي فتنحى عن (٧) أهل بيتي». قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل على فاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقبل فاطمة وقبل علياً، وأغدق عليهم خميصاً سوداء وقال: «اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: «وأنت» (٨).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا [الحسن بن عطية، حدثنا] (٩) فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول

(١) تفسير الطبرى (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٦٥/٢٢) من طريق على بن عبد العزيز عن الفضل بن دكين، أبو نعيم به

(٢) فى ف: «وكان».

(٣) المسند (٢٩٢/٦) وقد سمي شيخ عطاء في رواية الطبراني في المعجم الكبير (١١/٩) فقال عن عطاء بن أبي رباح، عن عمر بن أبي سلمة بنحوه.

(٤) فى أ: «يسمع».

(٥) فى أ: «العدل».

(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده أن أم سلمة قالت».

(٧) فى أ: «فتنحى لى عن».

(٨) المسند (٢٩٦/٦).

(٩) زيادة من: ت، ف، و، الطبرى.

الله، أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ؟ فقال : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، أَنْتَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ » قالت : وَفِي الْبَيْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى ، وَفَاطِمَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْحُسَيْنُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أَبِي كُرَيْبٍ ، عن وَكِيعٍ ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شَهْرٍ بن حَوْشَبٍ ، عن أم سلمة بنحوه (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ ، حدثنا خالد بن مَخْلَدٍ ، حدثني موسى بن يعقوب ، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَةَ قال : أَخْبَرْتَنِي أُمُّ سَلَمَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ فَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُمْ تَحْتَ ثَوْبِهِ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى اللَّهِ ، عَزَّوَجَلَّ ، ثُمَّ قَالَ : « هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي » . قالت أم سلمة : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَدْخَلْنِي مَعَهُمْ . فقال : « أَنْتَ مِنْ أَهْلِي » (٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أحمد بن محمد الطوسي ، عن عبد الرحمن بن صالح ، عن محمد بن سليمان الأصبهاني ، عن يحيى بن عبيد المكي ، عن عطاء ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أمه بنحو ذلك (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زُرَيْبٍ ، عن محمد بن سيرين ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ ، عن أم سلمة قالت : جَاءَتْ فَاطِمَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبُرْمَةٍ لَهَا قَدْ صَنَعَتْ فِيهَا عَصِيدَةً تَحْمِلُهَا عَلَى طَبَقٍ ، فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : « أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ وَابْنَاكَ ؟ » فَقَالَتْ : فِي الْبَيْتِ . فقال : « ادْعِيهِمْ » . فجاءت إلى علي فقالت : أَجَبَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ وَابْنَاكَ . قالت أم سلمة : فَلَمَّا رَأَاهُم مُقْبِلِينَ مَدَّ يَدَهُ إِلَى كِسَاءِ كَانَتْ عَلَى الْمَنَامَةِ ، فَمَدَّهُ وَبَسَطَهُ ، وَأَجْلَسَهُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِأَطْرَافِ الْكِسَاءِ الْأَرْبَعَةِ بِشِمَالِهِ ، فَضَمَّهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى رَبِّهِ ، عَزَّوَجَلَّ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ، هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » (٥) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا عبد الله (٦) بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن حكيم بن سعد قال : ذَكَرْنَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ ، فَقَالَتْ : فِي بَيْتِي نَزَلَتْ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » . قالت أم سلمة : جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِي فَقَالَ : « لَا تَأْذَنِي لِأَحَدٍ » . فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها . ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجدته ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فَجَلَّلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكِسَاءٍ كَانَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا ؟ قالت : فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ » (٧) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيعٍ ، حدثنا محمد بن بشر (٨) ، عن زكريا ، عن مصعب ابن شيبة ، عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ

(١) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٢٤٩) من طريق فضيل بن مرزوق به مختصراً .

(٢) تفسير الطبري (٦/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٧٠) من طريق عبد الحميد بن بهرام ، به . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٣٣٣) من طريق زييد ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة .

(٣) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٦٣) من طريق خالد بن مخلد القطواني به .

(٤) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٢٨٦) من طريق شريك ، عن عطاء ، عن أم سلمة .

(٥) تفسير الطبري (٧/٢٢) .

(٦) في أ : « عبد الملك » .

(٧) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٦٢) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش بنحوه .

(٨) في أ : « بشير » . (٩) في ف : « النبي » .

غداة، وعليه مرط مُرَحَّل من شَعْرٍ أَسْوَدَ، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر (١)، به (٢).

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد ابن يزيد، عن العوام - يعني: ابن حَوْشَب - عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي، رضى الله عنه، فقالت، رضى الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحَّى، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثني، حدثنا بكر (٣) بن يحيى بن زبَّان العنزي، حدثنا منذل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾» (٤).

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم. وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فإله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثني، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا بُكير بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلى وأهل بيتي» (٥).

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، وشجاع بن مخلد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة - قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حيان، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحُصَيْن بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم (٦) إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً [رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً] (٧)؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد

(١) فى ١: «بشير».

(٢) تفسير الطبرى (٥/٢٢) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨١).

(٣) فى ف: «بكير».

(٤) تفسير الطبرى (٥/٢٢).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٧/٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٤٣٩) من طريق أبى بكر الحنفى، عن بكير بن مسمار، به.

(٦) فى ت، ف، أ: «سلمة».

(٧) زيادة من ت، ف، ومسلم.

كَبُرَتْ (١) سَنَى ، وقدم عهدي ، ونسيتُ بعضُ الذي كنتُ أَعْي من رسول الله ﷺ ، فما حَدَّثْتُكُمْ فاقبلوا، وما لَا فلا تُكَلِّفُونِيهِ . ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوما خطيباً بماء يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وَذَكَرَ ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك (٢) أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، وأولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » . فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بعده . قال : ومن هم ؟ قال هم آل علي ، وآل عَقِيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حُرِّمَ الصَّدَقَةُ ؟ قال : نعم (٣) .

ثم رواه عن محمد بن بَكَّار بن الرِّيَّان ، عن حسان بن إبراهيم ، عن سعيد بن مسروق ، عن يزيد ابن حَيَّان (٤) ، عن زيد بن أرقم ، فذكر الحديث بنحو ما تقدم ، وفيه : فقلنا له : من أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعَصْبَتُهُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ بعده (٥) .

هكذا وقع في هذه الرواية ، والأولى أولى ، والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آل الذين حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ ، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آلهم ، وهذا الاحتمال أرجح ؛ جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت ، فإن في بعض أسانيدنا نظراً ، والله أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى : اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصتن (٦) بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة [الصديقة] (٧) بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه (٨) . قال بعض العلماء ، رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواها ، فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية . ولكن إذا كان أزواجه من أهل

(١) في أ : كبر . (٢) في ف : « فيوشك » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .

(٤) في أ : « حسان » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .

(٦) في أ : « خصصتن » .

(٧) زيادة من أ . (٨) في ت : « رسول الله ﷺ » .

بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية ، كما تقدم فى الحديث : « وأهل بيتى أحق » . وهذا يشبه ما ثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال: « هو مسجدي هذا » (١) . فهذا من هذا القبيل ؛ فإن الآية إنما نزلت فى مسجد قباء ، كما ورد فى الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا أبو عوانة ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن أبى جميلة (٢) قال : إن الحسن بن على استخلف حين قُتل على ، رضى الله عنهما (٣) ، قال : فينما هو يصلى إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذى طعنه رجل من بنى أسد ، وحسن ساجد قال : فيزعمون أن الطعنة وقعت فى وركه ، فمرض منها أشهراً ، ثم برأ فقعده على المنبر ، فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ، فإننا أمراؤكم وضيغانكم ، ونحن أهل البيت الذى قال الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ قال : فما زال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يحن بكاء .

وقال السدّي ، عن أبى الديلم قال : قال على بن الحسين لرجل من أهل الشام : أما قرأت فى الأحزاب : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ؟ قال : نعم ، ولأنتم هم ؟ قال : نعم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة ، وبخبرته (٤) بكن وأنكن أهل لذلك ، أعطاكم ذلك وخصكن بذلك .

قال ابن جرير ، رحمه الله : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : ذا لطف بكن ، إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة . وهى السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً .

وقال قتادة : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال : يمتن عليهن بذلك . رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعنى : لطيف باستخراجها ، خبير بموضعها . رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : وكذا روى عن الربيع بن أنس ، عن قتادة (٥) .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « عنه » . (٤) فى ت : « بمخبرته » .

(٥) فى ت : « وقاتدة » .

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عثمان بن حكيم ، حدثنا (١) عبد الرحمن بن شيبه ، سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نُذَكِّرُ في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت (٢) : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت : وأنا أَسْرَحُ شعري ، فلففت شعري ، ثم خرجت إلى حُجْرَةٍ من حُجَرِ بَيْتِي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » إلى آخر الآية .

وهكذا رواه النسائي وابن جرير ، من حديث عبد الواحد بن زياد ، به مثله (٣) .

طريق أخرى عنها : قال النسائي أيضاً : حدثنا محمد بن حاتم ، حدثنا سُوَيْدٌ ، أخبرنا عبد الله بن شَرِيكٍ ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أم سلمة أنها قالت للنبي ﷺ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا لِي أَسْمَعُ الرِّجَالَ يَذْكُرُونَ فِي الْقُرْآنِ ، وَالنِّسَاءَ لَا يَذْكُرْنَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤) .

وقد رواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيْبٍ ، عن أبي معاوية ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة : أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، حدثه عن أم سلمة ، رضي الله عنها ، قالت : قلت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْذَكَرُ الرِّجَالَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا نَذَكَرُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (٥) .

طريق أخرى : قال سفيان الثوري ، عن ابن أبي نَجِيحٍ ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَذْكُرُ الرِّجَالَ وَلَا نَذَكَرُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَيَّارُ بْنُ مَظَاهِرِ الْعَنْزِيِّ (٦) ، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْنَةَ يَحْيَى بْنُ الْمُهَلَّبِ ، عَنْ قَابُوسِ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا لَهُ يَذْكُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَذْكُرُ الْمُؤْمِنَاتِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (٧) .

وحدثنا بشر (٨) ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد (٩) ، عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ﷺ ، فَقُلْنَ : قَدْ ذَكَرَكُنَّ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَمْ نَذَكَرْ بِشَيْءٍ ، أَمَا فِينَا مَا يَذْكُرُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (١٠) .

(١) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن » . (٢) في ف : « قال » .

(٣) المسند (٣٠٥/٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٤٠٥) وتفسير الطبري (٩/٢٢) .

(٤) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٤٠٤) .

(٥) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

(٦) في ف ، أ : « سنان بن مظاهر العمري » .

(٧) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

(٨) في ف ، أ : « بشير » .

(٩) في ف ، أ : « سعد » .

(١٠) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله (١) تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن». فيسلبه (٢) الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى.

[وقوله] (٣): ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾: القنوت: هو الطاعة فى سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة (٤) يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذا فى الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام (٥)، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار». ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (٦) والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾: هذه سَجِيَّةُ الأثبات، وهى الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتلقى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أى: أصعبه فى أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾: الخشوع (٧): السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، [كما فى الحديث] (٨): «اعبد الله كأنك تراه»، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾: الصدقة: هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال (٩) طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت فى الصحيحين: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، ف، أ: «فسلبه».

(١) فى أ: «كقوله».

(٥) فى ت، ف: «جاهلية ولا إسلام».

(٤) فى ت: «قربة».

(٧) فى ت، ف، أ: «أى».

(٦) فى ت، ف، أ: «أتى بعجز الحديث وأخر صدره».

(٩) فى أ: «الأعمال».

(٨) زيادة من ت، ف، أ.

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه « (١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفى الخطيئة ، كما يطفى الماء النار » (٢) .

[وفى الترمذى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « إن الصدقة تطفى غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه . فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى حديث أبى ذر أنه قال : سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟ قال : « الإيمان بالله » . قلت : يا نبى الله ، مع الإيمان عمل ؟ قال : « ترضح مما حولك الله » ، أو : « ترضح مما رزقك الله » ؛ ولهذا لما خطب النبى ﷺ يوم العيد قال فى خطبته : « يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » . وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار ، وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : ضرب رسول الله ﷺ ، مثل البخيل والمتصدق ، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، أو جنتان من حديد . قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقيهما ، فجعل المتصدق ، كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت ، وأخذت كل حلقة مكانها . قال أبو هريرة : فأننا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه . فلو رأيته يوسعها ولا يتسع . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] . فجود الرجل يحبيه إلى أصداده ، وبخله ييغضه إلى أولاده . كما قيل :

ويظهر عيبَ المرء فى الناس ببخله وتستره عنهم جميعا سخاؤه

تعط بأثواب السخاء فلإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه (٣)

والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أى : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً .

قال (٤) سعيد بن جبیر : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ، رضى الله عنه ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » . ورواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٢١ من حديث جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ت . (٤) فى أ : « كما قال » .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (١) - ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ : قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا محمد بن جابر ، عن علي بن الأقرم ، عن الأغر أبى مسلم (٢) ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كتبنا (٣) تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث الأعمش ، [عن علي بن الأقرم] (٤) ، عن الأغر أبى مسلم ، عن أبى سعيد وأبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، بمثله (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه » (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ، فأتى على جُمدان فقال : « هذا جُمدان ، سيروا فقد سبق المُفردون » . قالوا : وما المُفردون (٩) ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً (١٠) » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » .

تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (١١) .

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى ت ، أ : « كانا » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، وسنن أبى داود وابن ماجه .

(٥) سنن أبى داود برقم (١٣٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥) .

(٦) فى ت : « وروى » .

(٧) المسند (٧٥/٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وما المفردون يا رسول الله ؟ » .

(١٠) فى ف ، أ : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

(١١) المسند (٤١١/٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٠٢) وإنما رواه مسلم دون أوله ، والله أعلم .

وقال (١) الإمام أحمد : حدثنا حُجَيْنُ بنِ المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن زياد بن أبي زياد - مولى عبد الله ابن عيَّاش (٢) بن أبي ربيعة - أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ». وقال معاذ : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله ، عز وجل » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ : أن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم (٤) لله ذكراً » . قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكراً » . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً » . فقال أبو بكر لعمر ، رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير . فقال رسول الله ﷺ : « أجل » (٥) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الآية [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] ، إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى : هيا لهم (٦) منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ ﴾ الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » . قالت : يا رسول الله ، أوامر في نفسي . فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ الآية ، قالت : قد رضيت لى منكحها يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قالت : إذا لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي (٧) .

(٢) فى ف ، أ : « عباس » .

(١) فى ت : « وروى » .

(٣) المسند (٢٣٩/٥) .

(٤) فى أ : « أكثرهم » .

(٥) المسند (٤٣٨/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧٤/١٠) : « وفيه زبَّان بن فائد وهو ضعيف ، وقد وثق ، وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٦) فى ت ، ف : « أعد لهم » .

(٧) تفسير الطبرى (٩/٢٢) .

وقال ابن لهيعة ، عن ابن أبي عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت في زينب بنت جحش [الأسدية] (١) حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نزلت في أم كلثوم (٢) بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى : بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقال : قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة - يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال : فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا جماع .

وقال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البناني ، عن أنس قال : خطب النبي ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها ، فقال : حتى أستامر أمها . فقال النبي ﷺ : فنعم (٤) إذا . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، [فذكر ذلك لها] (٥) ، فقالت : لاها الله ذا (٦) ، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلييبا ، وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال : والجارية في سترها (٧) تسمع . قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ؟ إن كان قد رضى لكم فأنكحوه . قال : فكانها جلّت عن أبيها ، وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنت رضىته فقد رضىناه . قال : « فإني قد رضىته » . قال : فزوجها (٨) ، ثم فرغ أهل المدينة ، فركب جلييب فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ، قال أنس : فلقد رأيتهما [وإنها] (٩) لمن أنفق بيت بالمدينة (١٠) .

وقال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعنى : ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبي برزة الأسلمي أن جلييبا كان امرأ يدخل على النساء يمرّ بهن ويلاعبهن ، فقلت لامرأتى : لا يدخلن اليوم عليكم (١٢) جلييب ، فإنه إن دخل عليكم (١٣) لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجه حتى يعلم : هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار : « زوجنى ابتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله (١٤) ، ونعمة عين . فقال : إني لست أريدها لنفسى . قال : فلمن يارسول الله ؟ قال : لجلييب .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٢) فى أ : « أم مكتوم » .

(١) زيادة من أ .

(٥) زيادة من ت ، ف ، والمسنند .

(٤) فى ف : « لنعم » .

(٦) فى هـ ، أ : « إذا » والمثبت من ت ، ف والنهاية لابن الأثير .

(٨) فى أ : « فتزوجها » .

(٧) فى ت : « خدرها » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، والمسنند .

(١٠) المسند (١٣٦/٣) .

(١٢) ، (١٣) فى أ : « عليكن » .

(١١) فى ت : « وروى » .

(١٤) فى أ : « برسول الله » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ؟ فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجليب . فقالت : أجليب إنه (١) ؟ أجليب إنه (٢) ؟ لا ، لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ ! ادفعوني إليه ، فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها . فزوجها جليبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليبا . قال : « فاطلبوه في القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . [فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] (٣) . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : قتل سبعة [وقتلوه] (٤) ، هذا منى وأنا منه . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه [وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ] (٥) . ثم وضعه في قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها [الخير] (٦) صبا ، ولا تجعل عيشها كذا » كذا قال ، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله (٧) ، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله (٨) . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت (٩) هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١٠) .

وقال ابن جرير [أخبرني عامر بن مصعب ، عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنه (١١) : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾] (١٣) .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وفي الحديث : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . ولهذا شدد في خلاف ذلك ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

(٣) ، ٤ ، ٥ ، ٦) زيادة من ت ، ف ، والمسنـد .

(١) ، ٢) في هـ ، ت ، ف ، أ : « ابنه » والتصويب من المسند .

(٧) المسند (٤/ ٤٢٢) .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٢٤٦) .

(٩) في أ : « نزلت » .

(١٠) الاستيعاب (١/ ٢٥٩) .

(١١) في ت : « تكون » . (١٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١١) في أ : « عنهما » .

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝ (٣٧)﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه ، أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة ، رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد ، عن وائل بن داود ، عن عبد الله البهي عنها (١) .

وقال (٢) البزار : حدثنا خالد بن يوسف ، حدثنا أبو عوانة (ح) ، وحدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو عوانة ، أخبرني عمران بن أبي سلمة (٣) ، عن أبيه : حدثني أسامة بن زيد قال : كنت فى المسجد ، فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : «أتدري ما حاجتهما ؟» فقلت : لا يا رسول الله . فقال : «لكنى أدري» ، قال : فأذن لهما . قالوا : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : «أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد» ، قالوا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال : «فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه» (٤) .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأمها أميمة (٥) بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحقة ، ودرعاً ، وخمسين مداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : «أمسك عليك زوجك ، واتق الله» . قال الله تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ .

ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف ، رضى الله عنهم ، أحببنا أن نضرب

(١) المسند (٢٢٧/٦) .

(٢) فى ت : «وروى» .

(٣) فى ت ، ف ، أ ، هـ : «عمر بن أبي سلمة» ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨١٩) من طريق أبي عوانة بنحوه ، وقال الترمذى : «حديث حسن صحيح» .

(٥) فى ت : «أمية» .

عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردتها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً (١) .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا مَعْلَى (٢) بن منصور ، عن حماد بن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن علي ابن زيد بن جُدعان قال : سألتني على بن الحسين ما يقول الحسن في قوله : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ] (٥) ؟ فذكرت له فقال : لا ، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك . فقال : قد أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

وهكذا روى عن السُّدِّي أنه قال نحو ذلك .

وقال (٦) ابن جرير : حدثني إسحاق بن شاهين ، حدثني خالد ، عن داود عن عامر ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكنتم : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرغ منها ، وفارقها ، وزوجناها ، وكان الذى وكى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا هاشم - يعنى : ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » . فانطلق حتى أتاهها وهى تُخَمَّرُ عَجِينَهَا ، قال : فلما رأيتها عظمت في صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت (٩) على عقبي ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى

(١) الحديث فى المسند (٣/١٤٩) والغرابة من قوله : « فرأى رسول الله ﷺ امرأته زينب وكأنه دخله » . فقد شك مؤمل فى الرواية ، وهو سئى الحفظ .

(٢) فى أ : « يعلى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٧) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) زيادة من ف . (٦) فى ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/١١) وأصله فى الصحيح بلفظ : « من حدثك بثلاث » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وركضت » .

أوامر ربي، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ [وابتعته] (١) فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية .

ورواه مسلم والنسائي من طرق ، عن سليمان (٢) بن المغيرة ، به (٣) .

وقد روى البخاري ، رحمه الله ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات (٤) .

وقد قدمنا في « سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة ، فقالت زينب ، رضى الله عنها (٥) : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري من السماء ، فاعترفت لها زينب ، رضى الله عنها (٦) .

وقال (٧) ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبي قال : كانت زينب تقول للنبي ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام (٨) .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحننا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج المطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « سليم » .

(٣) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائي (٧٩/ ٦) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠) .

(٥) فى ت : « عنهما » .

(٦) عند الآية : ١١ .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) تفسير الطبرى (١١/ ٢٢) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨).

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا رد على من توهّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه ، الذى كان قد تبناه .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كائن لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء [الله] (١) كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩)
مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

يمدح تعالى (٢) : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث (٣) إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، رضى الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

قال (٤) الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْرٍ ، أخبرنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا (٥) يَقُولُهُ ، فيقول الله : ما يمنعك أن تقول فيه ؟ فيقول : رب ، خشيت الناس . فيقول : فأنا أحق أن يخشى (٦) » .

(٢) فى ت ، ف : « يمدح الله تعالى » ، وفى أ : « يمدح الله عز وجل » .

(١) زيادة من ت .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « وكان النبى قبله إنما يبعث » .

(٤) فى ت : « روى » .

(٦) فى أ : « يخشاه » .

(٥) فى ت : « أن لا » .

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن زيد ، عن عمرو بن مرة (١) .
ورواه ابن ماجه ، عن أبي كريب ، عن عبد الله بن غير وأبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش ،
به (٢) .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، نهى (٣) [تعالى] (٤) أن يقال بعد هذا : « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا (٥) ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم (٦) أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى (٧) أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول [بعده] (٨) بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدي ، حدثنا زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى كعب (٩) ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنه لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنه ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنه » .

ورواه الترمذى ، عن بُندار ، عن أبى عامر العقدي ، به (١٠) ، وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فلفل ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال : فشق ذلك على الناس قال : قال (١٢) : « ولكن المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم ، به (١٣) . وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فلفل .

(١) المسند (٣/ ٣٠ ، ٧٣) .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٤٢) : « هذا إسناد صحيح » .

(٣) فى أ : « ينهى » . (٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « أيضا صغيرا رضيعا » .

(٦) فى أ : « عنهن » . (٧) فى أ : « على » . (٨) زيادة من أ .

(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بن كعب » .

(١٠) المسند (٥/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٣) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(١٣) المسند (٣/ ٢٦٧) وسنن الترمذى برقم (٢٢٧٢) .

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليم بن حيّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل الأنبياء كمثلى رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة، ختم بى الأنبياء، عليهم السلام » .

ورواه البخارى، ومسلم، والترمذى، من طرق، عن سليم (١) بن حيّان، به (٢). وقال الترمذى: صحيح غريب من هذا الوجه .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل النبيين [من قبلى] (٣) كمثلى رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به (٤) .

حديث آخر: قال [الإمام] (٥) أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عبيد الراسبى قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » . قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال: « الرؤيا الحسنة - أو قال - : الرؤيا الصالحة » (٦) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة (٧) قال: قال رسول الله ﷺ: « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثلى رجل ابنتى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟! » قال رسول الله ﷺ: « فكنتم أنا اللبنة » . أخرجه من حديث عبد الرزاق (٨) .

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضاً: قال (٩) الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب (١٠) وقتيبة وعلى ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون » .

(١) فى ف : « سليمان » .

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٧٨٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٢) .

(٣) زيادة من ت ، أ ، والمسنَد .

(٤) المسند (٩/٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) .

(٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٥/٤٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٧٣/٧): « ورجاله ثقات » .

(٧) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، رضى الله عنه » .

(٨) المسند (٢/٣١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) ولم أجده فى البخارى ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف إلا لمسلم .

(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) فى أ : « يعقوب » .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذى : حسن صحيح^(١) .
حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد
الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا
موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي كريب ، كلاهما عن أبي معاوية ، به^(٢) .
حديث آخر : قال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن
سعيد بن سويد الكلبي ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي ، عن العرياض بن سارية قال : قال النبي
ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيئته »^(٤) .

حديث آخر : قال (٥) الزهري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، رضى الله عنه ،
قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو
الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذى ليس بعده (٦)
نبي » . أخرجاه فى الصحيحين (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن
عبد الرحمن بن جبير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع ،
فقال : « أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولا نبي بعدى : أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ،
وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجاوز بى ، وعوفيت وعوفيت (٩) أمتى ؛ فاسمعوا وأطيعوا
مادمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه » . تفرد به الإمام
أحمد (١٠) .

ورواه (١١) [الإمام] أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق ، عن ابن لهيعة ، عن عبد الله بن
هبيرة ، عن عبد الله بن مريح (١٣) الخولاني ، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن
عمرو فذكر مثله سواء (١٤) (١٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ، صلوات الله وسلامه
عليه ، إليهم ، ثم من تشریفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر تعالى
فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

(١) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٥٦٧) .

(٢) تقدم الحديث من قريب .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) المسند (١٢٧/٤) .

(٥) فى ت : « وقال » . (٦) فى أ : « بعدى » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٥٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ت : « وعرفت » .

(١٠) المسند (١٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١١) فى ف : « وحدثني » . (١٢) زيادة من ف ، أ . (١٣) فى أ : « سريح » .

(١٤) فى أ : « سواء » .

(١٥) المسند (١٧٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

فهو كذاب أفك ، دجال ضال مضل ، ولو تخرق (١) وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات (٢) ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، [فكل واحد من هؤلاء الكذابين] (٣) يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من (٤) جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق (٥) والرشد والاستقامة [والعدل] (٦) فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف (٧) المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن سعيد (٨) ، حدثنى مولى ابن عياش (٩) عن أبى بحرية (١٠) ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند ، عن زياد - مولى ابن عياش (١١) - عن أبى بحرية - واسمه عبد الله بن قيس التراغمى - عن أبى الدرداء ، به (١٢) . قال الترمذى : ورواه بعضهم عنه فأرسله .

(١) فى ١ : « تخرق » . (٢) فى ١ : « النيرجيات » . (٣) زيادة من ١ . (٤) فى ١ : « ما » . (٥) فى ١ : « الصدقة » . (٦) زيادة من ١ . (٧) فى ١ : « وصنوف » . (٨) فى ١ : « سعد » . (٩) فى ١ : « عباس » . (١٠) فى ١ : « عن أبى عرة » . (١١) فى ١ : « عباس » . (١٢) المسند (١٩٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٩٠) .

قلت : وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ في مسند [الإمام] (١) أحمد ، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عيَّاش : أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ ، بنحوه ، قاله أعلم .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن أبي سعد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه : « اللهم ، اجعلني أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأكثر ذكرك ، وأحفظ وصيتك » (٣) .

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى ، عن وكيع ، عن أبي فضالة الفرّج بن فضالة ، عن أبي سعيد الحمصي ، عن أبي هريرة ، فذكر مثله وقال : غريب (٤) .

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي سعيد المدني (٥) عن أبي هريرة فذكره (٦) .

وقال (٧) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أيّ الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا (٨) ، فمرني بأمر أتثبت به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله » (٩) .

وروى الترمذي وابن ماجه [منه] (١٠) الفصل الثاني ، من حديث معاوية بن صالح ، به (١١) . وقال الترمذي : حسن غريب .

وقال (١٢) الإمام أحمد : حدثنا سريج (١٣) ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث قال : إن دراجاً أبا السّمح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون » (١٤) .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم العمي ، حدثنا سعيد بن سفيان (١٥) الجحدري ، حدثنا الحسن بن أبي جعفر ، عن عقبة بن أبي ثبيت (١٦) الراسي ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] » (١٧) يقول

(١) زيادة من أ . (٢) في ت : « وروى » .

(٣) المسند (٤٧٧/٢) .

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٦٠٤) .

(٥) في أ : « المزني » .

(٦) المسند (٣١١/٢) .

(٧) في ت : « وروى » . (٨) في ت : « على » .

(٩) المسند (١٩٠/٤) .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) سنن الترمذي برقم (٣٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٩٣) .

(١٢) في ت : « وروى » . (١٣) في أ : « شريح » .

(١٤) المسند (٦٨/٣) وفيه دراج ، عن أبي الهيثم ضعيف .

(١٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمعجم .

(١٦) في أ : « سبب » . (١٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمعجم .

المنافقون: تراؤون « (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي ، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض [على عباده] (٤) فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ، ثم] (٥) عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، [في البر والبحر] (٦) ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ، وقال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار (٧) من ذلك .

وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما (٨) ، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي ، رحمه الله تعالى (٩) .

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٦٩/١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧٦/١٠) : « فيه الحسين بن أبي جعفر الجعفرى وهو ضعيف » .

(٢) فى أ : « زاده » .

(٣) المسند (٢٢٤/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨٠/١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) (٦ - زيادة من ت ، ف ، أ .

(٥) فى أ : « الإكثار » . (٨) فى ت : « والمعمري والكلم الطيب لشيخ الإسلام وغيرهم » .

(٩) وقد طبع كتاب الأذكار بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى دار الهدى وعليه تخريج لابن علان اسمه : « الفتوحات الربانية » طبع فى الهند .

هذا وقد جاء فى نسخة « ت » بعد هذه الفقرة ما يلى :

« فذكر الله أصل موالاة الله ، عز وجل ، ورأسها . والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيؤاياه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويبغضه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ وما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله ، فالذكر جلاب النعم دفاع النقم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وفى القراءة الأخرى : ﴿ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر الله ، فمن كان أكمل إيمانا وأكثر ذكرا كان دفاع الله عنه ، ودفعه أعظم . ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والذكر رأس الشكر ، والشكر جلاب النعم ، موجب للمزيد . قال بعض السلف : ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك . ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن أبى الدنيا من حديث جابر ، عن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » ، ثم قال : « اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزله عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » . فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا لهم إلى حاجتكم ، فتحنف بأجنتها إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال : وهل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربنا ما رأوك ، فيقول : كيف لو أنهم رأونى ؟ قال : فيقولون : لو أنهم رأوك

= كانوا أشد عبادة وأشد تمجيدا وتمجيذاً ، وأكثر تسييحاً ، فيقول : ما يسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، فيقول : مم يتعذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، فيقول : فاشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلم نصيب من قوله : « **وَجعلني مباركاً أينما كنت** » [مريم : ٣١] ، وإن الله ، عز وجل ، ليباهى بالذاكرين الملائكة ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أسألكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومن علينا بك . قال : « **ألكم ما أجلسكم إلا ذلك ؟** » قالوا : ألكم ما أجلسنا إلا ذلك ؟ قال : « **أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أنانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة** » فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى ، دليل على شرف الذكر عنده ومحبة له وأن له مزية على غيره من الأعمال .

والذكر نوعان : أحدهما : ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه ، وتزييه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الحديث نحو : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ونحو ذلك ، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو : سبحان الله عدد خلقه ، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله ، وقول : الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما خلق بينهما ، وعدد ما هو خالق ، أفضل من مجرد قولك : الحمد لله ، وهذا فى حديث جويرية أن النبى ﷺ قال لها : « **لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم ، لوزنتهن** : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » . رواه مسلم . وفى الترمذى وسنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : « **أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل ؟** » فقال : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » .

والنوع الثانى : الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك : إن الله ، عز وجل ، يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا يخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفائد الواجد ونحو ذلك . وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثبت به على نفسه ، وبما أثبت عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال : « **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** » ، وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء ، ومجد .

فالحمد : الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه ، ولا يكون المحب الساكت حامداً ، ولا المثنى بلا محبة حامداً ، حتى يجمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامد شيئاً بعد شيء ، كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً . قد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول سورة فاتحة الكتاب ، فإذا قال العبد : « **الحمد لله رب العالمين** » قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : « **الرحمن الرحيم** » ، قال : أثنى على عبدى . وإذا قال : « **مالك يوم الدين** » قال : مجدنى عبدى . والنوع الثانى من الذكر : ذكر أمره ونهيه وأحكامه ، وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ، والثانى : ذكره عند أمره فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شيء ، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر ، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فائدة : فهذا ذكره هو الفقه الأكبر ، وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية ، ومن ذكره تعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده ، وهذا من أجل أنواع الذكر ، فهذه خمسة أنواع ، وهى تكون بالقلب واللسان ، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان ؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويصح المحبة ، ويشير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويردع عن التقصير فى الطاعة والتهاون فى المعاصى والسيئات ، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من تلك الأثمار ، وإن أثمر شيئاً ما ، فثمرته ضعيفة .

والذكر أفضل من الدعاء ؛ لأن الذكر ثناء على الله ، عز وجل ، بجميع صفاته وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟ ولهذا جاء فى الحديث : « **من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** » . ولهذا كان مستحباً فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله والثناء عليه بين يدي حاجته ، ثم يسأل حاجته كما جاء فى حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ =

= سمع رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عجل هذا»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم، فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء». رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وهكذا دعا ذو النون الذي قال فيه النبي ﷺ: «دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، وفي الترمذي: «دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». وهكذا عامة الأدعية النبوية، ومنه قول النبي ﷺ في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم». ومنه حديث بريدة الأسلمي، رواه أهل السنن أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى». وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا: اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس، فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله والثناء عليه أنجح ما سأل به حوائجه، فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجاباً فلهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا﴾ فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل. فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض، بل صرح، بشدة حاله وضرورته وفقره ومسكته، فهذا المقتضى منه وأوصاف المسؤول مقتضى منه، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول فى الدعاء، فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية، وأنت ترى فى الشاهد ولله المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره، وذكر حاجته هو وفقره ومسكته، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلى قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطى كذا وكذا، فإذا عيرف هذا فتأمل قول موسى، عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وقول ذى النون فى دعائه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقول أئبنا آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه؛ قال يا رسول الله، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى فقال: «قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم» فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلى ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية.

وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهى أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجزئاً، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتمسيح فى الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن، وكذلك التشهد، وكذلك رب اغفر لى بين السجدين، وقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى بين السجدين أفضل من القراءة. وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة، ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة. وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول، أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله على خلقه، لكن لكل مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره، واختلت الحكمة، وفقدت المصلحة المطلوبة منه، وهكذا الأذكار المفيدة بحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله أن يحدث له من التفكير فى ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه، وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل على الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجراً، وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نص وفرقان بين فضيلة الشيء فى نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطى كل ذى حق حقه ويضع كل شيء موضعه، فللعين موضع، وللرجل موضع، وللنفس موضع، وللجسم موضع، وللحجم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى، والله الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب فى وقت، والتحميم وماء الوارد أنفع له فى وقت. وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً فالخبور وماء الوارد نافع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الجارى أنفع له فقال: كيف والياب لا تزال دنسة؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص. ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر=

وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهيج إلى الذكر، أى: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (١).

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخارى عن أبى العالية. ورواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة [ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾] (٢).

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار (٣)، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ - ٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: بسبب رحمته بكم وثناؤه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياهم (٤) من الطغام (٥). وأما رحمته بهم فى الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابنى، ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت

= والدعاء، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جداً للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيرنح عليه إبليس الفضل الذى بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتقوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثواباً وأعظم أجراً « ١ . هـ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .

(٢) زيادة من ت . (٣) فى ت : « والاستغفار إليهم » . (٤) فى ت ، أ : « وأتباعهم » .

(٥) فى أ : « الطغام » .

هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فَخَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال : « ولا الله (١) ، لا يلقى حبيبه فى النار » .

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجـه أحد من أصحاب الكتب الستة (٢) ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيها لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى (٤) بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير .

قلت : وقد يستدل بقوله (٥) تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٦) يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمسكن ، والمتاح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥) ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) .

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيْحُ بن سليمان ، عن هلال بن على (٧) ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ (٨) ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر (٩) ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

(١) فى أ : « لا والله » .

(٢) المسند (٣/ ١٠٤) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) .

(٤) فى ت : « يحيون » . (٥) فى ت ، ف ، أ : « وقد يستدل له بقوله » . (٦) فى ت : « عظيما » وهو خطأ

(٧) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٨) فى ت : « لا بفظ » ، وفى أ : « لا فظ » .

(٩) فى ف : « يعفو ويصفح ويغفر » .

وقد رواه البخارى فى « البيوع » عن محمد بن سنان ، عن فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على به . ورواه فى التفسير عن عبد الله - قيل : ابن رجاء ، وقيل : ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو ، به ^(١) . ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن رجاء ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، به .

وقال البخارى فى البيوع : وقال سعيد ، عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد الله بن سلام .

وقال وهب بن منبه : إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل - يقال له : شعيب - : أن قم فى قومك بنى إسرائيل ، فإننى منطلق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه [مبشراً] ^(٢) ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه ، من سكنته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كُمها ^(٣) ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الحُمالة ، وأعرف به بعد النُّكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فثما من الناس عظيمة ^(٤) من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ^(٥) : ألهمهم التسييح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثاهم ، يصلون لى قياما وقعودا ، ويقاثلون فى سبيل الله ^(٦) صفوفا وزُحُوفاً ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوا ، يطهرون الوجوه والأطراف ، ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، أعز من نصرهم ، وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم . أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقىمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيته من أشياء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن وهب بن منبه اليماني ، رحمه الله .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

(١) المسند (١٧٤/٢) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨) .

(٢) زيادة من ت ، ف .

(٣) فى ت : « أعينا عميا كُمها » .

(٤) فى ت : « عظيم » .

(٦) فى أ : « فى سبيلي » .

(٥) فى ت : « الرسل » .

ابن عبيد الله العرزمي^(١)، عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس^(٢) قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ - وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن - فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل على: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾».

ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن [بن محمد]^(٣) بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله^(٤). وقال في آخره: «فإنه قد أنزل^(٥) على: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن».

وقوله: ﴿شَاهِدًا﴾ أى: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. كقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أى: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها، لا يمحدها إلا معاند.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أى: لا تطعهم ولا [لا]^(٧) تسمع منهم فى الذى يقولونه^(٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، أى: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام^(٩) كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها، وقد اختلفوا فى النكاح: هل هو حقيقة فى العقد وحده، أو فى الوطاء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

(١) فى أ: «عبد الله القرشى».

(٢) فى ت: «ثم روى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».

(٤) المعجم الكبير (٣١٢/١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧): «وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي وهو ضعيف».

(٥) فى ت: أ: «أنزلت».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) زيادة من ت.

(٨) فى ت: «الذين يتولونهم».

(٩) فى ت: «اشتملت على أحكام».

(١٠) فى ت: «نكحتموا».

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلى بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ^(١) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»؛ فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس - يعني: ابن أبي إسحاق - سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: [إذا قال] (٢): «كل امرأة أتزوجها فهي طالق»، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يثاق (٣)، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق [قبل النكاح] (٤).

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه (٥). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شيء روى في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح» (٦). [وفي الآية دليل على أن الميسس مطلق، ويراد به الوطاء] (٧).

(٢) زيادة من ت.

(١) في ت: «نكحتموا».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٣) في ت: «وروى أيضا بإسناده».

(٥) المسند (١٨٩/٢) وسنن الترمذي برقم (١١٨١) وسنن أبي داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٧).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٨) من طريق علي بن الحسين، عن هشام بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن المسور، به. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٢/٢): «هذا إسناده حسن، علي بن الحسين وهشام بن سعد مختلف فيهما». وبرقم (٢٠٤٩) من طريق جوير، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن علي، به. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٢/٢): «هذا إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف جوير بن سعيد البجلي، لكن لم ينفرد به جوير، فقد رواه البيهقي في الكبرى (٣٢٠/٧) من طريق معاذ الغنيري، عن حميد الطويل، عن الحسن بن علي، به، ثم رواه من طريق سعيد بن جوير به موقوفاً من الطريقين معاً».

(٧) زيادة من ت.

وقوله (١): ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من (٢) شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

وقوله: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفى صحيح البخارى، عن سهل بن سعد وأبى أسيد؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت (٣) عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (٤).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عُمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخاطباً نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن، وهى الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لنسائه اثنتى (٥) عشرة أوقية ونشاً وهو نصف (٦) أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى، رحمه الله، أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حبي فإنها اصطفاها من سبى خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أدى عنها كتابتها إلى ثابت ابن قيس بن شماس وتزوجها، رضى الله عن جميعهن (٧).

(١) فى هـ: «وقال». (٢) فى ت: «فى فورها متى»، وفى أ: «فى قرنها من».

(٣) فى ت: «فلما دخلت» وفى ف، أ: «فلما أن دخلت».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٥٦، ٥٢٥٧).

(٥) فى ت: «ثنتى». (٦) فى ت: «والنش النصف».

(٧) فى ت: «رضى الله عنهن أجمعين».

وقوله : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى : وأباح لك الترسى مما أخذت من المغنم^(١) ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانتا من السرارى ، رضى الله عنهما .

وقوله : ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم^(٢) ما قرطت^(٣) فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع^(٤) فظيع .

وإنما قال : ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة .
وقوله : ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن عمار بن^(٥) الحارث الرازى ، حدثنا عبيد الله^(٦) بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى صالح^(٧) ، عن أم هانئ قالت : خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذرى ، ثم أنزل الله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ﴾ إلى قوله : ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء .

ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن عبيد الله بن موسى ، به^(٨) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح ، عنها بنحوه .

ورواه الترمذى فى جامعه^(٩) . وهكذا قال أبو رزین وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أى : أسلمن . وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود : «وَاللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ» .

وقوله : ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أى : ويحل لك - يأيها النبى - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿وَلَا يَفْعَلْكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

(١) فى أ : الغنائم . (٢) فى أ : « وحرم » . (٣) فى ت : « ما حرموا » .

(٤) فى ف ، أ : « شنيع » . (٥) فى أ : « و » . (٦) فى أ : « عبد الله » .

(٧) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٨) تفسير الطبرى (١٥/٢٢) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى » .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ ، وقد قال الإمام أحمد (١) :

حدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي ؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إني قد وهبت نفسي لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تُصدقها إياه ؟ » فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا » . فقال : لا أجد شيئا . فقال : « التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبي ﷺ : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » .
أخرجاه من حديث مالك (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان (٣) ، حدثنا مرحوم ، سمعت ثابتا يقول (٤) : كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له ، فقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها . فقال : « هي خير منك ، رغبت في النبي ، فعرضت عليه نفسها » .
انفرد بإخراجه البخارى ، من حديث مرحوم بن عبد العزيز [العتار] (٥) ، عن ثابت البناني ، عن أنس ، به (٦) .

وقال (٧) أحمد أيضا : حدثنا عبد الله بن بكر ، حدثنا سنان بن ربيعة ، عن الحضرمي ، عن أنس ابن مالك : أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ابنة لى كذا وكذا . فذكرت من حسناتها وجمالها ، فأثرتك بها . فقال : « قد قبلتها » . فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئا قط ، فقال : « لا حاجة لى فى ابتك » . لم يخرجوه (٨) .

وقال (٩) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا ابن أبى الوضاح - يعنى : محمد بن مسلم - عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : التى وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم (١٠) .

وقال ابن وهب ، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبى الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه : أن خولة بنت حكيم بن الأوقص ، من بنى سليم ، كانت من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ (١١) .
وفى رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ، عن هشام ، عن أبيه : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم

(١) فى ت : « وقد روى البخارى ومسلم » .

(٢) المسند (٣٣٦/٥) وصحيح البخارى برقم (٥١٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٥) ولكنه عند مسلم من طريق يعقوب وعبد العزيز بن أبى حازم وسفيان بن عيينة والدراوردى وزائدة كلهم عن أبى حازم بنحوه .

(٣) فى أ : « عثمان » . (٤) فى ت : « وروى البخارى أن ثابتا قال » . (٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٢٦٨/٣) وصحيح البخارى برقم (٥١٢٠) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) المسند (١٥٥/٣) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٥٥/٧) من طريق منصور بن أبى مزاحم ، به .

(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٢) .

كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ، وكانت امرأة صالحة (١) .

فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم ، أو هي امرأة أخرى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ، ست من قريش ، خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتان من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين - امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء - وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون ، وهي التي استعازت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية (٢) .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث .

فيه انقطاع : هذا مرسل ، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته ، فالله أعلم .

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير ، كما قال (٣) البخاري ، حدثنا زكريا ابن يحيى ، حدثنا أبو أسامة قال : هشام بن عروة حدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول : أتهب امرأة (٤) نفسها ؟ فلما أنزل الله : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك (٥) .

وقد قال (٦) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن منصور الجعفي ، حدثنا يونس ابن بكير ، عن عنبسة بن الأزهر ، عن سمالك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

ورواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن يونس بن بكير (٧) . أى : إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكِحَّهَا ﴾ أى : إن اختار ذلك .

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/٢٣) .

(٢) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ : « تزوج رسول الله ﷺ امرأة من بني الجون فطلقها وهي التي استعازت منه » .

(٣) في ت : « كما روى » . (٤) في ت ، ١ : « المرأة » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٧٨٨) .

(٦) في ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبري (٢٢/١٧) .

وقوله: ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة: أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

أى : إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله ﷺ فى بَرُوع^(١) بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها ، والموت والدخول سواء فى تقرير^(٢) المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبی ﷺ ، فأما هو ، عليه السلام ، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش ، رضى الله عنها . ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبی ﷺ .

[وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾]^(٣) : قال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وابن جرير فى قوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى : من حَصَرِهِمْ فى أربع نسوة حرائر وما شأوا^(٤) من الإماء ، واشترط الولى والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ؛ ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾^(٥١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بشر^(٥) ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه^(٦) ، عن عائشة ، رضى الله عنها ؛ أنها كانت تُعَيَّرُ^(٧) النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك^(٨) .

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة ، عن هشام بن عروة ، فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ أى : تؤخر ﴿ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى : من الواهبات [أنفسهن]^(٩) ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن

(١) فى أ : « تزويج » . (٢) فى ت : « تقدير » .

(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى ت : « وما يشاء » . (٥) فى أ : « بشير » .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٧) فى ف : « تغير من النساء » وفى أ : « تغير النساء » .

(٨) المسند (٦/١٥٨) .

(٩) زيادة من ت .

شئت عُدَّتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ . قَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ : كُنْ نِسَاءً وَهَبْنِ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ بَعْضُهُنَّ وَأَرْجَأَ بَعْضُهُنَّ لَمْ يُنْكَحْنَ بَعْدَهُ ، مِنْهُنَّ أُمُّ شَرِيكٍ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أَيْ : مَنْ أَزْوَاجِكَ ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكَ الْقِسْمَ لَهُنَّ ، فَتَقْدَمَ مِنْ شَيْءٍ ، وَتُؤَخَّرَ مِنْ شَيْءٍ ، وَتَجْمَعَ مِنْ شَيْءٍ ، وَتَتْرَكَ مِنْ شَيْءٍ .

هَكَذَا يَرَوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَالْحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ ، وَأَبِي رَزِينٍ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنَ أَسْلَمَ ، وَغَيْرِهِمْ ، وَمَعَ هَذَا كَانَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، يَقْسِمُ لَهُنَّ ؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقِسْمُ وَاجِباً عَلَيْهِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَاحْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

وَقَالَ (١) الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا حَبَّانُ بْنُ مُوسَى ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ — هُوَ ابْنُ الْمُبَارَكِ — أَخْبَرَنَا عَاصِمُ الْأَحْوَلِ ، عَنْ مُعَاذَةَ (٢) عَنْ عَائِشَةَ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا كُنْتَ تَقُولِينَ ؟ فَقَالَتْ : كُنْتُ أَقُولُ : إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُؤْثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا (٣) .

فَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ (٤) ذَلِكَ عَدَمُ وَجُوبِ الْقِسْمِ ، وَحَدِيثُهَا الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ ، وَمِنْ هَاهُنَا اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النِّسَاءِ اللَّاتِي عَنْدهُ ، أَنَّهُ مَخِيرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قِسْمٌ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسَمْ . وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأُ عَيْنَهُنَّ وَلَا يَعْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أَيْ : إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ (٥) الْحَرَجَ فِي الْقِسْمِ ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسَمْ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيْ ذَلِكَ فَعَلْتَ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا أَنْتَ تَقْسِمُ لَهُنَّ اخْتِيَاراً مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ ، فَرَحْنُ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْنَا بِهِ وَحَمَلْنَا جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ ، وَاعْتَرَفْنَا بِمَنْتِكَ (٦) عَلَيْهِنَّ فِي قِسْمِكَ لَهُنَّ وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمِيلِ إِلَى بَعْضُهُنَّ دُونَ بَعْضٍ ، مِمَّا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ ، كَمَا قَالَ (٧) الْإِمَامُ أَحْمَدُ :

حَدَّثَنَا يَزِيدٌ ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ أَيُّوبَ ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ ، ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ هَذَا فَعَلَى فِيمَا أَمْلَكَ ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلَكَ » .

(١) فِي ت : « وَرَوَى » .

(٢) فِي أ : « مُعَاذٌ » .

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (٤٧٨٩) .

(٤) فِي أ : « فِي » .

(٥) فِي أ : « عَلَيْكَ » .

(٦) فِي أ : « بِأَمَانَتِكَ » .

(٧) فِي ت : « كَمَا رَوَى » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث حماد بن سلمة (١) - وزاد أبو داود بعد قوله : فلا تلمني (٢) فيما تملك ولا أملك : يعنى القلب . وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أى : بضمائر السرائر ، ﴿ حَلِيمًا ﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢ ﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن ، على حسن صنعتهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن [الله] (٣) قَصَرَهُ عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإمام والسراى فلا حرج عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر (٤) فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج (٥) ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوُّجٌ لتكون المنة للرسول (٦) ﷺ عليهن .

قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء (٨) .

ورواه أيضاً من حديث ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير (٩) ، عن عائشة . ورواه الترمذى والنسائى فى سننهما (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة ، حدثنى عمر بن أبى بكر ، حدثنى المغيرة بن عبد الرحمن الحزامى (١٢) ، عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله (١٣) ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَةَ ، عن أم سلمة أنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قول الله ، عز وجل : ﴿ تَرَجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ .

فجعلت هذه ناسخة للتى بعدها فى التلاوة ، كآيتى عدة الوفاة فى البقرة ، الأولى ناسخة للتى بعدها ، والله (١٤) أعلم .

(١) المسند (١٤٤/٦) وسنن أبى داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذى برقم (١١٤٠) وسنن النسائى (٦٣/٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٧١) .

(٢) فى أ : « فلا تلمنى » . (٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى ت : « الحرج » .

(٥) فى أ : « التزويج » . (٦) فى ف : « لرسول الله » . (٧) فى ت : « روى » .

(٨) المسند (٤١/٦) .

(٩) فى أ : « عن عمير بن عبيد » .

(١٠) المسند (١٨٠/٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٦) وسنن النسائى (٥٦/٦) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى أ : « الحزامى » . (١٣) فى أ : « عبد الله » .

(١٤) فى ت : « فالله » .

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات (١) والخال والخالات (٢) والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مروى عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك - فى رواية - وأبى رزین - فى رواية عنه - وأبى صالح، والحسن، وقتادة - فى رواية - والسدى، وغيرهم .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَیَّةَ ، عن داود بن أبى هند ، حدثنى محمد بن أبى موسى ، عن زياد - رجل من الأنصار (٣) - قال : قلت لأبى بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبى ﷺ تُوفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قوله : ﴿لَا تَحِلُّ (٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ . فقال : إنما أحل الله له ضرباً من النساء ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له : ﴿لَا تَحِلُّ (٥) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ .

ورواه عبد الله بن أحمد من طرق ، عن داود ، به (٦) . وروى الترمذى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله : ﴿لَا تَحِلُّ (٧) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بَهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (٨)﴾ إلى قوله : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء (٩) .

وقال مجاهد : ﴿لَا تَحِلُّ (١٠) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى : من بعد ما سمي لك ، لا (١١) مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة .

وقال أبو صالح : ﴿لَا تَحِلُّ (١٢) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ : أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة (١٣) ، ويتزوج بعد من نساء تهامة ، وما شاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثمائة .

وقال عكرمة : ﴿لَا تَحِلُّ (١٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى : التى سمي الله .

(١) فى ت : « وبنات العمات » .

(٢) فى أ : « الخالة » .

(٣) فى ت : « فروى ابن جرير بإسناده عن رجل من الأنصار » .

(٤) ، ٥ ، فى ت ، أ : « لا يحل » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٢/٢١) وزوائد المسند (٥/١٣٢) .

(٧) فى أ : « لا يحل » .

(٨) بعدها فى أ : « مما أفاء الله عليك » .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٥) وقال : « هذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث عبد الحميد بن بهرام ، قال : سمعت أحمد بن الحسن يقول : قال أحمد بن حنبل : لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب » .

(١٠) فى أ : « لا يحل » .

(١١) فى أ : « من » .

(١٢) فى أ : « لا يحل » .

(١٣) فى أ : « عربية » .

(١٤) فى أ : « لا يحل » .

واختار ابن جرير ، رحمه الله ، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً . وهذا الذي قاله جيد ، ولعله مراد كثير من حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله : ﴿ لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك ؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال ، والله أعلم .

فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة ، رضى الله عنها ، وهى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [وَالصُّلْحُ خَيْرٌ] (١) الآية [النساء : ١٢٨] (٢) .

وأما قضية (٣) حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن صالح بن صالح بن حى (٤) عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها . وهذا إسناد (٥) قوى (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح (٧) ، عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً . ورجاله على شرط الصحيحين (٨) .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه (٩) .

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن نصر ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن إسحاق بن عبد الله (١٠) القرشى ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار (١١) ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ،

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٢٨ من سورة النساء .

(٣) فى ت : « قصة » . (٤) فى أ : « يحيى » . (٥) فى ت : « إسناده » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٨٣) وسنن النسائى (٢١٣/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠١٦) .

(٧) فى ت : « وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بسنده » .

(٨) مسند أبى يعلى (١/ ١٦٠) .

(٩) فى أ : « يمينك » . (١٠) فى أ : « عبيد الله » .

(١١) فى ت : « وروى البزار بإسناده » .

قال : كان البدلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتى . أي: تنزل لى عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتى . فأنزل الله: ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال: فدخل عينة بن حصن (١) على النبي ﷺ ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله ﷺ : « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من مُضَرٍ منذ أدركت . ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذه عائشة أم المؤمنين » . قال : أفلا أنزل لك على أحسن الخلق (٢) ؟ قال : « يا عينة إن الله قد حرم ذلك » . فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : هذا أحرق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه .

ثم قال البزار إسحاق (٣) بن عبد الله : لين الحديث جداً ، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه ، وبيننا العلة فيه (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهى مما وافق تنزيلها قول (٥) عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي فى ثلاث ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم صلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهم ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ ﴾ [التحریم : ٥] ، فنزلت كذلك (٦) .

وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهى قضية رابعة .

وقد قال (٧) البخارى : حدثنا مُسَدَّدٌ ، عن يحيى ، عن حميد ، عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن

(١) فى أ : « عينة الفزاري » .

(٢) فى ت : « قال انزل لى عنها وأنا أنزل لك عن أحسن الخلق » ، وفى أ : « قال أنزل لك عن أحسن الخلق » .

(٣) فى ت : « ثم قال البزار : فى إسناده إسحاق » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٥١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧) : « وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٥) فى ت : « لقول » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٢) .

(٧) فى ت : « وروى » .

الخطاب : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب (١) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذى القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما . وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث ، فالله أعلم .

قال (٢) البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشى ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبى ، حدثنا أبو مجلز ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو [كأنه] (٣) يتهاى (٤) للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام [قام] (٥) من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فالتقى [الحجاب] (٦) بينى وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية .

وقد رواه أيضاً في موضع آخر ، ومسلم والنسائى ، من طرق ، عن معتمر بن سليمان ، به (٧) . ثم رواه البخارى منفرداً به من حديث أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، [بنحوه] (٨) . ثم قال (٩) : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ابن مالك [(١٠) قال : بنى [على] (١١) النبى ﷺ بزینب بنت جحش بخبز ولحم ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقلت : يا نبى الله ، ما أجد أحداً أدعوه . قال : « ارفعوا طعامكم » ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت ، فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » . قالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلک ، بارک الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن ، يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع رسول الله ﷺ (١٢) فإذا رهط ثلاثة [فى البيت] (١٣) يتحدثون . وكان النبى ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة ، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا ؟ فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله ، وأخرى خارجه ، أرخى الستر بينى وبينه ، وأنزلت آية الحجاب .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩) .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى . (٤) فى ت : « تهاى » . (٥) (٦ ، ٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٢) .

(٩) فى ت : « قال البخارى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى ، وفى أ : « بنى الله على النبى » .

(١٢) فى ت : « النبى » .

(١٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

انفرد به البخارى من بين أصحاب الكتب [الستة] (١) ، سوى النسائى فى اليوم واللييلة ، من حديث عبد الوارث (٢) .

ثم رواه عن إسحاق - هو ابن منصور - عن عبد الله بن بكر (٣) السهمى ، عن حميد ، عن أنس ، بنحو ذلك (٤) ، وقال : « رجالان » انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم فى أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس .

وقال ابن أبى حاتم (٥) : حدثنا أبى ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد - أبى عثمان اليشكرى - عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيساً ثم وضعت (٦) فى تور ، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، وأقرئه منى السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل - قال أنس : والناس يومئذ فى جهد - فجئت به فقلت : يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سليم إليك ، وهى تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال : « ضعه » فوضعت فى ناحية البيت ، ثم قال : « اذهب فادع لى فلاناً وفلاناً » . وسمى رجلاً كثيراً ، وقال : « ومن لقيت من [المسلمين] . فدعوت من قال لى ، ومن لقيت من [(٧) المسلمين] ، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاءى من الناس - فقلت : يا أبا عثمان ، كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة - قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ : « جئ به » . فجئت به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : « ما شاء الله » . ثم قال : « ليتحلقت عشرة عشرة » ، وليسما (٨) ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لى رسول الله ﷺ : « ارفعه » . قال : فجئت فأخذت التور فما أدرى أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله ، وزوج رسول الله ﷺ التى دخل بها معهم مؤلّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس حياء - ولو أعلموا (٩) كان ذلك عليهم عزيزاً - فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حجره وعلى نسائه ، فلما رآوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ، ودخل البيت وأنا فى الحجرة ، فمكث رسول الله ﷺ فى بيته يسيراً ، وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . قال أنس : فقرأهن على قبل الناس ، فأنا أحدث الناس بهن عهداً .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٠١) .

(٣) فى أ : « بكير » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٤) .

(٥) فى ت : « روى مسلم والنسائى » .

(٦) فى ت ، ف : « جعلت » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « ويسما » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ت ، ف ، أ : « علموا » .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً ، عن قتيبة ، عن جعفر بن سليمان ، به (١) . وقال الترمذى : حسن صحيح وعَلَّقَهُ البخارى فى كتاب النكاح فقال :

وقال إبراهيم بن طهمان ، عن الجعد أبى عثمان ، عن أنس ، فذكر نحوه (٢) .

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن الجعد ، به (٣) . وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن بيان بن بشر ، عن أنس ، بنحوه .

وروى (٤) البخارى والترمذى ، من طريقين آخرين ، عن بيان بن بشر الأحمسى الكوفى ، عن أنس ، بنحوه (٥) .

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً ، من حديث أبى نضرة العبدى ، عن أنس بن مالك ، بنحوه (٦) . ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ، ومن حديث الزهرى ، عن أنس ، بنحو ذلك (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا : حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ : « اذهب فاذكرها على » . قال : فانطلق زيد حتى أتاها ، قال : وهى تُحْمَرُ عَجِينَهَا ، فلما رأيتها عظمُت فى صدرى . . . وذكر تمام الحديث ، كما قدمناه عند قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ ، وزاد فى آخره بعد قوله : وَوَعَظَ الْقَوْمَ بِمَا وَعَظُوا به . قال هاشم فى حديثه : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وقد أخرجه مسلم والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة (٨) ، به (٩) .

وقال (١٠) ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخى ابن وهب - حدثنى عمى عبد الله ابن وهب ، حدثنى يونس عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : إن أزواج رسول الله ﷺ كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك . فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة . حرصاً أن (١١) ينزل الحجاب ، قالت (١٢) : فأنزل الله الحجاب (١٣) .

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٨) وسنن النسائى (١٣٦/٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥١٦٣) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) .

(٤) فى أ : « ورواه » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٩) .

(٦) فى أ : « بنحوه ولم يخرجوه » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٧/٢٢) .

(٨) فى هـ ، أ : « جعفر بن سليمان » ، والتصويب من ت ، ف ، ومسلم .

(٩) المسند (٣/١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٧٩/٦) .

(١٠) فى ت : « وروى » . (١١) فى ف ، أ : « حرصاً أن » .

(١٢) فى ت : « قال » .

(١٣) تفسير الطبرى (٢٨/٢٢) .

هكذا وقع في هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرأها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ؟ قالت : فانكفأت راجعة ، ورسول الله ﷺ في بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفي يده عرق ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لى عمر كذا وكذا . قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق فى يده ، ما وضعه . فقال : « إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك » . لفظ البخارى (١) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ : حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » (٢) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى (٣) إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفن ، وقد صنف الخطيب البغدادي فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عرساً كان أو غيره » (٤) . وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضاً ، عن رسول الله ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » (٥) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال [الله] (٦) تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ (٧) .

وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه (٨) كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه .

(١) المسند (٥٦/٦) وصحيح البخارى برقم (٤٧٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٠) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٣٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الطعام إذا طبخ حتى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٢٩) .

(٥) فى صحيح البخارى برقم (٢٥٦٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) زيادة من ف . (٧) بعدها فى أ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾

(٨) فى أ : « إذن » .

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۖ أَى: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم (١) حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب .

وقال (٢) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن موسى ابن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي ﷺ (٣) حِسًا فِي قَعْبٍ، فمر عمر فدعاه، فأصابته إصبعة إصبعى، فقال: حَسٌّ (٤) - أو: أوه - لو أطاع فيكن ما رأيتك (٥) عين. فنزل الحجاب (٦).

﴿ذَلِكُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أَى: هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أظهر وأطيب .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾: قال (٧) ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت فى رَجُلٍ هَمَّ أَنْ يَتَزَوَّجَ بَعْضَ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ. قال رجل لسفيان: أهى عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك .

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدى أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه (٨) أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فىمن دخل بها ثم طلقها فى حياته (٩) هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه فى عموم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم فى حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعا، والله أعلم .

وقال (١٠) ابن جرير: حدثنى [محمد] (١١) بن المشنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت (١٢) الأشعث - يعنى: ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبى جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبى بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيَّرْها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التى ارتدت

(١) فى ت: « لأحدكم ». (٢) فى ت: « وروى ». (٣) فى ت: « رسول الله » .

(٤) فى هـ: « خير »، وفى ت، ف، أ: « حسن »، والمثبت من النهاية لابن الأثير ٣٨٥/١ .

(٥) فى ت، أ: « ما رأيتك » .

(٦) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤١٩) من طريق زكريا بن يحيى عن ابن أبى عمر، به .

(٧) فى ت: « روى ». (٨) فى ف، أ: « زوجاته ». (٩) فى ت: « حياتها » .

(١٠) فى ت: « وروى ». (١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: « قيلة ابنة » .

مع قومها . قال : فاطمأن أبو بكر ، رضى الله عنهما (١) ، وسكن (٢) .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكنه ضمائرکم وتنطوي عليه سرائرکم ، فإن الله (٣) يعلمه ؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ .

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله : ﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبى : بأنهما لم يذكرأ ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما .

قال ابن جرير : حدثني محمد بن المثني ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، حدثنا داود ، عن الشعبى وعكرمة في قوله : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قلت : ما شأن العم والخال لم يذكرأ ؟ قالا : هما (٥) ينتعنانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

وقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ : يعنى بذلك : عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات .

وقوله : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ : يعنى به : أرقاءهن من الذكور والإناث ، كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه (٦) .

قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإماء فقط . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى : واخشينه في الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

(١) في ت ، ف : « عنه » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩/٢٢) .

(٣) في ف : « فإنه » .

(٤) في ت ، ف : « لا يخفى » .

(٥) في أ : « لأنهما » .

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣١ من سورة النور .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦).

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) .

وقد رواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية كذلك . وروى مثله عن الربيع أيضاً . وروى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كما قاله سواء ، رواهما ابن أبى حاتم .

وقال أبو عيسى الترمذى : وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو الأودى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، قال الأعمش عن عطاء (٢) بن أبى رباح : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، سبقت رحمته غضبى .

والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث بن إسحاق ، عن جعفر - يعنى : ابن المغيرة - عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن بنى إسرائيل قالوا لموسى ، عليه السلام : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه : يا موسى ، سألك : «هل يصلى ربك ؟» فقل : نعم ، إنما أصلى أنا وملائكتى على أنبيائى ورسلى . فأنزل الله ، عز وجل ، على نبيه ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى (٤) ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] . وقال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (٥) . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . وفى الحديث : «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف» . وفى

(١) صحيح البخارى (٥٣٢/٨) «فتح» .

(٢) فى ت : «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عطاء» .

(٣) فى ت : «وقد روى» .

(٤) فى ت : «وقد أخبر الله تعالى» ، وفى ف : «وقد أخبر أنه سبحانه بأنه» .

(٥) فى ت : «المؤمنين» وهو خطأ .

الحديث الآخر: « اللهم ، صل على آل أبي أوفى ». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها - : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك (١) » (٢).

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

قال البخارى - عند تفسير هذه الآية (٣) - : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا أبى ، عن مسعر ، عن الحكم ، عن ابن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجرة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ فقال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، [كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد] (٤) كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة (٦) ، عن الحكم قال : سمعت ابن أبى ليلى قال : لقيني كعب بن عُجرة فقال : ألا أهدي لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام (٧) عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على [آل] إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم ، من طرق متعددة ، عن الحكم - وهو ابن عتبة (٩) - . زاد البخارى : وعبد الله بن عيسى ، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فذكره (١٠) .

وقال ابن أبى حاتم (١١) : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر ، عن يزيد بن أبى زياد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجرة قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا السلام (١٢) ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما

(١) فى ف ، أ : « وعلى آل زوجك » .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٩٥١) « موارد » من طريق الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر رضى الله عنه .

(٣) فى ت : « روى البخارى فى صحيحه » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧) .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٧) فى أ : « نسلم » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(١٠) المسند (٤/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٧٠) وبرقم (٦٣٥٧) وبرقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) وسنن أبى داود برقم (٩٧٦) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣) وسنن النسائى (٣/٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٤) .

(١١) فى أ : « وقال البخارى » .

(١٢) فى ت ، ف ، أ : « السلام عليك » .

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » . وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول :
وعلينا معهم .

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (١) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ،
كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

حديث آخر : قال (٢) البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، عن ابن (٣) الهاد ، عن
عبد الله بن خباب ، عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا
السلام (٤) ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على
آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . [وفى رواية] (٥) :
قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » .

حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا ابن أبي حازم والدراوردي ، عن يزيد - يعنى : ابن الهاد -
قال : « كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم » .
وأخرجه النسائى وابن ماجه ، من حديث ابن الهاد ، به (٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن : مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر ،
عن أبيه ، عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف
نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على [آل] (٨)
إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .
وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى ، من حديث مالك ، به (٩) .

حديث آخر : قال مسلم : حدثنا يحيى التميمى قال : قرأت على مالك ، عن نعيم بن عبد الله
المُجَمَّر ، أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى - قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أرى
النداء بالصلاة - أخبره عن أبي مسعود الأنصارى - قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد
ابن عباد ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك [يا رسول الله] (١٠) ، فكيف نصلى
عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا :
اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل
محمد ، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » .

وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى من حديث مالك ، به (١١) . وقال الترمذى : حسن

(١) سنن الترمذى برقم (٤٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح »

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « أبى » . (٤) فى أ : « هذا السلام عليك » .

(٥) زيادة من ت .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٨) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنند .

(٩) المسند (٤٢٤/٥) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٠٧) وسنن أبى داود برقم (٩٧٩) وسنن النسائى (٤٩/٣)
وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٥) .

(١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، ومسلم .

(١١) صحيح مسلم برقم (٤٠٥) وسنن أبى داود برقم (٩٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٠) وسنن النسائى (٤٥/٣) .

صحيح .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا : يا رسول الله ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد . . . » وذكره (١) .

ورواه الشافعى ، رحمه الله ، فى مسنده ، عن أبى هريرة ، بمثله (٢) . ومن هاهنا ذهب الشافعى ، رحمه الله ، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ، ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ، فيما نقله القاضى عياض . وقد تعسف القائل (٣) فى رده على الشافعى ، وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ، [وقال ما لم يحط به علما] (٤) ، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ومفسر (٥) بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم : ابن مسعود ، وأبو مسعود البدرى ، وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبى ، وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان . وإليه ذهب الشافعى ، لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين (٦) أصحابه أيضا ، وإليه ذهب [الإمام] (٧) أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى ، به . وبه قال إسحاق ابن راهويه ، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَاز المالكى ، رحمهم الله ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن (٨) حكاه البُندنجي ، وسُليم الرازى ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولاً عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث ، والله أعلم .

والغرض أن الشافعى ، رحمه الله ، لقوله (٩) بوجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة - سَلَفٌ وَخَلَفٌ (١٠) كما تقدم ، لله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً ، والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك : الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى - وصححه - والنسائي وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، من رواية حيوة بن شريح المصرى ، عن أبى هانىء حميد بن

(١) المسند (١١٩/٤) وسنن أبى داود برقم (٩٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرک (١/٦٦٨) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » .

(٢) مسند الشافعى برقم (٢٦٨) « بدائع المن » ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس ، عن نعيم بن عبد الله ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « تعسف هذا القائل » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « ومشعر » .

(٦) فى أ : « من » . (٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) فى ف : « فيما » وفى أ : « فيمن » .

(٩) فى أ : « يقول » . (١٠) فى أ : « سلفاً وخلفاً » .

هانيء ، عن عمرو بن مالك أبي على الجنبي (١) ، عن فضالة بن عبيد ، رضى الله عنه ، قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته ، لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عَجَل هذا » . ثم دعاه فقال له ولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله ، عز وجل ، والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ثم ليدع [بعد] (٢) بما شاء » (٣) .

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه ، من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » (٤) .

ولكن عبد المهيم هذا متروك . وقد رواه الطبراني من رواية أخيه « أبي بن عباس » ، ولكن في ذلك نظر (٥) ، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيم » ، والله أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل ، عن أبي داود الأعمى ، عن بُريدة قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

أبو داود الأعمى اسمه : نفيح بن الحارث ، متروك (٦) .

حديث آخر موقوف : رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس : حدثنا سلامة الكندي : أن عليا ، رضى الله عنه ، كان يعلم الناس هذا الدعاء : اللهم داحي المدحوات ، وبارئ المسموكات ، وجبّار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها . اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك ، ورأفة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك ، الخاتم لما سبق ، والفتاح لما أغلق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ جيشت الأباطيل ، كما حُمِّلَ فاضطلع بأمرك لطاعتك ، مستوفزا في مرضاتك ، غير نكل في قَدَم ، ولا واهن في عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى قبسا لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، [وأقام] (٧) موضحات الأعلام ، ومُنيرات الإسلام ونائرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبَعِيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم افسح له مَفْسَحَات في عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك . مهتآت له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمول . اللهم ، أعل على بناء البانين

(١) في أ : « الحسيني » .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٣) المسند (١٨/٦) وسنن أبي داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائي (٤٤/٣) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠) وقال البوصيري في الزوائد (١٦٧/١) : « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد المهيم » .

(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٢١/٦) .

(٦) المسند (٣٥٣/٥) .

(٧) زيادة من ت ، ف .

بنيانه^(١)، وأكرم مثواه لديك ونزله . وأتمم^(٢) له نوره ، واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة ، مرضى المقالة ، ذا منطق عدل ، وخُطّة فصل ، وحجة وبرهان عظيم^(٣) .

هذا مشهور من كلام على ، رضى الله عنه ، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث ، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ، إلا أن فى إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : سلامة^(٤) الكندى هذا ليس بمعروف ، ولم يدرك عليا^(٥) . كذا قال . وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ ، عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح بن قيس ، عن سلامة الكندى قال : كان على ، رضى الله عنه ، يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ فيقول : « اللهم ، داحى المدحوات » وذكره^(٦) .

حديث آخر موقوف : قال ابن ماجه : [حدثنا الحسين بن بيان^(٧)] ، حدثنا زياد بن عبد الله ، حدثنا المسعودى ، عن عون بن عبد الله ، عن أبى فاختة ، عن الأسود بن يزيد^(٨) ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعرض عليه . قال : فقالوا له : فعلمنا . قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُهُ به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد]^(٩) ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد^(١٠) .

وهذا موقوف ، وقد روى إسماعيل القاضى عن عبد الله بن عمرو - أو : عمر - على الشك من الراوى قريباً من هذا^(١١) .

حديث آخر : قال^(١٢) قال ابن جرير : حدثنا أبو كُريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا أبو

(١) فى أ : « اللهم علّ بناء الناس بناءه » .

(٢) فى أ : « وأتم » .

(٣) رواه أبو نعيم فى عوالى سعيد بن منصور برقم (١٨) فقال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور فذكره ، ورواه الحنائى فى الفوائد (١٠/١٦٢ ب) - كما فى حاشية العوالى - من طريق يزيد بن هارون ، به .

(٤) فى ف : « سلام » .

(٥) سلامة الكندى ذكره البخارى فى التاريخ الكبير (٤/١٩٥) وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٤/٣٠٠) وأشار ابن أبى حاتم إلى هذا الحديث وقال : « مرسل » .

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٦٥٣) « مجمع البحرين » لكن فيه : « حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور » فلعل الحافظ نقله هنا من مسند العشرة .

(٧) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه . (٨) فى ت : « وروى ابن ماجه بإسناده » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه .

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٩٠٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣١١) : « هذا إسناده رجاله ثقات إلا أن المسعودى واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن مسعود اختلط بآخره ، ولم يتميز حديثه الأول بالآخر ، فاستحق الترك . قاله ابن حبان » .

(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٦٢) .

(١٢) فى ت : « وروى » .

إسرائيل ، عن يونس بن خَبَّاب قال : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل . فقلنا - أو : قالوا - : يا رسول الله ، علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : « اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وارحم محمدًا وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، [وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد] (١) » (٢) .

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ ، كما هو قول الجمهور : ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ، ارحمني ومحمدًا ، ولا ترحم معنا أحدًا . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حجرت (٣) واسعا » .

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه ، قال : وأجازه أبو محمد بن أبي زيد .
حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبة ، عن عاصم بن عبيد الله (٤) قال : سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال : سمعت النبي (٥) ﷺ يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر » .
ورواه ابن ماجه ، من حديث شعبة ، به (٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ، ويونس - هو ابن محمد - قالوا : حدثنا ليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أبي الحويرث ، عن محمد ابن جبير بن مطعم ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود ، حتى خفت - أو : خشيت - أن يكون الله قد توفاه أو قبضه . قال : فجئت أنظر ، فرفع رأسه فقال : « ما لك يا عبد الرحمن ؟ » قال : فذكرت ذلك له فقال : « إن جبريل ، عليه السلام ، قال لي : ألا أبشرك ؟ إن الله ، عز وجل ، يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلّم عليك سلّمت عليه » (٨) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، من عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج (٩) رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخر ساجدا ، فأطال

(١) زيادة من ت ، أ ، والطبرى .

(٢) تفسير الطبرى (٣١/٢٢) .

(٣) فى أ : « تحجرت » .

(٤) فى أ : « عبد الله » . (٥) فى ف : « رسول الله » .

(٦) المسند (٤٤٥/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٧) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) المسند (١٩١/١) .

(٩) فى هـ : « قال » وفى ت ، ف ، أ : « قام » والمثبت من المسند .

السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها ، فدنوت منه ثم جلست ، فرفع رأسه فقال : « من هذا؟ » فقلت : عبد الرحمن . قال : « ما شأنك ؟ » قلت : يا رسول الله ، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] (١) الله ، عز وجل ، قبض نفسك فيها . فقال : « إن جبريل أتاني فبشرني أن الله ، عز وجل ، يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه - فسجدتُ لله ، عز وجل ، شكراً » (٢) .

حديث آخر : قال (٣) [الحافظ] (٤) أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بحير ابن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان ، [حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة] (٥) ، حدثنا يحيى بن أيوب ، حدثنا عبد الله (٦) بن عمر ، عن الحكم بن عتيبة (٧) ، عن إبراهيم النخعي ، عن الأسود بن يزيد ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ، ففزع عمر ، فأتاه بمِطْهَرَةٍ من خلفه ، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مَشْرَبَةٍ (٨) ، ففتحني عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه ، فقال : « أحسنت يا عمر حين وجدتنى ساجداً ففتحيت عني ، إن جبريل أتاني فقال : من صلى عليك من أمتك واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات (٩) ، ورفعه عشر درجات » .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه « المستخرج » (١٠) على الصحيحين (١١) . وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن القعنبى ، عن سلمة بن وردان ، عن أنس ، عن عمر بنحوه (١٢) . ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد ، عن أنس بن عياض ، عن سلمة بن وردان ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، عن عمر بن الخطاب ، بنحوه (١٣) .

حديث آخر : قال (١٤) أبو عيسى الترمذى : حدثنا بُنْدَارٌ ، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة ، حدثني موسى بن يعقوب الزمعي ، حدثني عبد الله بن كيسان ؛ أن عبد الله بن شداد أخبره ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

تفرد بروايته الترمذى ، رحمه الله ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (١٥) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني آت من ربي فقال لى : ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا

(١) زياد من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) المسند (١/١٩١) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) زيادة من المعجم الصغير .

(٦) فى أ : « عبيد الله » .

(٧) فى أ : « مسرية » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « المختارة » .

(٩) المعجم الصغير (٢/٨٩) والمختارة برقم (٩٣) . وقال الطبراني : « لم يروه عن عبيد الله بن عمر إلا يحيى بن أيوب ، تفرد به عمرو ابن الربيع » .

(١٠) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤) .

(١١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥) .

(١٢) فى ت : « وروى » .

(١٣) سنن الترمذى برقم (٤٨٤) .

صلى الله عليه بها عشراً» . فقام رجل ^(١) فقال : يا رسول الله ، ألا أجعل نصف دعائي لك ؟ قال : «إن شئت» . قال : ألا أجعل ثلثي دعائي لك ؟ قال : «إن شئت» . قال : ألا أجعل دعائي لك كله ؟ قال : «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة» . فقال شيخ - كان بمكة ، يقال له : منيع ^(٢) - لسفيان : عمن أسنده ؟ قال : لا أدري ^(٣) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا سعيد بن سلام العطار ، حدثنا سفيان - يعني : الثوري - عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول : «جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه» . قال أبي : يا رسول الله ، إنني أصلي من الليل ، أفأجعل لك ثلث صلاتي ؟ قال رسول الله ﷺ : «الشطر» . قال : أفأجعل لك شطر صلاتي ؟ قال رسول الله ﷺ : «الثلثان» . قال أفأجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : «إذن يغفر الله لك ذنبك كله» ^(٤) .

وقد رواه ^(٥) الترمذي بنحوه فقال : حدثنا هناد ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : «يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه» . قال أبي : قلت : يا رسول الله ، إنني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : «ما شئت» . قلت : الربع ؟ قال : «ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك» . قلت : فالنصف ؟ قال : «ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك» . قلت : فالثلثين ؟ قال : «ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك» . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : «إذن تكفي همك ، ويغفر لك ذنبك» . ثم قال : هذا حديث حسن ^(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي ، عن أبيه قال : قال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلتُ صلاتي كلها عليك ؟ قال : «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك» ^(٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن سليمان مولى الحسن بن علي ، عن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم ، والسرور يرى في وجهه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لنرى السرور في وجهك . فقال : «إنه أتانى الملك فقال : يا محمد ، أما يرضيك أن ربك ، عز وجل ، يقول : إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك

(٢) في أ : «سبع» .

(١) في أ : «فقام إليه رجل» .

(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٣) .

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٤) .

(٥) في ت : «وروى» .

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٤٥٧) .

(٧) المسند (١٣٦/٥) .

إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال : بلى .

ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة ، به (١) . وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن عبيد الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أبي طلحة ، بنحوه (٢) (٣) .

طريق أخرى : قال [الإمام] (٤) أحمد : حدثنا سُرَيْج (٥) ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَةَ ، عن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس ، يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى في وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أثنى آت من ربي ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كتَبَ الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » (٦) .

هذا أيضاً إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى (٧) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ؛ عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبي طلحة ، وأنس ، وأبي بن كعب (٨) .

وقال (٩) الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « صلوا على ؛ فإنها زكاة لكم . وسلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى أعلى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

تفرد به أحمد (١٠) ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد ، عن أبي هريرة ، بنحوه فقال : حدثنا محمد ابن إسحاق البكالى ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا داود بن عُلَيَّة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا على ، فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه - أو : أخبرنا - فقال : « هى درجة فى أعلى الجنة ، وهى لرجل ، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

(١) المسند (٤/ ٣٠) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٨٨٨) .

(٢) فى ف : « بمثله » .

(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى أ : « شريح » .

(٦) المسند (٤/ ٢٩) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذي برقم (٤٨٥) وسنن النسائي (٣/ ٥٠) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) المسند (٢/ ٣٦٥) .

فى إسناده بعض من تُكَلِّم فيه (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، [عن عبد الله بن هبيرة] (٢)، عن عبد الرحمن بن مَرِيج الخولاني ، سمعت أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله ﷺ صلاة ، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة ، فَلْيُقَلِّعْ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام (٣) وخواتمه وجوامعه ، وعَلِمْتُ كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجاوز بى ، عُوِفِت وعُوِفِت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه » (٤) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو سلمة الخراساني ، حدثنا أبو إسحاق ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ذُكِرَتْ عنده فَلْيُصَلِّ على ، ومن صَلَّى على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

ورواه النسائي فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى داود الطيالسي ، عن أبى سلمة - وهو المغيرة ابن مسلم الخراساني - عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي ، عن أنس ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يونس بن عمرو - يعنى : يونس بن أبى إسحاق - عن بُرَيْد (٦) بن أبى مريم ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على صلاة واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات » (٧) .

حديث آخر : قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا] (٩) : حدثنا سليمان بن بلال ، عن عمارة بن غَزِيَّة (١٠) ، عن عبد الله بن الحسين ، عن أبيه على بن الحسين ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذُكِرَتْ عنده ، ثم لم يصل على » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » .

ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (١١) .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن على » ، ومنهم من جعله من مسند « على » نفسه .

(١) مسند البزار برقم (٣٦٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « فيه داود بن عليّة ، ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما ووثقه ابن نمير ، وقال موسى بن داود الضبى : ثنا ذؤاد بن علبّة وأثنى عليه خيرا ، وقال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء ممن يكتب حديثه » . كذا فيه ذؤاد بن علبّة وهو الصواب . انظر : الكامل (١٢١/٣) والتهذيب (٢٢١/٣) والميزان (٣٢/٢) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٣) فى ف ، أ : « الكلم » .

(٤) المسند (١٧٢/٢) .

(٥) السنن الكبرى برقم (٩٨٨٩) .

(٦) فى أ : « زيد » .

(٧) المسند (١٠٢/٣) .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٠) فى أ : « نمير » .

(١١) المسند (٢٠١/١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا حجاج بن منهل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد ابن هلال العنزي ، حدثني رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » (١) .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي على » (٢) ، صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال (٣) الترمذي : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا ربيع بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . [ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] (٤) ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

قلت : وقد رواه البخاري في الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبي حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبي هريرة مرفوعا ، بنحوه (٦) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به . قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عجرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوي والحليمي] (٧) ، ويتقوى بالحديث الآخر الذي (٨) رواه ابن ماجه :

حدثنا جبارة بن المغلس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسي الصلاة على خطيئ طريق الجنة » (٩) .

جبارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه ، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسي الصلاة على خطيئ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله [والله أعلم] (١٠) (١١) .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس ، بل

(١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٣٧) .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٣٨) .

(٣) في ت : « وروى » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والترمذي .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٥٤٥) .

(٦) الأدب المفرد للبخاري برقم (٢١) .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) في ت : « بما » .

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٩٠٨) وقال البوصيري في الزوائد (٣١٣/١) : « هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤١) .

تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ، كلاهما عن ابن أبى ذئب ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وقد روى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذكوان ، عن أبى سعيد قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة لما يرون [من] (٢) الثواب » (٣) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرانى (٤) أن محملا الآية على النذب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع (٥) عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ؛ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه (٦) الشفاعة » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث كعب بن علقمة (٧) .

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا عمرو بن على ، عن أبى

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) والمسنند (٤٥٣/٢) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفضل الصلاة .

(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٥) .

(٤) فى ت : « الطبرى » .

(٥) فى ت : « عن » .

(٦) فى ت : « له » .

(٧) المسند (١٦٨/٢) وصحيح مسلم برقم (٣٨٤) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٤) وسنن النسائى (٢٥/٢) .

بكر الجُشمي ، عن صفوان بن سليم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الله لى الوسيلة ، حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » (١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا سليمان (٢) بن حرب ، حدثنا سعيد بن زيد ، عن ليث ، عن كعب - هو كعب الأخبار - عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا على ، فإن صلاتكم على زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة » . قال : فإما حدثنا وإما سألناه ، فقال : « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون ذلك (٣) الرجل » .

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر ، عن معتمر ، عن ليث - وهو ابن أبى سليم - به (٤) . وكذا الحديث الآخر :

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا بكر بن سودة ، عن زياد بن نعيم ، عن وفاء (٥) الحضرمي ، عن رُوَيْفَع بن ثابت الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٦) .

أثر آخر (٧) : قال إسماعيل القاضي : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثني معمر ، عن ابن (٨) طاوس ، عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجته العليا ، وأعطه سُؤْلَه فى الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى ، عليهما السلام . إسناد جيد قوى صحيح (٩) .

ومن ذلك : عند دخول المسجد والخروج منه : للحديث الذى رواه الإمام أحمد (١٠) :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبى سليم ، عن عبد الله بن الحسن (١١) ، عن أمه فاطمة بنت الحسين ، عن جدته [فاطمة] (١٢) بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك » (١٣) .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا سفيان (١٤) بن عمر التميمي ، عن

(١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥٠) .

(٢) فى أ : « سليم » . (٣) فى ف ، أ : « أكون أنا ذلك » .

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤٦ ، ٤٧) .

(٥) فى ف ، أ : « ورقاء » .

(٦) المسند (١٠٨/٤) .

(٧) فى أ : « حسن » . (٨) فى أ : « أبى » .

(٩) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥٢) .

(١٠) فى ت : « ومنه عند دخول المسجد لما روى الإمام أحمد » .

(١١) فى ت ، أ : « الحسين » . (١٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(١٣) المسند (٢٨٢/٦) .

(١٤) فى أ : « سيف » .

سليمان الضبيّ، عن علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب، رضى الله عنه (١): إذا مررتُم بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ (٢).

وأما الصلاة عليه ﷺ فى الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع (٣) الشافعى، رحمه الله (٤). وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تستحب؟ على قولين للشافعى.

ومن ذلك (٥): الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنائز: فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفى الثانية يصلى على النبي ﷺ، وفى الثالثة يدعو للميت، وفى الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

قال الشافعى، رحمه الله: حدثنا مطرف بن مازن، عن معمر، عن الزهرى: أخبرنى أبو أمامة ابن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السنة فى الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنائز، وفى التكبيرات لا يقرأ فى شيء منها، ثم يسلم سرا فى نفسه (٧).

ورواه النسائى، عن أبى أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره (٨).

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح.

ورواه إسماعيل القاضى، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهرى، عن أبى أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة فى الصلاة على الجنائز... فذكره (٩).

وهكذا روى عن أبى هريرة، وابن عمر، والشعبى.

ومن ذلك (١٠): فى صلاة العيد: قال إسماعيل القاضى (١١): حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائى، حدثنا حماد بن أبى سليمان، عن إبراهيم، عن (١٢) علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد (١٣)، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلى على

(١) فى ت: «وعن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، قال».

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٨٠).

(٣) فى ت، أ: «منهم».

(٤) فى ت، أ: «مع الشافعى وأحمد، رحمهما الله».

(٥) فى ت: «ومنه».

(٦) فى ت: «فروى الشافعى، رحمه الله، بإسناده عن».

(٧) الأم (٢٣٩/١).

(٨) سنن النسائى (٧٥/٤).

(٩) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٩٤).

(١٠) فى ت: «ومنه الصلاة على النبي ﷺ».

(١١) فى ت: «روى القاضى إسماعيل».

(١٢) فى ت: «بن».

(١٣) فى ت، أ: «عقبه صلى العيد يوماً».

النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تدعو ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناده (١) صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يُستحبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذی :

حدثنا أبو داود ، أخبرنا النضر بن شميل (٣) ، عن أبي قُرّة الأسدي ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب (٤) قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٥) .

وهكذا رواه أيوب بن موسى ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب ، قوله . ورواه معاذ بن الحارث ، عن أبي قرة ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر مرفوعاً (٦) . وكذا رواه رزين بن معاوية (٧) في كتابه مرفوعاً ، عن النبي ﷺ قال : « الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد حتى يصلى على ، فلا تجعلوني كغمر الراكب ، صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » (٨) .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي [حيث] (٩) قال : حدثنا جعفر بن عون ، أخبرنا موسى بن عبيدة ، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : قال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهرق ما فيه ، اجعلوني في أول الدعاء ، وفي وسط الدعاء ، وفي آخر الدعاء » . فهذا حديث غريب ، وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث (١٠) .

ومن [أكد] (١١) ذلك : دعاء القنوت : لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة (١٢) ، وابن حبان ، والحاكم ، من حديث أبي الحوراء (١٣) ، عن الحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، قال : علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ،

(١) في ت ، ف ، أ : « إسناده » .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٨٨) .

(٣) في أ : « سهيل » .

(٤) في ت : « روى الترمذی بإسناده عن عمر بن الخطاب » .

(٥) سنن الترمذی برقم (٤٨٦) .

(٦) أخرجه الواحدی ومن طريقه الحافظ الرهاوی في الأربعين كما في تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر (ص ١٣٧) .

(٧) في ت : « ورواه رزين بن أبي معاوية » .

(٨) ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (١٥٥/٤) رواية رزين .

(٩) زيادة من ف ، أ .

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٣٠) ورواه البزار في مسنده برقم (٣١٥٦) « كشف الأستار » من طريق موسى بن عبيدة به .

(١١) زيادة من ت ، أ .

(١٢) في أ : « الجوزاء » .

(١٣) في أ : « وابن جرير » .

وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت (١) ، تباركت [ربنا] (٢) وتعاليت (٣) .

وزاد النسائي في سننه بعد هذا : وصلى الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه [في] (٤) يوم الجمعة وليلة الجمعة : قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن علي الجعفي ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الأشعث الصنعاني (٥) ، عن أوس بن أوس الثقفي ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمّت ؟ - يعني : وقد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، من حديث حسين بن علي الجعفي (٦) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني ، والنووي في الأذكار .

حديث آخر : قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا عمرو بن سواد المصري (٧) ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن زيد بن أيمن (٨) ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة ؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة . وإن أحداً لن يصلى على إلا عُرِضت على صلاته حتى يفرغ منها » . قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : « [وبعد الموت] (٩) ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [فتبى الله حتى يرزق] (١٠) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء ، فإنه لم يدركه (١١) ، والله أعلم .

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود ، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة (١٢) ، ولكن في إسنادهما ضعف ، والله أعلم . وروى مراسلاً عن الحسن

(١) في ف ، أ : « واليت ، ولا يعز من عادي » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (١٩٩/١) وسنن أبي داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذي برقم (٤٦٤) وسنن النسائي (٢٤٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (١٤٨/٢) والمستدرک (١٧١/٣) .

(٤) زيادة من ت .

(٥) في ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٦) المسند (٨/٤) وسنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائي (٩١/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٦٣٦) .

(٧) في أ : « عمرو بن نزار المقرئ » .

(٨) في ف : « ثابت » . (٩ ، ١٠) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه .

(١١) سنن ابن ماجه برقم (١٦٣٧) .

(١٢) السنن الكبرى للبيهقي (٢٤٩/٣) من حديث أبي أمامة ، رضى الله عنه ، ولم أجده عنده من حديث أبي مسعود وإنما هو من حديث أنس ، رضى الله عنه .

البصرى ، فقال إسماعيل القاضى :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن - هو البصرى - يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تأكل الأرض جسداً من كلمه (١) روح القدس » . مرسل حسن (٢) .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أخبرنا صفوان بن سليم (٣) أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فأكثروا الصلاة على » . هذا مرسل (٤) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها (٥) عبادة ، وذكر الله فيها شرط (٦) ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد ، رحمهما الله .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ، صلوات الله وسلامه عليه : قال (٧) أبو داود :

حدثنا ابن عوف - هو محمد - حدثنا (٨) المقرئ ، حدثنا حيوة ، عن أبى صخر حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من (٩) أحد يسلم على إلا رد الله على روحى ، حتى أرى عليه السلام » .

تفرد به أبو داود ، وصححه النووى فى الأذكار (١٠) . ثم قال (١١) أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع ، أخبرنى ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا على ، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

تفرد به أبو داود أيضاً (١٢) . وقد رواه الإمام أحمد عن سريج ، عن عبد الله بن نافع - وهو الصائغ - به (١٣) . وصححه النووى أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن على ، رضى الله عنه . قال القاضى إسماعيل (١٤) بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى ﷺ » :

حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب [عمن أخبره] (١٥) من أهل بيته ، عن على بن الحسين بن على : أن رجلاً كان يأتى كل

(١) فى أ : « كلم » .

(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٣) .

(٣) فى أ : « صفوان بن أبى سليم » .

(٤) الأم (١٨٤/١) .

(٥) فى ت : « لأنهما » .

(٦) فى ت : « مشروط » .

(٧) فى أ : « ما منكم من » .

(٨) سنن أبى داود برقم (٢٠٤١) .

(٩) فى ت : « روى » .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٠٤٢) .

(١١) المسند (٣٦٧/٢) .

(١٢) فى أ : « القاضى ابن إسماعيل » .

(١٣) زيادة من أ ، وفى هـ : « عن أخيه » والمثبت من ت ، ف ، أ .

(٨) فى أ : « بن » .

(٧) فى ت : « فروى » .

غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلى عليه ، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه على بن الحسين ، فقال له على ابن الحسين : ما يحملك على هذا ؟ قال : أحب السلام على النبي ﷺ . فقال له على بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي ؟ قال : نعم . فقال له على بن الحسين : أخبرني أبي ، عن جدى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا قبرى عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى ^(١) صلاتكم وسلامكم » .

فى إسناده رجل مبهم لم يُسمَّ ^(٢) . وقد روى من وجه آخر مرسل ، قال عبد الرزاق فى مصنفه ، عن الثورى ، عن ابن عجلان ، عن رجل - يقال له : سهيل - عن الحسن بن الحسن بن على ؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم ، وقال : إن النبي ﷺ قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم ؛ فإن صلاتكم تبلغنى » ^(٣) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم [فوق الحاجة] ^(٤) ، فنهاهم .

وقد روى أنه رأى رجلاً يتتاب القبر فقال : يا هذا ، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء ، أى : الجميع يبلغه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقال الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن رشد بن المصرى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنى حميد بن أبى زينب ، عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « صلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » ^(٥) .

ثم قال الطبرانى : حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني ، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان ، أخبرنا يزيد بن هارون عن ^(٦) شيبان ، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف ^(٧) ، عن أم أنيس بنت الحسن بن على ، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : « أرأيت قول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟ » فقال : « إن هذا من المكتوم ، ولولا أنكم سألتمنى عنه لما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذاك الملكان : « غفر الله لك » . وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » . ولا يصلى أحد إلا قال ذاك الملكان : « غفر الله لك » . ويقول الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » .

غريب جداً ، وإسناده فيه ضعف شديد ^(٨) .

(١) فى ف ، أ : « فتبلغنى » .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٢٠) .

(٣) المصنف برقم (٦٧٢٦) .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) المعجم الكبير (٨٢/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠٠/١٦٢) : « فيه حميد بن أبى زينب لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « بن أبى » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .

(٧) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « خطاب » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى وكتب الرجال .

(٨) المعجم الكبير (٨٩/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٩٣) : « فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو كذاب » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، يبلغونى من (١) أمتى السلام » .

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثورى وسليمان بن مهران الأعمش ، كلاهما عن عبد الله ابن السائب ، به (٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى علىّ عند قبرى سمعته ، ومن صلى على من بعيد بلغته » - ففى إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدى الصغير ، وهو متروك ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعاً (٣) .

قال أصحابنا : ويستحب للمحرم إذا لى وفرغ من تلبيته أن يصلى على النبى ﷺ : لما روى (٤) عن الشافعى والدارقطنى من رواية صالح بن محمد بن زائدة ، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلى على النبى ﷺ على كل حال (٥) .

وقال إسماعيل القاضى : حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا زكريا ، عن الشعبى ، عن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً ، وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ، فكبروا سبع تكبيرات ، تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه ، وصلاة على النبى ﷺ ، ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك (٦) .

إسناده جيد حسن قوى .

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر الله عند الذبح : واستأنسوا بقوله (٧) تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] ، قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معى » . وخالفهم فى ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ، كما عند الأكل ، والدخول ، والوقاع وغير ذلك ، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبى ﷺ .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا عمر بن هارون ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن ثابت ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثنى » .

فى إسناده ضعيفان ، وهما عمر بن هارون وشيخه (٨) ، والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن عبيدة الربدى ، به (٩) .

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المسند (٤٤١/١) وسنن النسائي (٤٣/٣) .

(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٢٩٢/٣) من طريق الأصمعى عن السدى به ، ثم روى بإسناده عن ابن قتيبة قال : سألت ابن نمير عن حديث : « من صلى علىّ عند قبرى » فقال : « دع ذا ، محمد بن مروان ليس بشئ » .

(٤) فى ت : « لما رواه » .

(٥) الام (١٣٤/٢) .

(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨١) .

(٧) فى ف : « يقول الله » .

(٨) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٥) وعمر بن هارون متروك ، وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٩) المصنف لعبد الرزاق برقم (٣١١٨) .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ، إن صح الخبر في ذلك ، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله ، عن أبيه محمد (١) ، عن أبيه أبي رافع (٢) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل علي ، وليقل : ذَكَرَ اللَّهُ مَنْ ذَكَرْنِي بخير » . إسناده غريب ، وفي ثبوته نظر (٣) ، والله أعلم .

[وها هنا مسألة (٤) :

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ في كتاب ، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب » (٥) .

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ، وقد روى من حديث أبي هريرة ، ولا يصح أيضاً (٦) ، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا : أحسبه موضوعاً . وقد روى نحوه عن أبي بكر ، وابن عباس . ولا يصح من ذلك شيء (٧) ، والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » (٨) ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغني أنه كان يصلى عليه لفظاً (٩) .

[فصل (١٠)]

وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت (١١) على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

(١) في هـ ، ت ، ف ، أ : « عن علي بن أبي رافع » والصواب ما أثبتناه .

(٢) في ت : « بإسناده عن أبي رافع » .

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٢٠) وابن عدى في الكامل (٦/ ٤٥١) من طريق معمر به ، وقال ابن عدى : « معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه منكر الحديث ، ومقدار ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم (١٦٩٩) من طريق أحمد بن جعفر الهاشمي عن سليمان بن الربيع عن كادح بن رحمة به .

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٢٣٤) « مجمع البحرين » من طريق يزيد بن عياض عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٧) أما حديث ابن عباس فسبق ، وأما حديث أبي بكر فرواه ابن عدى في الكامل (٣/ ٢٤٩) من طريق أبي داود النخعي ، عن أيوب بن موسى ، عن القاسم ، عن أبي بكر ، رضى الله عنه ، وداود النخعي وضاع .

(٨) في ت : « والسائل » .

(٩) الجامع لأخلاق الراوى (١/ ٢٧١) ثم قال عقبه : « وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين في ذلك » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) في ت ، ف ، أ : « كان » .

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ^(١) وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل على زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ^(٢) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو : « قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء ، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاهما الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان ^(٣) بالأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره ^(٤) .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، رضى الله عنه ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه

(١) فى ت ، ف : « تطهرهم بها وتزكئهم » وهو خطأ .

(٢) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « فى لسان السلف » .

(٤) الأذكار ص (١٥٩ ، ١٦٠) .

صحيحاً ، لكن ينبغي أن يُساوى بين الصحابة في ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان [بن عفان] (١) أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثني عثمان بن حكيم بن عباد بن حنيفة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٢) الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة (٣) (٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا حسين بن علي ، عن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن (٥) .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن نبيه بن وهب ؛ أن كعباً دخل على عائشة ، رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار ، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه (٦) .

[فرع] (٧) :

قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : ﷺ تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) ﴾ .

(١) زيادة من ف .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « لا تصلح » .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « بالاستغفار » .

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٧٥) ولفظه عنده « لا تصلوا على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار » .

(٥) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٧٦) .

(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٠٢) .

(٧) زيادة من : ت ، أ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً مَنْ آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذى رسوله بغيب أو تنقص ، عياداً بالله من ذلك .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى المصورين .

وفى الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذنى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) .

ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من العلماء ، رحمهم الله .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى الذين طعنوا [على النبى ﷺ] (٢) فى تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشيء ، من آذاه فقد آذى الله ، ومن (٣) أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال (٤) الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عبيدة بن أبى رائلة الحذاء التميمى ، عن عبد الرحمن [بن زياد] (٥) ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال النبى ﷺ : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فحببى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وقد رواه الترمذى من حديث عبيدة بن أبى رائلة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٦) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم برءاء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص (٧) لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله (٨) ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى أ : « كما أن من » .

(٤) فى ت : « كما روى » .

(٥) زيادة من ت ، أ ، والمسنند .

(٦) المسند (٨٧/٤) وسنن الترمذى برقم (٣٨٦٢) .

(٧) فى ت : « والنقص » .

(٨) فى أ : « ورسله » .

والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلاء الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم^(١) ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب^(٢) ، يذمون المدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال^(٣) أبو داود : حدثنا القَعْنَبِيُّ ، حدثنا عبد العزيز - يعنى : ابن محمد - عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : حسن صحيح^(٤) .

وقد قال^(٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أىُّ الربا أربى عند الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند الله استحلالُ عرض امرئ مسلم » ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لَنُغْرِيبَنَّ بِهَمِّ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا^(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أُخِذُوا وَقَتْلُوا قَتْلًا^(٦١) سَنَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا^(٦٢) .

يقول تعالى أمراً رسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِيُّ ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قاله الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلاً لها :

تَمْشَى النَّسْرُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ^(٧) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين^(٨) إذا خرجن من بيوتهن فى

(١) فى ١ : « ويتنقصونهم » . (٢) فى ٢ : « قلوبهم منكوسة » . (٣) فى ٣ : « وروى » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٩٣٤) .

(٥) فى ٥ : « وروى » .

(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس ، به .

(٧) الصحاح (١٠١/١) .

(٨) فى ٨ : ف ، أ : « المؤمنات » .

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدن عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلابيبها تدنيه عليها .

وقال (١) ابن أبي حاتم : أخبرنا أبو عبد الله الظهري (٢) فيما كتب إليّ ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسناها (٣) .

وقال (٤) ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثني الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال : وسألناه (٥) - يعني : الزهري - : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات (٦) . وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ .

وروى عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حُرَّائِرٌ ، لسن بإماء ولا عواهر ، قال السدي في قوله تعالى : ﴿ [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ] قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها (٨) .

وقال مجاهد : يتجلبن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين يقولون : « جاء

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « الطبراني » .

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٠١ / ٢) ورواه الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة مثله ، وأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٩) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) فى ت : « سئل » . (٦) فى أ : « بالحرائر المحصنات » .

(٨) فى ت ، ف : « عليها » . (٧) زيادة من أ .

الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرشئك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم .

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أى : فى المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا . مُلْعُونِينَ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، ﴿أَيْنَمَا تَقِفُوا﴾ أى : وجدوا ، ﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقتلتهم ، ﴿وَقُتِلُوا﴾ تَقْتِيلًا .

ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣) **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) **يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ** (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨) .

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك . وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال له فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن (١) أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ، كما قال : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] ، وقال : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] .

ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا بمن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

الذِّكْرَ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم ^(١) هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ . وقال طاوس : سادتنا : يعني الأشراف ، وكبراءنا : يعني العلماء . رواه ابن أبي حاتم .

أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ، ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريباً المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى . قال : « قل : اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه فى الصحيحين ^(٣) ، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحسّن ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا ضرار بن صرد ، حدثنا على بن هاشم ، عن [محمد بن] ^(٤) عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ^(٥) ، فى تسمية من شهد مع على ، رضى الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غزاة ، وهو الذى كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار ، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ ؟ ^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (٦٩) .

قال البخارى عند تفسير ^(٧) هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] ^(٨) وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيّاً ، وذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ^(٩) .

(١) فى ت ، ف ، أ : « حالهم » . (٢) فى ت : « كثيراً كبيراً أو كلاهما » وفى ف ، أ : « كبيراً » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥) .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى . (٥) فى ت : « وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده عن أبى رافع » .

(٦) المعجم الكبير (٢٢٣ / ٣) .

(٧) فى ت : « روى البخارى عند تفسيره » . (٨) زيادة من ت ، أ ، والبخارى .

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٩) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً ، وقد رواه في أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حَيًّا سَتِيْرًا ، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاهُ من أذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أدرّة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلماً فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حَجَر ، ثوبى حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فأروه عُرِيَاناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطَفَقَ بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لَنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ - وخلاس ، ومحمد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : قال النبي ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حَيًّا سَتِيْرًا ، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه » (٢) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولاً ، ورواه في تفسيره (٣) عن روح ، عن عوف ، به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن عامر الشعبي ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحو هذا (٤) . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فأروه ليس بآدر ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ .

وهكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المولى الأدمى قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « كان موسى ، عليه السلام ، رجلاً حَيًّا ، وإنه أتى - أحسبه قال : الماء - ليغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال (٥) بنو إسرائيل : إن موسى آدر - أو : به آفة ، يعنون : أنه لا يضع ثيابه -

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٤) .

(٢) المسند (٥١٤/٣) .

(٣) فى أ : « ورواه عنه فى تفسيره » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٦/٢٢) .

(٥) فى ف ، أ : « فقالت » .

فاتحملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال ، أو كما قال ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (٢) ، عن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ، فى قوله : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى ، عليه السلام : أنت قتلتنا ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فأذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا (٣) به على مجالس بنى إسرائيل ، فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن علي بن موسى الطوسى ، عن عباد بن العوام ، به (٤) .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول الله ، عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، والله أعلم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة (٦) ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر (٧) ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » .

أخرجه فى الصحيحين (٨) من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، به (٩) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم (١٠) - مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر] » (١١) . فأتى رسول الله ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فَتَثَبْتُ حَتَّى سَمِعْتُ (١٢) ما قالوا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : « لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً » ، وإنى مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشقَّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أودى موسى بأكثر من هذا ، فصبر » (١٣) .

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٢) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧) : « فيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى أ : « فمرت » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٧/٢٢) .

(٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى أ : « لقسمة » .

(٧) فى ت ، أ : « فذكرت » . (٨) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .

(٩) المسند (٣٨٠/١) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢) .

(١٠) فى أ : « هشام » . (١١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى أ : « فقلت حين سمعت » .

(١٣) المسند (٣٩٥/١) .

وقد رواه أبو داود في الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلي ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل عن الوليد] ^(١) بن أبي هاشم ^(٢) به مختصراً : « لا يبلغني أحد [من أصحابي] ^(٣) عن أحد شيئاً ؛ إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » ^(٤) .

وكذا رواه الترمذي في « المناقب » ، عن الذهلي سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة » . ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السدي ، عن الوليد بن أبي هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد في إسناده السدي ، ثم قال : غريب من هذا الوجه ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً ﴾ أى : له وجهة وجاه عند ربه ، عز وجل .

قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند الله] ^(٦) : أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ : وذلك أنه يجاز من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال ^(٧) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد ، عن ليث ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أوماً إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرني أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرني أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً » ^(٨) .

وقال ^(٩) ابن أبي الدنيا في كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبي داود . (٢) في ف ، أ : « هشام » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبي داود .

(٤) سنن أبي داود برقم (٤٨٦٠) .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٨٩٦) .

(٦) زيادة من ت . (٧) في ت : « وروى » .

(٨) ورواه أحمد في مسنده (٣٩١ / ٤) من طريق شيبان عن ليث ، به .

العزير بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرَةَ ، عن هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه (٢) ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ الآية . غريب جدًا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب ، عن ابن عباس موقوفاً (٣) ، من سره أن يكون أكرم الناس ، فليقل الله . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧٣) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : يعنى بالأمانة : الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقنها (٤) . فقال لآدم : إني قد عرضتُ الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها (٥) ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم (٦) ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو (٧) قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعنى : غراً بأمر الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبى بشر (٨) ، عن سعيد بن جبير ، عن (٩) ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أظعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة .

وقد روى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريباً من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وغير واحد :

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت : « بسنده » . (٣) فى ت : « مرفوعاً » .
(٤) فى ت : « يطقها » ، وفى أ : « يطقنها » . (٥) فى أ : « يطقنها » . (٦) فى ت ، أ : « عذبهم الله » .
(٧) فى أ : « وهى » . (٨) فى أ : « حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر » .
(٩) فى ت : « وروى ابن جرير بسنده إلى » .

[ألا] ^(١) إن الأمانة هي الفرائض .

وقال آخرون : هي الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق [قال] ^(٢) : قال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أوئمت على فرجها .

وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم : الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاغتسال من الجنابة .

وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هي ^(٣) متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوِّبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصرى] ^(٤) ، حدثنا حماد بن واقد - يعنى : أبا عمر الصفار - سمعت أبا معمر ^(٥) - يعنى : عون بن معمر - يحدث عن الحسن - يعنى : البصرى ^(٦) - أنه تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطبايق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عُوِّبَت . قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذلت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عُوِّبَت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم ^(٧) الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عُوِّبَت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنة . . ؟ فقلن : يا رب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليست بنا قوة ، ولكننا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنهن منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة ^(٨) ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطق ، ولكننا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شئ تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة . وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها

(٤) زيادة من أ .

(٣) فى ت : « وهى » .

(١، ٢) زيادة من أ .

(٦) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصرى » .

(٥) فى أ : « أبا عمر » .

(٨) فى أ : « والكرامة فى الدنيا » .

(٧) فى أ : « الصم » .

وأَسَات ، فَإِنِّي مَعَذِبُكَ وَمَعَاذُكَ النَّارُ . قَالَ : رَضِيتَ [يَا] ^(١) رَبِّ . وَتَحَمَّلَهَا ^(٢) ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ حَمَلْتُكَهَا . فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم .

وعن ^(٣) مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست في الأشجار ، وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة . وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جرير .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، ضَجَجْنَ إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن ، وقلن : ربنا . لا طاقة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال ^(٤) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي ، حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم في هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [الآية] ^(٥) ، فقال الإنسان : بين أذنِي وعاتقِي فقال الله تعالى ^(٦) : إِنِّي مُعِينُكَ عَلَيْهَا ، أَي : مُعِينُكَ عَلَى عَيْنِكَ بِطَبَقَتَيْنِ ، فَإِذَا نَازَعَاكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبُقْ . وَمُعِينُكَ عَلَى لِسَانِكَ بِطَبَقَتَيْنِ ، فَإِذَا نَازَعَاكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبُقْ . وَمُعِينُكَ عَلَى فَرْجِكَ بِلِبَاسٍ ، فَلَا تَكْشِفْهُ إِلَى مَا أَكْرَهَ .

ثم روى عن أبي حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً ، ويستأمنهن على الدين . فقلن : لا ، نحن مسخرات لأمرِك ، لا نريد ثواباً ولا عقاباً . قال ^(٧) : وعرضها الله على آدم فقال : بين أذنِي وعاتقِي . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إِذْ تَحْمِلْتِ هَذَا فَسَأَعِينُكَ ، أَجْعَلْ لِبَصْرِكَ حِجَابًا ، فَإِذَا خَشِيتِ أَنْ تَنْظُرِي إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ فَأَرْخِي عَلَيْهِ حِجَابَهُ ، وَأَجْعَلْ لِّلْسَانِكَ بَابًا وَغُلْقًا ، فَإِذَا خَشِيتِ فَأَغْلِقِي ، وَأَجْعَلْ لِفَرْجِكَ لِبَاسًا فَلَا تَكْشِفْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَحَلَّتْ لَكَ .

وقال ابن جرير : حدثني سعيد ^(٨) بن عمرو السَّكُونِي ، حدثنا بَقِيَّةٌ ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن ^(٩) الحكم بن عمير - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ الْأَمَانَةَ وَالْوَفَاءَ نَزَلَا عَلَى ابْنِ آدَمَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَأَرْسَلُوهُ بِهِ ، فَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ رَسُولٌ ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَنَزَلَتِ الْعَرَبِيَّةُ وَالْعَجَمِيَّةُ ، فَعَلِمُوا أَمْرَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا أَمْرَ السَّنَنِ بِالسُّنَنِ ، وَلَمْ يَدْعِ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ مِمَّا يَأْتُونَ وَمَا يَجْتَنِبُونَ وَهِيَ الْحَجَجُ عَلَيْهِمْ ، إِلَّا بَيْنَهُ لِهِمْ . فَلَيْسَ أَهْلُ لِسَانٍ إِلَّا وَهُمْ يَعْرِفُونَ الْحَسْنَ وَالْقَبِيحَ ، ثُمَّ الْأَمَانَةُ أَوَّلُ شَيْءٍ يَرْفَعُ وَيَبْقَى

(٣) في ت : « وقال » .

(٢) في أ : « وتحملتها » .

(١) زيادة من أ .

(٦) في ت ، ف : « عز وجل » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) في ت : « ثم روى » .

(٩) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده إلى » .

(٨) في أ : « سعد » .

(٧) في أ : « قال رسول الله ﷺ »

الله عنه ، عن النبي ﷺ ، بنحوه . ولم يذكر : « الأمانة في الصلاة وفي كل شيء » (١) . إسناده جيد ، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد (٢) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت في جذر (٣) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] (٤) المجل كجمر دحرجته [على رجله ، تراه مُتَبَرِّجاً وليس فيه شيء » . قال : ثم أخذ حصي (٥) فدحرجه [(٦) على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجمله وأظرفه وأعقله . وما في قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلانا وفلانا .

وأخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش ، به (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد (٩) الحضرمي ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة » .

هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (١٠) .

وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدثني يحيى بن أيوب العلاف المصري (١١) ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجرية ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة » . فزاد في الإسناد : « ابن حجرية » ، وجعله من (١٢) مسند ابن عمر (١٣) .

(١) تفسير الطبري (٢٢ / ٤٠) .

(٢) في ت : « الذي في الصحيحين » . (٣) في أ : « صدر » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٥) في ت ، أ : « حصاة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٧) المسند (٢٨٣ / ٥) وصحيح البخاري برقم (٦٤٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٣) .

(٨) في ت : « وروى » . (٩) في أ : « زيد » .

(١٠) المسند (١٧٧ / ٢) .

(١١) في ف ، أ : « المقرئ » . (١٢) في أ : « في » .

(١٣) مجمع الزوائد (١٤٥ / ٤) وقال الهيثمي : « رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد (١) : حدثنا شريك ، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن خُناص بن سُحيم - أو قال : جبلة بن سُحيم - قال : أقبلت مع زياد ابن حدير من الجابية فقلت فى كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى ، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيماً ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى (٢) .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع ، قال (٣) أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ، ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : وليرحم (٥) المؤمنين من الخلق (٦) الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

[آخر تفسير سورة « الأحزاب »] (٧)

(١) فى ت : « فروى ابن المبارك بإسناد » .

(٢) الزهد برقم (٢١٣) .

(٣) فى ت : « رواه » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٨) « موارد » من طريق وكيع عن الوليد بن ثعلبة ، به .

(٥) فى أ : « وليرحم الله » . (٦) فى أ : « الحلف » . (٧) زيادة من ف .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود (١) أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شئ .

وقال مالك عن الزهري : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبدور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور (٢) عن ذنوب [عباده] (٣) التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فأحداهن في سورة يونس : ﴿ وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾ ، والثالثة في التغابن : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّهُمْ وَلَتَنْبَأُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾^(١) ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين^(٢) تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم .

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ وَيَرَى ﴾^(٣) الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضاً : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضاً : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . العزيز هو : المنيع الجنب^(٤) ، الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرِقْتُمْ كُلٌّ مُمَرِّقٌ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئَنَا خَسِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

(١) فى أ : « وإن » .

(٢) فى أ : « الجبار » .

(٣) فى ت : « ليأتينكم » .

(٤) فى س : « وترى » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ ۖ أَىٰ : تفرقت ^(١) أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ۖ أَىٰ : بعد هذا الحال ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ أَىٰ : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۖ ؟ قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۖ أَىٰ : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ، ﴿ فِي الْعَذَابِ ۖ أَىٰ : [فى] ^(٢) الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۖ من ^(٣) الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أَىٰ : حيثما ^(٤) توجهوا وذهبوا فالسما مظلّة مظللة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءُ بَنِينَا بَأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا فنعم الماهدون ﴿ [الذاريات : ٤٧ ، ٤٨] .

قال ^(٥) عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ؟ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ۖ أَىٰ : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ : قال معمر ، عن قتادة : ﴿ مُنِيبٍ ۖ : تائب .

وقال سفيان ^(٦) عن قتادة : المنيب : المقبل إلى ^(٧) الله عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها ^(٨) واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ^(٩) بَلَىٰ ۖ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [غافر : ٥٧] .

(٣) فى أ : « عن » .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(١) فى ت : « فرقت » .

(٦) فى أ : « شيان » .

(٥) فى ت : « روى » .

(٤) فى ت ، س : « حيث » .

(٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .

(٧) فى ت ، أ : « على » .

(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبج به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته (١) ، ثم قال « لقد أوتى هذا مزمراً من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبجى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو (٣) ميسرة أنه بمعنى سبجى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجمل » فى باب النداء منه : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : سبرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد (٤) : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده (٥) غيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة ، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : رَجَعِي مُسَبِّحَةً مَعَهُ ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سماعة ، حدثنا ابن ضَمْرَةَ (٦) ، عن ابن شوذب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحواري .

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .

(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .

(٣) فى أ : « ابن » .

(٤) فى أ : « والآباد » .

(٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .

(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع .
قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدَقُّ المسمار فيقلق فى الحلقة ، ولا تُغْلَظُه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عتيبة ^(١) : لا تُغْلَظُه فيفصم ، ولا تُدَقُّه فيقلق ^(٢) . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حلق ^(٣) الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر ^(٤) :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا « دَاوُدُ » ، أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ « تَبَعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، ^(٥) من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبى إلياس ، عن وهب بن منبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكراً ، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقبه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأئمة ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود ، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فالأن له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع ^(٦) ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع ^(٧) ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلاثها ، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش ^(٨) حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكان ^(٩) قد أعطى سبعين مزمراً فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شيء .

﴿ وَلَسْلِمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

(١) فى س ، أ : « عينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيقلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .

(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .

(٥) تاريخ دمشق (٧٠٨ / ٥) المخطوط .

(٦) (٧ ، ٦) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِنْ مَّحَارِيبَ وَتَمَائِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان ^(١) ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصري : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى ^(٢) بها ، ويذهب راثحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ وَأَسْلَنَّا ^(٣) لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و ^(٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدي : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره ^(٥) ، وتسخيرهم لهم بمشيئته ما يشاء من البنائيات وغير ذلك . ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير ^(٦) ، عن أبي ثعلبة الخشني ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطفرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدا ^(٧) .

وقال ^(٨) أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا حرملة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني بكر ^(٩) بن مضر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثني أن الإنس ثلاثة ^(١٠) : صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين .

(١) في ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفي س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) في ت : « فيتنغى » .

(٣) في ت : « واسلنا » . (٤) في ت : « بن » .

(٥) في ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفي س : « أى القدرى » . (٦) في ت : « وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا بإسناده » .

(٧) ورواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .

(٨) في ت : « وروى » . (٩) في أ : « بكير » . (١٠) في أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا ^(١) : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة - يعنى : ابن الفضل - عن إسماعيل ، عن الحسن ^(٢) قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ ﴾ : أما المحارِب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحارِب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التمايل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التمايل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَرُوحُ عَلَى آلِ الْمَحَلِّ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ ^(٣) ^(٤)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقاتة ، والضحاك وغيرهم . والقُدُور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها ^(٥) لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتَكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ^(٦) ثَلَاثَةً : يَدِي ، وَلِسَانِي ، وَالضَّمِيرُ الْمُحْجَبُ

قال أبو عبد الرحمن الجبلى ^(٧) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير عمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح .

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » . (٢) فى ت : « الحسين » . (٣) فى ت : « بقق »

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » . (٦) فى ت : « عندي » .

(٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً .

قال (١) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا جعفر - يعني : ابن سليمان - عن ثابت البناني قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم (٢) ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية : ﴿ اَعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا يفتر إذا لاقى » (٣) .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أم سليمان بن داود لسليمان : يا بني ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل ترك الرجل فقيراً يوم القيامة » (٤) .

وروى ابن أبي حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً ، وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد (٥) فيض بن إسحاق الرقي (٦) قال : قال فضيل في قوله تعالى : ﴿ اَعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتني حين علمت (٧) أن النعمة (٨) مني » . وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجنّ المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها (٩) دابة الأرض ، وهي الأرضة ، ضعفت (١٠) وسقط (١١) إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

(١) في ت : « روى » . (٢) في ت : « لا يأتي عليهم » ، وفي أ : « لا يأتي عليهم » .

(٣) صحيح البخاري برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) في هـ : « زيد » والثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفاداً من طبعة الشعب .

(٦) في أ : « المرى » . (٧) في ت ، س : « قلت » .

(٨) في أ : « النعم » . (٩) في ت : « فلما أكلت العصا » .

(١٠) في ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) في أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير ^(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى الله ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عمّ على الجن موتى ^(٢) حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصاً ، فتوكلأ عليها حولاً ميتاً ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولاً] ^(٣) فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة ^(٤) ، فكانت تأتيها بالماء » ^(٥) . وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طهمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفاً ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة . وقال السدى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبت دواء قالت : نبت دواء لكذا وكذا . فيجعلها ^(٦) كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخروب ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروب . قال : ولأى شىء نبت ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان الله ليُخرَبه وأنا حى ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فترعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه ، فمات ولا تعلم ^(٧) به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : أأست جليداً ^(٨) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان ، عليه السلام ، قد سقط ميتاً . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحو ^(٩) عنه

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .

(٢) فى ت : « موتى » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .

(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .

(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .

(٧) فى أ : « ولم يعلم » .

(٨) فى ت : « جليداً » .

(٩) فى هـ ، س : « ففتحو » .

فأخرجوه . وَوَجَدُوا مِنْسَاتَهُ - وهى : العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا (١) ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله (٢) عز وجل : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنَّهُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين - قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت - قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيا به الشياطين ، شكراً (٣) لها (٤) .

وهذا الأثر - والله أعلم - إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها (٥) إلا ما وافق الحق ، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقي لا يصدق ولا يكذب (٦) .

وقال ابن وهب وأصبع بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون (٧) بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان - يقال لها : القادح - فدخلت فيها فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ ﴾ . قال أصبع : بلغنى عن غيره أنها قامت (٨) سنة تأكل منها قبل أن يخرب (٩) . وقد ذكر غير واحد من السلف نحوه من هذا ، والله أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾ .

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .

(٥) فى س ، أ : « لا تصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .

(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخرب » .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم ^(١) ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه ^(٢) بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ ، شذر مذر ، كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول ^(٣) : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل ^(٤) أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عشرة ^(٥) ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان .

ورواه عبد ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، به ^(٦) . وهذا إسناد ^(٧) حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] ^(٨) . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب « القصد والأمم » ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة ، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] ^(٩) أيضاً وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبي حية الكلبي ، عن يحيى بن هانئ بن عروة ، عن فروة بن مسيك قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعاني فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول الله ، أرايت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل ^(١٠) ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] ^(١١) ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فتيان ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم خم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » .

وهذا أيضاً إسناد جيد ^(١٢) وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبي ، وقد تكلموا فيه ^(١٣) . لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن العنقري ^(١٤) ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادي ، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال : قدم فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ ، فذكره ^(١٥) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابن لهيعة ، عن توبة بن نمر ^(١٦) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة ^(١٧)

(١) في ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) في أ : « ويشكروا له » .

(٣) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) في ت ، س : « أرجل » . (٥) في أ : « ولد له عشرة » . (٦) المسند (١ / ٣١٦) .

(٧) في ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .

(١٠) في أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) في أ : « حسن » .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس في المطبوع من المسند .

(١٤) في أ : « العنقري » .

(١٥) تفسير الطبري (٢٢ / ٥٣) .

(١٦) في س ، أ : « نمر » . (١٧) في أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثني فلان أن فروة بن مُسَيْك الغُطَيْفِي (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية ، وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال : « ما أمرت فيهم بشيء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله : أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ : ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وكَلْدَ عَشْرَةٍ فسكن اليمن منهم ستة ، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] (٣) الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَةَ النَّخَعِي ، عن فَرَوَةَ بن مُسَيْك الغُطَيْفِي (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرني عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة ، والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار ؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذي في جامعه ، عن أبي كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي ، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن علي ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الداري ؛ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحسن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه (٩) المتقدم ، وقال في ذلك شعراً :

(١) في أ : « القطيعي » . (٢) في س ، أ : « يا نبى » .
(٣) في س : « فالله » . (٤) في أ : « ابن » .
(٥) في أ : « القطيعي » . (٦) زيادة من أ .
(٧) تفسير الطبري (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذي برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصص والأمم ص (٢٠) .
(٩) في ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ يَدِينُونَ الْعِبَادَ بِغَيْرِ ذِمٍّ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِمَّا مُلُوكٌ يَصِيرُ الْمُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامٍ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانِ نَبِيٌّ تَقَى خَبِثَةَ خَيْرِ الْأَنَامِ
وَسُمِّيَ أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِي أَعْمَرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بَعَامٍ
فَأَعْضُدُهُ وَأُحْبِوهُ بِنَصْرِي بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامٍ
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ وَمَنْ يَلْقَاهُ يَبْلُغْهُ سَلَامِي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب « الإكليل » .

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث^(١) طرائق .

والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري ، رحمه الله ، في كتابه [المسمى] ^(٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة ^(٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلاً من العرب » يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل ، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، والله أعلم . وفي صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلم » ينتضلون ، فقال : « ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً » ^(٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما ^(٥) قيل لهم : غَسَّانُ بما نزلوا عليه قيل : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل ^(٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إِمَّا سَأَلْتُ فَإِنَّا مَعَشَرٌ نُجَبُّ الْأَزْدُ نَسَبَتُنَا ، وَالْمَاءُ غَسَّانُ ^(٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أي : كان ^(٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

(١) في أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) في ت : « بالرواة » .

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .

(٥) في ت : « وإن » . (٦) في ت : « المسلك » وفي أ : « المسكن » .

(٧) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .

(٨) في ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين في مواضعه من ^(١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيا من منهم ستة ، وتشاء منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام ، فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترق ^(٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف ، لكثرت ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شئ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شئ من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحده ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ^(٣) ذلك ، ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السدّي : أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبى ، والله ^(٤) أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كرز » حكى ذلك السهيلي ^(٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجرذ » نقبته - قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السد فنقبته ، فانهار عليهم .

(٣) فى أ : « من » .

(٢) فى ت : « يحترق » .

(١) فى ت : « فى » .

(٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

(٤) فى ت ، س : « فالله » .

وقال قتادة وغيره : الجُرْدُ : هو الخُلْد ، نقتب أسافله حتى إذا ضَعَفَ وَوَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء في أسفل ^(١) الوادى ، وخربَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيسبت وتخطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمَةُ ، وعطاء الخُرَّاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البرير .

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفَاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْرُ قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنِكَ ^(٢) الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ ^(٣) وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طائوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البداء ، عن هشام بن صالح التغلبى ^(٤) ، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه - قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال ^(٥) إلا جاءه من يُنْغِصُه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ (١٩) ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

(٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .

(٢) فى ت ، أ : « تلك » .

(١) فى ت : « أصل » .

(٥) فى ت : « حلالاً » .

(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ، وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَسْتَبَدِلُونَ فِي أُخْرَى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد وغيرهم ^(١) : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها ^(٢) : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قَرْيَ ظَاهِرَةٍ ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يقلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿ سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، وقرأ آخرون : « بعد بين أسفارنا » ، وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد - وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من مأكّل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبَدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٣) ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسمرا يتحدثون به من ^(٤) خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » و « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شذَرَ مَذَرَ » ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت ^(٦) عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ] ﴾ ^(٧) إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .

(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومذر » .

(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة ^(١) بشيء من أخبار ^(٢) السماء ، فكان ^(٣) فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلمهم ^(٤) . فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيهِ - وهو أعزهم أخوالا - : إذا كان غدا وأمرتكَ بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتكَ فانتهرنى ، فإذا تناولتكَ فالطمنى . فقال : يا أبت ، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بنى ، قد حدث أمر لا بد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بنى ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه ، فأجابهُ ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناولهُ أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابنى يلطمنى؟ علىّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبجه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك . قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبجه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبجه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإننى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ولدى ^(٥) فيه ، اشتروا منى دورى ، اشتروا منى أرضى ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن فى يده وأحرزه ، قال : أى قوم ، إن العذاب قد أظلمكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير - وكلمة ، قال ^(٦) إبراهيم : لم أحفظها - فليلحق ^(٧) ببصرى ، ومن أراد الراسخات فى الوحل ، المطاعم فى المحل ، المقيمات فى الضحل ، فليلحق ^(٨) ببثرب ذات نخل . فأطاعه قومه ^(٩) ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغى به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهاناتهم ^(١٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العرم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى - : أنه رأى جرذاً يحفر ^(١١) فى سد مأرب ، الذى كان يجبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد ^(١٢) قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى ^(١٣) . وعرض أمواله ، فقال

(٣) فى س : « وكان » .

(٦) فى ت : « قالها » .

(٩) فى س : « قومنا » .

(٢) فى أ : « خبر » .

(٥) فى ت ، س : « ابنى » .

(٨) فى ت : « فليحق » .

(١١) فى س : « تحفر » .

(١٣) فى ت : « أولادى » .

(١) فى س : « فأخبروا به الكهنة » .

(٤) فى أ : « أضلمهم » .

(٧) فى ت : « فيحق » .

(١٠) فى ت : « كهاناتهم » .

(١٢) فى ت ، س : « وكاد » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتتموا غَضَبَةَ عمرو . فاشترؤا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزدي : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجّالا . ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بْنِ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَغَلَّبُوا بَغْسَانَ ، حَتَّى طُرِدُوا كُلَّ مَطَرَدٍ

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتنفروا في البلاد ، فنزل آل جَفْنَةَ بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرًّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عُمان ، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتنفروا » . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهنًا ، فرأى في كهنته أن قومه سَيَمَزِقُونَ ويباعدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إننى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهمٌ بعيد وجمل شديد ، ومزادٌ جديد - فليلق بكَاسٍ أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا همٍّ مدُنٍّ ، وأمر دَعْنٍ ، فليلق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آتيا ، وحرما آمنا ، فليلق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطاعم في المحل ، فليلق بيشرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا ، وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ، فليلق بكُوْثى وبُصْرَى ، فكانت غسان بنو جَفْنَةَ (٥) ملوك الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت في كهنتها ذلك ، فאלله أعلم أى ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبي : أما غسان فليحقوا بالشام ، وأما الأنصار فليحقوا بيشرب ، وأما خزاعة فليحقوا بتهامة ، وأما الأزدي فليحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى - أعشى بنى قيس بن ثعلبة - واسمه : ميمون بن قيس :

(٢) فى ت ، س : « فى » .

(١) فى ت : « فسار » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .

(٤) فى ت : « بنو حنيفة » .

(٥) زيادة من ت ، والطبرى .

(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفِي ذَٰلِكَ لِلْمُؤْتَسَى (١) أَسْوَةٌ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حَمِيرٌ
فَأَرْوَى الزَّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا
فَصَارُوا أَيَْادِي مَا يَقْدُرُوا
وَمَارَبُ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرَمُ
إِذَا جَاءَ مَوَارُهُ لَمْ يَرْمُ
عَلَى سَعَةِ مَاؤُهُمْ إِذْ (٢) قُسِمَ
نَ مِنْهُ عَلَى شَرْبِ طِفْلِ فُطِمَ (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرة ودلالة لكل عبد صبار (٤) على المصائب ، شكور على النعم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العيزار بن حريث عن عمر بن سعد ، عن أبيه - هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمَدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ ، يُؤْجِرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ » .

وقد رواه النسائي فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السبيعي ، به (٦) - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا (٧) ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ . وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » (٨) .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن (٩) قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] (١٠) تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ .

(١) فى ت : « وفى ذلك للمؤتسى » .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .

(٣) فى ت : « صبار شكور على » .

(٤) فى ت : « صبار شكور على » .

(٥) فى ت : « خير له » .

(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .

(٧) فى ت : « خير له » .

(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .

(٩) فى ت : « وعن » .

(١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرَجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، ثم قال (١) : ﴿ ثُمَّ لَا تَيْنَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة .

وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط (٢) إبليس فرحاً بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأيوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدّه (٣) وأُمنيّه وأخذعه » . فقال الله : « وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغرر بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبتّه ، ولا يسألني إلا أعطيتّه ، ولا يستغفرني إلا غفرت له » . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضلّ من ضلّ من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بَيَّنَّ (٤) تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِّنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِّنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾ أى : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس لله من (٥) هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

(٣) فى ت ، س : « أغره » .

(٢) فى أ : « أهبط » .

(١) فى ت ، س : « وقال » .

(٥) فى ت : « فى » .

(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبید لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال (١) : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] (٢) وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى] ﴾ (٣) [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٤) ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله - : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فیدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع (٥) ، وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبي ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك والحسن ، وقاتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلَّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعا - : « [حَتَّى] (٦) إِذَا فَرَّغَ » بالغين (٧) المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة .

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

(٣) زيادة من ت ، أ .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى ت : « ثم قال » .

(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٧) فى ت : « بالغين » .

(٦) زيادة من أ .

(٥) فى س ، أ : « تسمع » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة ^(١) . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكرمة ، سمعت أبا هريرة ^(٢) يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق ، وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع - هكذا بعضه ^(٣) فوق بعض - ووصف سفيان بيده - فحرقها وبدد ^(٤) بين أصابعه - فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر ^(٥) أو الكاهن : فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا ^(٦) وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة ، به ^(٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ [جالسا] ^(٨) فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : « من الأنصار » - فرمى بنجم فاستنار ، [قال] ^(٩) : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يؤلّد عظيم ، أو يموت ^(١٠) عظيم - قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبى ﷺ - قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه ^(١١) الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يُلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] ^(١٢) : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد ^(١٣) . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كيسان ،

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .

(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .

(٣) فى أ : « بعضهم » .

(٤) فى أ : « وسدد » .

(٥) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .

(٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .

(٨) فى ت ، س : « ويموت » .

(٩) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٠) فى ت ، س : « وكذا ، يوم كذا » .

(١١) فى ت ، س : « السماء » .

(١٢) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعي ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله ^(١) ، أربعتهم عن الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به ^(٢) . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار ^(٣) . وكذا رواه النسائي ^(٤) في « التفسير » من حديث الزبيدي ، عن الزهري ، به ^(٥) . ورواه الترمذي فيه عن الحسين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه ^(٦) ، والله ^(٧) أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف - قالوا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد ^(٨) بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سمعان ^(٩) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه ^(١٠) رجفة - أو قال : رعدة - شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعبوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سماء سألها ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به ^(١١) . قال ابن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفى ، عن ابن عباس - وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إichاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

(١) فى س : « بن عبد الله » .

(٢) ، (٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .

(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائي والترمذي » .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٢٢٤) .

(٦) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .

(٧) فى س : « فآله » . (٨) فى أ : « زيد » .

(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .

(١٠) فى أ : « منها » .

(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبي عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن

عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق (١) ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء (٢) والأرض - أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عكرمة وزيد بن أبي مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفي ضلال مبين .

وقوله : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتهم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن (٣) كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] (٤) الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُورَثُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ - ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم (٥) العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا . ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

(١) فى ت : « يفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .

(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإِن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شيء ، وَغَلَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا
تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه (١) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ ﴾ (٢) : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله (٣) تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾
[الفرقان : ١] . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر (٤) من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾
[يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ : يعنى : إلى الناس عامة .

وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله
أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهراني ، حدثنا حفص بن عمر العدني ، حدثنا الحكم -
يعنى : ابن أبان (٦) - عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدا ﷺ على أهل
السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله (٧) على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ،
فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :
« أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض
مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد
قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » (٨) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٩) . قال مجاهد :
يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٢) فى ت : « للناس بشيرا » . (٣) فى ت ، س : « لقوله » .

(٤) فى ت : « لقوله » . (٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٤) فى س : « يبشر » .

(٧) فى ت ، س : « فما فضله » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .

(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) .

صَادِقِينَ ﴿ ١٨ 〉 ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا يتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الدليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم ^(١) أكثر من أننا دعوناكم فاتبعتمونا من غير ^(٢) دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغرّونا وتُمنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين .

قال قتادة ، وابن زيد ^(٣) : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبهاً وأشياء من

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلُّ نَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ .

﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) أى : إنما نجازيكم بأعمالكم (٢) ، كُلُّ بِحْسَبِهِ ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان (٣) بن الأصبهاني ، عن أبى سنان ضرار بن صرد ، عن عبد الله بن أبى الهذيل (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم (٥) إلا سقط على العرقوب » (٦) .

وحدثنا (٧) أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخشنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب . قال : فحدثته أبا سليمان - يعنى : الداراني ، رحمة الله عليه (٨) - فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُل فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣٩) ﴿

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه (٩) متترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قويم نوح : ﴿ أَنْزَمْنِي لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .

(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .

(٦) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهاني ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهاني وهو ضعيف » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مَجْرِمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴿٣﴾﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴿٤﴾] [الإسراء : ١٦] . وقال هاهنا : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴿٥﴾ أَي : نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿٦﴾ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٧﴾﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ أَي : لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَتَّبِعُهُ .

قال (٢) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكان (٣) خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما (٤) اتبعه أراذل (٥) الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه - قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب - قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : «إلى كذا وكذا» . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : «وما علمك بذلك ؟» قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم . قال : فتزلت هذه الآية (٦) : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [الآيات (٧)] ، قال : فأرسل إليه النبي ﷺ «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت» (٨) .

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٩﴾﴾ أَي : افتحروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴿١١﴾﴾ بها في الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر : ١١ - ١٧] .

(٣) في ت ، س : «شريكين» .

(٢) في ت : «روى» .

(١) زيادة من ت .

(٥) في ت ، س : «رذالة» .

(٤) في س : «إلا» .

(٧) زيادة من ت ، س .

(٦) في ت ، س : «الآيات» .

(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما في الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع في الدر : «ابن زيد» بدل : «أبو رزين» .

(٩) في ت ، س : «أن يعذبهم» .

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئاً ، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ أى : ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا كثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ (٢) : « إِنْ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجه ، من حديث كثير بن هشام ، عن جعفر ابن بُرقان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تَرَى ظَهْرَهَا مِنْ بَطُونِهَا ، وَبَطُونَهَا مِنْ ظَهْرِهَا » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لِمَنْ طِيبَ الْكَلَامِ ، وَأَطْعِمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، [وَصَلَى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامَ] (٨) » (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، ييسط على هذا من المال كثيراً ، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معاتق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مَوْسَعٌ عَلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ : هَذَا فِي الْغُرَفَاتِ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَهَذَا فِي الْغَمَرَاتِ فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ . وَأَطِيبِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » . رواه مسلم من حديث ابن عمرو (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث (٢) : « يقول الله تعالى : أنفق (٣) أنفق عليك » (٤) . وفي الحديث : أن ملكين يصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمَسِّكًا تَلَفًا » ، ويقول الآخر : « اللهم أعط مُنْفِقًا خَلَفًا » (٥) وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا » (٦) .

وقال (٧) ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْمٌ عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا إِنَّ بَعْدَكُمْ (٨) زَمَانٌ عِصْوَضٌ ، يَعْصِي الْمَوْسِرُ عَلَى مَا فِي يَدِهِ (٩) حَذَارُ الْإِنْفَاقِ » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١٠) .

وقال (١١) الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيْمٌ ، عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا إِنَّ بَعْدَ زَمَانِكُمْ هَذَا زَمَانٌ عِصْوَضٌ ، يَعْصِي الْمَوْسِرُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ حَذَارُ الْإِنْفَاقِ » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، وَيَنْهَلُ شَرَارُ الْخَلْقِ يَبَايِعُونَ كُلَّ مُضْطَرٍ ، أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمُضْطَرِينَ حَرَامٌ ، [أَلَا أَنْ بَيْعَ الْمُضْطَرِينَ حَرَامٌ] (١٢) الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَعْرُوفٌ ، فَعُدُّ بِهِ عَلَى أَخِيكَ ، وَإِلَّا فَلَا تَرُدَّهُ هَلَاكًا إِلَى هَلَاكِهِ » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده ضعف (١٣) .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) في ت : « في الصحيح » . (٣) في أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم في صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم في صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبي حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفه . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٤٢) ، وأبو يعلى في مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبي إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) في ت : « وروى » . (٨) في س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) في ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطي في الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) في ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبي يعلى في مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان : ﴿ أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وكما يقول لعيسى : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين ^(١) يزینون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ^(٢) ، ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ (٣) مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ (٤) إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ - وهم المشركون - ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريباً وتوبيخاً .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تلى

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلونهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله (١) ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكننا أهدي من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا . وكذلك (٢) قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي (٣) ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُغْرِ ﴾ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُغْرِ ﴾ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياماً خالصاً لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضاً ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُغْرِ ﴾ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسدي ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثاً لم يعطهن من قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعِثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبي يبعث

(٢) فى ت ، س : « وكذا » .

(١) فى ت : « رسول الله » .

(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابي وانتصاري لرسلي » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أتمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال الله : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ﴾ ، وأعنت بالربع مسيرة شهر بين يدي - فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفردى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير (٣) ، عن ابن عباس قال : صعد النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكُم ، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك ! ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتهم ، فبعثوا رجلاً يترأى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم - ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعاً ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧)
 ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤٨) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٥٠) .

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أى : عالم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى الله عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .

(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وإسناده » .

(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] ﴾^(١) [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم^(٢) بسية قوسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن أبى معمر عبد الله بن سخرية ، عن ابن مسعود ، به^(٣) .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد هاهنا^(٤) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة : أقول فيها برأى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه^(٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال]^(٦) : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا^(٧) قريبا مجيبا^(٨)» .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۖ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۖ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۖ (٥٣) ﴾

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .

(٤) فى ت : « الآية » .

(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .

(٦) فى أ : « سميعا بصيرا » .

(٧) زيادة من ت ، أ .

(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى - يا محمد - إذا فزع هؤلاء المكذبون ^(١) يوم القيامة ، ﴿ فَلَا فُوتَ ﴾ أى : فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخْذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يمتنعون فى الهرب ^(٢) ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ^(٣) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى ^(٤) الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين ^(٥) رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسول ؟

﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْقَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْقَيْبِ ﴾ قال : بالظن .

(١) فى ت : « المكذبن » . (٢) فى ت : « لم يكونوا أى يمتنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يكونوا أن يمتنعوا فى الهرب » .

(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب ^(١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى : الإيمان .

وقال السدّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] ^(٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثراً غريباً [عجبياً] ^(٣) جداً ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا بشر بن حجر السامى ^(٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَّرْقِيِّ بْنِ قُطَامٍ ، عن سعد بن طريف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحاً - أى : فتح الله له مالا - فمات فورثه ابن له تافه - أى : فاسد - فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجة فسرّح فيها ماله ، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمكت عليه [ريح] ^(٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرجًا - أى : ريحًا - فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل . قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يهنئك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إني امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وأنتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يهولنك . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فأنتهى إلى قصر ، ففرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرجًا - أى : ريحًا - فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلي . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] ^(٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

(٣) زيادة من س ، أ .

(٢) زيادة من ت .

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » .

(٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

(٤) فى ت : « الشامى » .

فاها ، ففزعت ، فَوَكَّبَتْ فإذا أنا من ورائها ، وإذا جِراؤها ينبحن في بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم وَيَزَيِّمُ حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفِّلَ ، وإذا فيها جدى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتني شجرة أخرى : « يا عبد الله ، منى فخذ » . حتى ناداني الشجر أجمع : « يا عبد الله ، منى فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تصدعوا عنه صَبَّ في جرّته فلم تَعْلَقْ جرّته من الماء بشيء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا يقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذنبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال : أما العنز فهي الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها . وأما الذى يحلبها فَبَخ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمتح على قلب ، كلما أخرج (٦) دلوه صَبَّه في الحوض ، فانساب الماء راجعاً إلى القلب . قال : هذا رجل رَدَّ الله [عليه] (٧) صالح عمله ، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل يبذر بذراً فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة . قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد الله ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فوالله ما قعدت منذ خلقنى الله فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمر الأبعد نفد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى الله بِقَبْضِ رُوحِ الأبعد في هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون ﴾ الآية .

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .

(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .

(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب (١) ، وفي صحته نظر ، وتنزيل [هذه] (٢) الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهي .

وقوله : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة النذاب .
قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الاثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .
(٢) زيادة من ت .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

قال سفيان الثوري ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١) : أنا فطرتهما ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض . (٢)

وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو : خالق السموات والأرض .
وقوله : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُولِي أَجْنَحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣) ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء .
وقال الزهري ، وابن جرير (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى : حسن الصوت . رواه عن الزهري البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .
وقرئ فى الشاذ : « يَزِيدُ فى الخلق » ، بالحاء المهملة ، والله أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .
قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن وراد - مولى المغيرة بن شعبة - قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعت من رسول الله ﷺ . فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت (٦) رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

(١) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) رواه البيهقي فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيى بن سعيد عن سفيان به .

(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، وسمعتة ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به (١) .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء (٢) والأرض (٣) ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٤) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا (٥) نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْنِ تَوْفُكُونَ ﴾ (٣) .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة (٧) ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْنِ تَوْفُكُونَ ﴾ (٨) ، أي : فكيف توفكون (٩) بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

يقول : وإن يكذبوك - يا محمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

(١) المسند (٤/٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .

(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .

(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .

(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .

(٦) الموطأ (١/١٩٢) .

(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » .

(٨ ، ٩) فى س ، أ : « يوفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿وَالَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء .
ثم قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾
أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا (٣)
عن ذلك (٤) الباقي بهذه الزهرة الفانية ، ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس .
أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك .
وهذه الآية كالأية التى فى آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة
حين يضرب ﴿بَيْنَهُمْ سُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا
بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿
[الحديد: ١٣ ، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (٥) أى : هو
مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى : إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا
هو العدو المبين . فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ،
والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقولهِ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بُنِيَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عادت إبليس
من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا
تطاوعوه] (٧) .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾ (٧) أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا
تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) .

لما ذكر [الله] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن
الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله

(٣) فى أ : « فلا يلتهاوا » .

(٢) فى ت : « ما وعد » .

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » .

(٥) فى س بعدها : « إنما يدعو حزبه » .

(٤) فى س : « ذاك » .

(٨) زيادة من ت .

(٧) زيادة من ت ، أ .

(٦) فى ت : « للشياطين »

(١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

(٩) زيادة من ت ، أ .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى : لما كان منهم من ذنب ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسنون ^(١) أنهم يحسنون صنعا ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك ، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل ^(٢) ويهدي من يهدي ^(٣) ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

وقال ^(٤) ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السبباني - أو : ربيعة - عن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له : الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » ^(٥) .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشر ^(٦) ، حدثنا يحيى بن معين ^(٧) ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل ^(٨) ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذى يهدي من ^(٩) الضلالة ، ويلبس الضلالة على من أحب » ^(١٠) .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(٢) ، (٣) فى أ : « يشاء » .

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسون » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرک (٣٠ / ١) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله الديلمي بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السبباني عن عبد الله الديلمي بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ، والصواب ما أثبتناه .

(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدي من يشاء من » .

(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (٢٥٠ / ١) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠ / ٥) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قرشى عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١٢٦ / ٢) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قرشى عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما فى [أول] (١) سورة الحج - ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها (٢) السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد (٣) ، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم (٤) الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت (٥) الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وتقدم فى « الحج » (٦) حديث أبى رزین : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزین ، أما مررت بوادى قومك محلاً (٧) ثم مررت به يهتز خضراً ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى » .

وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَفُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقال قتادة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : فليتعزز بطاعة الله عز وجل .

وقيل : من كان يريد علم العزة ، لمن هو ، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسي ، أخبرنى جعفر بن عون ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، عن عبد الله بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم (٨) قال :

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .

(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .

(٦) عند الآيات ١٢ - ١٦ .

(٧) فى ت ، س ، أ : « محلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجريري (١) ، عن عبد الله بن شقيق قال (٢) : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » لدويا حول العرش كدوى النحل ، يُدَكَّرْنَ بصاحبهن ، والعمل الصالح في الخزائن (٣) . وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه الله ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْرٍ ، حدثنا موسى - يعني : ابن مسلم الطحان - عن عون بن عبد الله ، عن أبيه - أو : عن أخيه (٤) - عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به؟ » (٥) .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد (٦) القطان ، عن موسى ابن أبي [عيسى] (٧) الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبيه - أو : عن أخيه - عن النعمان بن بشير ، به (٨) .

وقوله : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ : قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله ، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والسدي ، والربيع بن أنس ، وشهر بن حوشب ، وغير واحد [من السلف] (٩) .

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وشهر بن حوشب : هم المارؤون بأعمالهم ، يعنى : يمحرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بغضاء إلى الله

(١) فى أ : « سعيد بن الجريري » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .

(٣) تفسير الطبري (٢٢/٨٠) .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٥) المسند (٢٦٨/٤) .

(٦) فى أ : « عيسى » .

(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد (١) سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرأى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفردون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف (٢) لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ ﴾ [الرعد : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .
وروى من طريق العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عمر (٤) وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده .
وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .

(٤) فى ت ، س : « العمر » .

(١) فى أ : « أحد » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله (١) ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] (٢) الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُيسَّطَ له فى رزقه ، ويُنسأَ له فى أجله (٣) فليصل رحمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيلى ، به (٤) .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة (٦) بن عبد الله ، عن عمه أبى مشجعة بن ربيع ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢) .

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال ،

(١) فى أ : « رواه » .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم (١٦٩٣) .

(٥) فى أ : « سلمة » .

(٦) فى ت « وروى » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّةً ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، أى : مر .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ ^(١) ﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جَوْجُو الطير - وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ^(١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ^(١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياءه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا ^(٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرأ من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ^(٣) ﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ، ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون ^(٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ .

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .

(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .

(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .

(٤) فى س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون (١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى : لا يقدر (٣) على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ﴾ ، أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ لِمَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] .
وقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَّىٰ فَاِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذلله بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقول ، ويقدره ويشعره .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ، أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباهاً أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾] (٥) [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

(٣) فى ت : « يقيمون » .

(٢) فى أ : « دعاءهم » .

(١) فى ت ، أ : « يسمعون » .

(٦) فى ت : « كما قال » .

(٥) زيادة من ت .

(٤) فى ت ، س : « المنفرد » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيراً ، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة - أو : يا هذه - أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيراً ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لى ، لعلنى أنجو بها مما ترين . قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت . ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول الله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ ﴾ (٣) الآية ، ويقول الله : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُفَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، عن أبى عبد الله الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، به .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ (٥) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : ومن عمل صالحاً فلإنما يعود نفعه على نفسه ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ

(٣) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٥) فى س : « ينذر » .

(٤) فى أ : « الطبرانى » .

مَنْهَا ﴿ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] فالْمُؤْمِنُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ فِي نَوْرِ يَمْشِي ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَاتِ ذَاتِ الظَّلَالِ وَالْعَيُونِ ، وَالْكَافِرُ أَعْمَى أَصَمٌ ، فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي ، لَا خُرُوجَ لَهُ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ يَتِيهِ فِي غِيهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يَفْضِيَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْخُرُورِ وَالسُّمُومِ وَالْحَمِيمِ ، ﴿ وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : كما لا [يسمع و ^(١)] ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، واللّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء .
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ، ﴿ وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى : وما من أمة خلعت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذير ، وأزاح عنهم العليل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ الآية [النحل : ١٣٦] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ وهى الكتب ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : ومع هذا كله كَذَّبَ أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به ، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف رأيت ^(٢) إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى منها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشئ الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى ^(٣) بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمرة ، وفى بعضها طرائق - وهى : الجُدَدُ ، جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : الجُدَدُ : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى (١) .

ومنها ﴿غَرَايِبُ سُودٌ﴾ ، قال عكرمة : الغرايب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غريب . ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿وَغَرَايِبُ سُودٌ﴾ أى : سود غريب . وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و (٢)] كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب - وهو : كل ما دب على قوائم - والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَإِخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَضُ ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . وروى مرسلًا وموقوفًا ، والله أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير .

وقال ابن لهيعة ، عن ابن أبى عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن (٦) من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .

(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : الإيمان مَنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) الله ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم ، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ ، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم .

قال قتادة : كان مُطَرَّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

(٢) فى ت : « المرى » .

(٤) زيادة من ت ، س ، ١ .

(١) فى ت ، س : « من » .

(٣) فى ت ، س : « فرضه » .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دراجاً أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سبعة (٣) أصناف من الخير لم يعمله ، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سبعة (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) » . غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت (٦) له بالتنويه (٧) ، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه . ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات . ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا] ﴾ (٩) ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العتبي قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جريج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

(٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .

(٢) فى أ : « عز وجل » .

(١) فى ت : « وروى » .

(٥) المسند (٣٨/٣) ودراج له منكر وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .

(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .

(٩) زيادة من ت ، س .

(٨) فى ت : « أقسام » .

(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » .

(١٠) فى ت : « ورثهم الله كتاباً » . (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتي » . قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) روى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو (٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر . وكذا روى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة ، عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، قال : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسم . وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضمرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدي ، عن أبي الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

(١) المعجم الكبير (١٨٩/١١) وابن جرير مدلس وقد عنعن .

(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .

(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .

(٧) المسند (٧٨/٣) وتفسير الطبرى (٩٠/٢٢) .

(٨) زيادة من س ، أ .

(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء » .

(١٠) فى أ : « فأولئك الذين » .

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم ^(١) برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ ^(٢) .

طريق أخرى ^(٣) : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحسب حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد ، فجلس إلى جنب أبي الدرداء ، فقال : اللهم ، آس وحشتي ، وارحم غربتي ، ويسر لي جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ » ^(٤) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه ^(٥) الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ^(٦) ، عن أسامة بن زيد : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » ^(٧) .

الحديث الرابع : قال ^(٨) ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عزيز ، حدثنا سلامة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عوف ^(٩) بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحسون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا ^(١٠) ، أدخلوهم الجنة بقولهم : « لا إله إلا الله وحده » واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْمَلُ فِي شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، فجعلهم ثلاثة أنواع ^(١٢) ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

(١) في ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .

(٢) المسند (١٩٨/٥) .

(٣) في ت : « وروى من طريق أخرى » .

(٤) تفسير الطبري (٩٠/٢٢) ورواه الحاكم في المستدرک (٤٢٦/٢) ومن طريقه البيهقي في البعث برقم (٦٢) من طريق الأعمش ، به .

(٥) في أ : « عبد الله » . (٦) في ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني بإسناده » .

(٧) المعجم الكبير (١٦٧/١) وقد وقع في إسناده سقط ، ورواه البيهقي في البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو بن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه عيسى ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد ، به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن غمير عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد ، بنحوه .

(٨) في ت : « رواه » . (٩) في أ : « أنس » .

(١٠) في س : « إلا الله » . (١١) في س : « ولتحملن » . (١٢) في ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثني ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ (٢) الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسي ، عن الصلت بن دينار أبو شعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهبان الهنائي قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، عن قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك ، رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عوف الأعرابي : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَا ذَنْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ قال : فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ يَا ذَنْنُ اللَّهِ ﴾ قال : تماسّت منابكهم ورب كعب (٧) ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

(١) ورواه الطبراني فى المعجم الكبير (٨٠ / ١٨) من طريق محمد بن عزيز ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (٩٦ / ٧) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقيته رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسي .

(٤) مسند الطيالسي برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج .

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله .

ورواه الثوري ، عن إسماعيل بن سميع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه . وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني : الباقر - عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ فقال : هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول : قيس بن كثير - عن أبي الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخاري » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم في أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالي » (٨) .

﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٣٣)

(١) في ت : « وعن » .

(٢) في ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » .

(٣) في س : « فيها » .

(٤) في أ : « العلم رضا بما يصنع » .

(٥) في ت : « رواه » .

(٦) المسند (١٩٦/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذي برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٣) .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ .

(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ .

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم ، عز وجل ، ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية ^(١) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ^(٢) .

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة » . وقال : « [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة] ^(٣) هى لهم فى الدنيا ولكم ^(٤) فى الآخرة » .

وقال ^(٥) ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السرحى ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لبيبة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ؛ أن أبا أمامة حدث : أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد مرد مكحلون » ^(٦) .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منبرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله » ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ » . رواه ابن أبى حاتم من حديثه ^(٧) .

وقال ^(٨) الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي ، حدثنا يحيى بن موسى ^(٩) المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور ^(١٠) » . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ » ^(١١) .

(١) فى ت : « الحليلة » ، وفى أ : « الحلة » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .

(٣) زيادة من ت ، أ .

(٤) فى س : « ولنا » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد ، به . والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٢٧١/٤) من طريق يحيى الحماني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » . وقال المنذرى فى

الترغيب (٤١٦/٢) : « فى متنه نكارة » .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .

(١٠) فى س : « منبرهم » .

(١١) قال الهيثمى فى المجمع (٣٣٣/١٠) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٦٥/٢) والبيهقى فى

البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه ، وقال البيهقى : « هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَرَ لَهُمُ الْكَثِيرُ ^(١) من السيئات ، وشكر لهم السير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله وَمَنَّهُ ^(٢) ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » ^(٣) .

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ^(٤) ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدبُّون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ^(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ^(٣٧) .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » ^(٥) . قال [الله] ^(٦) تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا حَبَتِ زُنُودُهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله ، عز وجل ، بأصواتهم : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

(٢) فى س : « ومته » .

(١) فى أ : « الكبير » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .

(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .

(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب ، جل جلاله ، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلماذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر : ١١ ، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أى : أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلّموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّرَ (٢) بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيباني .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن رجل ، عن وهب بن منبه في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هشيم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضاً] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد (٦) ، عن ابن عباس قال : العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نباتة ، عن علي ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة .

(٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .

(٦) فى ت : « وفى رواية أخرى » .

(٢) فى أ : « نغتر » .

(٥) فى أ : « خثيم » .

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ .

(٤) زيادة من س .

(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا دُحَيْمٌ ، حدثنا ابن أبي فُدَيْكٍ ، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي ، عن ابن أبي حُسَيْنِ المكي ؛ أنه حدثه عن عطاء - هو ابن أبي رباح - عن (١) ابن عباس ، رضى الله عنهما (٢) ، أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال الله فيه : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل (٣) بن أبي فُدَيْكٍ ، به . وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فُدَيْكٍ ، به (٤) . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم .

حديث آخر : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن رَجُلٍ من بنى غفَّارٍ ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه ، لقد أعذر الله إليه » (٦) .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّرٍ ، عن عُمَرُ بن على ، عن مَعْنُ بن محمد الغفَّارى ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخر عمره حتى بلغه ستين سنة » . ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجَلان ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ (٧) .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارِيُّ ، حدثنا محمد بن سَوَّارٍ ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارى الإسكندري ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « [من عمره] (٨) الله ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائي فى الرقاق جميعا عن قتيبة ، عن يعقوب بن عبد الرحمن ، به (٩) .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » . يعنى : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ (١٠) .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني محمد بن

(٢) فى ت ، س : « عنه » .

(١) فى ت : « فقال ابن أبي حاتم بإسناده إلى » .

(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٣/٢٢) والمعجم الكبير للطبراني (١٧٧/١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٩٧/٧) : « وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) المسند (٢٧٥/٢) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .

(٨) زيادة من ت ، والطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٩٣/٢٢) والمسند (٤١٧/٢) والنسائي فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٤٧٢/٩) .

(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٥٥/٣) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبي هريرة ، رضى الله عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ، عز وجل ، إليه في العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ (١) ، به (٢) . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبي معشر ، عن سعيد المقبري .

طريق أخرى عن أبي هريرة : قال ابن جرير : حدثني أحمد بن الفرّج أبو عتبة (٣) الحمصي ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لقد أعذر الله عز وجل ، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » (٤) .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن (٥) إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبّت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ الْمَسَرَّةُ وَالْفَتَاءُ (٦)

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٧) .

وهذا عَجَبٌ من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى ، عن أبي هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان (٨) بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ، عن كامل أبى العلاء ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري ، عن محمد بن ربيعة ، به (٩) . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

(١) فى أ : « المقبرى » .

(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .

(٣) فى أ : « أبو عينة » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .

(٥) فى س : « لم تكن » .

(٦) البيت نسبته أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .

(٨) فى أ : « سليم » .

(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضوعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فديك ، حدثني إبراهيم ابن الفضل - مولى بنى مخزوم - عن المقبرى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرَكُ المَنَيا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَقَلُّ أُمْتى أَبْناءُ سبعين » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدي ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن ربِيعى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أثبتنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ، ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعنى : الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُ . لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] ، أى : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل ، فأبیتم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .
﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/٤٢٢ ، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلَّافٍ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ ، أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحب خالقه وبارئته رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى : ليس لهم شيء من ذلك ، ما يملكون من قاطمير .

وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستتر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

(٢) فى ت : « وعليه » .

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .

(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

(٣) زيادة من أ .

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكرًا ، فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثني هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن (١) أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام (٢) ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ، عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا (٣) ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة ، وأمره أن (٤) يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحدهما (٥) عن الأخرى ، حتى نام نومه ، فاصطفقت يداه فتكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٦) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام ، أجل من أن يُجَوَّزَ على الله ، سبحانه وتعالى ، النوم ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وثبت فى الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٧) .

وقد قال أبو جعفر بن جرير (٨) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله - هو ابن مسعود - فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال : ما حدثك كعب ؟ قال : حدثني أن السموات تدور على منكب ملك . قال : أفصدقته أو كذبت ؟ قال : ما صدقته ولا كذبت . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها ، كذب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٩) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جندب البجلي إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه (١٠) . وقد رأيت فى مصنف الفقيه (١١) يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان - يعنى : عبد الملك بن الحسن - عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

(١) فى ت : « بسنده إلى أبي هريرة » . (٢) فى ت : « ﷺ » . (٣) فى ت : « ثلثا » .

(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .

(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢١/١٢) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .

(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .

(٩) تفسير الطبرى (٩٤/٢٢) .

(١٠) تفسير الطبرى (٩٥/٢٢) .

(١١) فى س ، أ : « للفقهاء » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ ﴾ (٤٢) استَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ ﴾ (٤٣) .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّا عِدْنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٧-١٧٠] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ - وهو : محمد ﷺ - بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفرًا إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ استَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » [(٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينبج حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى (٩) : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٢٤٠ / ٤) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال ، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٤) فى ت : « على » .

(٣) فى ت : « ما زادوهم » .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » .

(٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٥) فى ت : « روى » .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهري مرسلأ نحوه .

(٩) فى ت : « يعنى » .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » .

مكذب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿ (٤٥) .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلّيت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثوري ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجعلل أن يعذب فى جحره بذنوب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ .

وقال سعيد بن جبير ، والسدى فى قوله : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الدواب .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ولكن يُنظرهم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » ولله الحمد والمنة

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .

(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم » .

(٣) فى ت : « روى » .

تفسير سورة يس

[وهى] (١) مكية .

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى ، عن الحسن بن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة (٢) ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفى الباب عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة منظور فيه (٣) .

أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول (٤) . وأما حديث أبى هريرة فقال (٥) أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ، حدثنا زيد - هو ابن الحباب - حدثنا حميد - هو المكى ، مولى آل علقمة - عن عطاء - هو ابن أبى رباح - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول (٧) : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى فيها الدخان أصبح مغفوراً له » . إسناده (٨) جيد (٩) .

وقال (١٠) ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم - مولى ثقيف - حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خيثمة ، حدثنا محمد بن جحادة ،

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « روى أبو عيسى الترمذى بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٧) وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٥٦/٢) بعد ما ذكر الحديث : « قال أبى : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل وهو حديث باطل لا أصل له . قلت لأبى : مقاتل أدرك قتادة ؟ قال : وأكبر من قتادة أبو الزبير » .

(٤) نوادر الأصول ص (٣٣٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢١٧) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٦٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (٢٤٧/١) من طرق عن إسماعيل بن أبى أويس عن محمد بن عبد الرحمن الجلعانى عن سليمان بن مرقاع عن هلال ابن الصلت عن أبى بكر ، رضى الله عنه . وقال ابن الجوزى : « هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) مسند البزار برقم (٢٣٠٤) « كشف الأستار » .

(٧) فى ت : « وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال » . (٨) فى ت : « إسناده » .

(٩) مسند أبى يعلى (٩٣/١١) وفى إسناده هشام بن زياد ضعفه الأئمة ، وقال ابن حبان : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها ، لا يجوز الاحتجاج به » . والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وانظر التعليق على أبى يعلى عند قوله : « سمعت » .

(١٠) فى ت ، أ : « وروى » .

عن الحسن ، عن جُنْدَب بن (١) عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله ، غفر له » (٢) .

وقد قال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يسار ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، واستخرجت ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو : فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرؤها على موتاكم » .

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ، عن معتمر بن سليمان ، به (٤) . ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمي ، عن أبي عثمان - وليس بالنهدى - عن أبيه ، عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤها على موتاكم » - يعنى : يس .

ورواه أبو داود ، والنسائي في « اليوم والليلة » وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك ، به (٥) إلا أن في رواية النسائي : عن أبي عثمان ، عن معقل بن يسار . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة : أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله . وكأن قراءتها عند الميت لتتزل الرحمة والبركة ، وليسهل (٦) عليه خروج الروح ، والله أعلم . قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعنى يس - عند الميت خُفِّفَ عنه بها (٧) .

وقال (٨) البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ (٩) : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » - يعنى : يس (١٠) .

(١) فى أ : « عن » .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٦٦٥) « موارد » والحسن لم يسمع من جندب ، قاله أبو حاتم .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) المسند (٢٦/٥) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٤) وقد أعله ابن القطان كما فى التلخيص لابن حجر (١٠٤/٢) بثلاث علل : الاضطراب فى الإسناد ، وبالوقف ، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه . ثم نقل عن الدارقطني قوله : « هذا حديث ضعيف الإسناد ، مجهول المتن ، ولا يصح فى الباب حديث » .

(٥) المسند (٢٦/٥) وسنن أبي داود برقم (٣١٢١) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٤٨) .

(٦) فى ت ، س : « وتسهل » .

(٧) المسند (١٠٥/٤) .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) فى ت : « رسول الله » .

(١٠) مسند البزار برقم (٢٣٠٥) « كشف الأستار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسَ ١ ﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٤ ﴾
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٥ ﴾ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿ ٦ ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٧ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول « سورة البقرة » : ورؤى عن ابن عباس وعكرمة ،
والضحاك ، والحسن وسفيان بن عيينة ^(١) أن « يس » بمعنى : يا إنسان .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك في لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿ إِنَّكَ ﴾
يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، ﴿ تَنْزِيلَ
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنْزَلٌ من رب العزة ، الرحيم بعباده
المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاها من
نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم [كما زعمه بعض النصارى] ^(٢) ، كما أن ذكر
بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ، صلوات
الله وسلامه عليه ، عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ : قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن
[الله قد] ^(٣) حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من
جُعِلَ فى عنقه غُلٌّ ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسه ، فصار مقمحا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ ﴾ ، والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع فى كلامها : « وأشرب فأقمح » أى :

أشرب فأروى ، وأرفع رأسي تهنيئاً وترّوياً . واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر (١) :

فَمَا أَدْرَى إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتَلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه (٢) ، وكذا هذا ، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمَعَ اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقول الله (٣) تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة (٤) إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو (٥) رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ : قال مجاهد : عن الحق ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى : أغشنا أبصارهم عن الحق ، ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « فأغشيناهم » بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٦) ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه (٧) كتتم ملوكا ، فإذا متم (٨) بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جناتٌ خير من جنات الأردن . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعَذَّبون بها . وخرج [عليهم] (٩) رسول الله ﷺ عند ذلك ، وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٩٨ / ٢٢) .

(٢) فى ت : « لما دل عليه السياق » .

(٤) فى ت : « موثوقة » .

(٣) فى ت : « كقوله » .

(٧) فى ت : « بايعتموه » .

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٥) فى ت ، س : « رافعى » .

(٩) زيادة من أ .

(٨) فى ت : « أنتم » .

حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا [قد] (١) وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي (٢) جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٣) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال .

وفى قوله : ﴿ وَأَثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وأثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل (٤) بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » .

رواه مسلم ، من رواية شعبة ، عن عون بن أبي جحيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي ، رضى الله عنه ، وفيه قصة مُجْتَابَى النَّمَارِ الْمُضْرِيَّ (٥) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبي المحياة يحيى بن يَعْلَى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَارَهُمْ ﴾ .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عَوَانَةَ ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره (٦) .

(٢) فى ت : « قول أبى » وهو خطأ .

(١) زيادة من أ .

(٣) عند تفسير الآية السادسة .

(٤) فى أ : « يعمل » .

(٥ ، ٦) صحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله (٢) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة .

وقال ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : ما أثروا . يقول : ما سَنُوا من سنة ، فعمل (٣) بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً . ذكرهما ابن أبى حاتم . وهذا القول هو اختيار البغوى (٤) .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نجیح وغيره ، عن مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم . ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى (٥) مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل . وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول : قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » . قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجريرى وكهْمَس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة - واسمه : المنذر بن مالك بن قطعة العبدى - عن جابر (٧) .

الحديث الثانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد ، فنزلت : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٢) فى ت : « وعن مجاهد فى قوله » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٩/٧) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « عز وجل » .

(٦) فى ت : « رواه » .

(٧) المسند (٣٣٢/٣) وصحيح مسلم برقم (٦٦٥) .

(٣) فى أ : « يعمل » .

مَا قَدَّمُوا وَأَثَارَهُمْ ﴿١﴾ فقال لهم النبي ﷺ : « إن آثاركم تكتب » . فلم يتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى ^(١) عند تفسير هذه الآية الكريمة ، عن محمد بن الوزير ، به ^(٢) . ثم قال : « حسن غريب من حديث الثورى » ^(٣) .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى - عن أبي نضرة ، به ^(٤) .
وقد روى من غير طريق الثورى ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجى ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : إن بنى سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فأقاموا فى مكانهم .

وحدثنا ابن المنى ^(٥) ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث : قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن على الجهضمي ، حدثنا أبو أحمد الزيزى ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ^(٦) ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن يتقلوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فقالوا : ثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع ^(٧) .

ورواه الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فثبتوا فى منازلهم ^(٨) .

الحديث الرابع : قال ^(٩) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني حبي بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : توفى رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يا ليت مات فى غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ ^(١٠) : « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره

(١) فى ١ : « مسلم » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٦) .

(٣) فى ت : « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠٠ / ٢٢) .

(٥) فى س ، أ : « وحدثنا محمد بن المنى » .

(٦) تفسير الطبرى (١٠٠ / ٢٢) .

(٨) المعجم الكبير (٨ / ١٢) وشيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ضعيف .

(٩) فى ت : « رواه » .

(١٠) فى ت ، س : « النبي » .

فى الجنة » .

ورواه النسائى عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حى بن (١) عبد الله ، به (٢) .

وقال (٣) ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تَمِيْلَةَ ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعت المشى ، فأخذ بيدى فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى ، فقال : يا أنس ، أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ (٤) .

وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك (٥) بطريق الأولى والأخرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَب ، فلأن تُكْتَبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجِيءً بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فُتْرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) ﴾ .

يقول تعالى : واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه - : إنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يقال له : انطيوخس بن انطيوخس بن انطيوخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم (٦) ، فكذبهم .

(١) فى أ : « عن » .

(٢) المسند (١٧٧/٢) وسنن النسائى (٧/٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٦١٤) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/١٠٠) .

(٥) فى ت : « وشكوم » .

(٦) فى أ : « ذاك » .

وهكذا روى عن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْب ، وَعِكْرِمَةَ ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .
وقد استشكل بعضُ الأئمة كونها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .
وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالكذب ، ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ، أى :
قويَناهم ^(١) وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جريج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائي قال : كان اسم الرسولين الأولين
شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم
بعبادته وحده لا شريك له . قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامه : أنهم كانوا رسل المسيح ، عليه السلام ، إلى أهل أنطاكية . ﴿ قَالُوا مَا
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحى إلينا مثلكم ؟ ولو
كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبه ^(٢) كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله :
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : ٦] ، فاستعجبوا ^(٣) من ذلك
وأنكروه . وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾
[المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ؟
[الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذُوبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله
إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن
تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٤)
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ : يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم
كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تطيعوا فستعلمون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨) قَالُوا
طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَتِنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (١٩) .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .
وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإتينا هو من أجلكم .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها .

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ : قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

(١) فى ت : « قويَناهما بثالث » . (٢) فى ت ، س : « شبهة » . (٣) فى ت ، س : « أى استعجبوا » .

(٤) فى ت ، س ، أ ، هـ : « يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى : مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح (١) : ﴿ أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .
وقوله : ﴿ أَتَنْذَرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .
وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) ﴾ .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأبحار ووهب بن منبه - : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه - قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجريز - وهو (٢) الحبال - وكان رجلا سقيما (٣) قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة ، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة (٤) .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه ، عن الحكم ، عن مقسم - أو : عن مجاهد - عن ابن عباس قال : [كان] (٥) اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه .

وقال الثوري ، عن عاصم الأحول ، عن أبي مجلز : كان اسمه حبيب بن مري .

وقال شبيب بن بشر (٦) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس [أيضا] (٧) قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قصارا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ، ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ، ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

(١) فى ت ، س : « لوط » وفى أ : « شعيب » . (٢) فى ت ، س ، أ : « يعنى » . (٣) فى أ : « مستقيما » .
(٤) فى أ : « الفطرة » . (٥) زيادة من ت ، س . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) زيادة من ت .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، ﴿ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .
 ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً ، فإن الله لو أرادنى بسوء ، ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونى مما أنا فيه ، ﴿ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله .
 وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ : قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب - يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاسمعوا قولى .
 ويحتمل أن يكون خطابه للرسول بقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إني [قد] (١) آمنت بربكم واتبعتمكم (٢) .

وهذا [القول] (٣) الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب - : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » . فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه الله .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دبره وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصَبها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتِلَ فوجبت له (٤) ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا تلقاه غاشياً ؛ لَمَّا عاين [ما عاين] (٥) من كرامة الله

(١) زيادة من ت .

(٢) تفسير الطبرى (١٠٤ / ٢٢) .

(٣) زيادة من ت .

(٤) فى ت ، س ، أ : « له الجنة » .

(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله [له] ^(١) ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصيح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته في قوله : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم .
وقال سفيان الثوري ، عن عاصم الأحول ، عن أبي مجلز : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : بإيماني بربي ، وتصديقي المرسلين .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال ^(٢) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن ^(٣) عبد الملك - يعني : ابن عمير - قال : قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي أَدْعُوهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدوني نائما ما أيقظوني . فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصْبَحَنَّك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحلَه فقتله ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس ، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ » ^(٤) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم : أنه حدث عن كعب الأبحار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم - أخو بني مازن بن النجار - الذي كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول : نعم . ثم يقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يَقْطَّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال في قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : ما كاثرتناهم بالجموع الأمر

(١) زيادة من أ .

(٢) في ت : « روى » .

(٣) في أ : « بن » .

(٤) ورواه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٣) والطبراني في المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ابن الزبير ، بنحوه . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق موسى بن عقبة ، عن الزهري ، بنحوه . وقال الهيثمي

في المجمع (٣٨٦/٩) : « وكلاهما مرسل ، وإسنادهما حسن » .

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٠٣/٢٢) .

كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ، قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق (١) منهم باقية .

وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن (٢) واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا : ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ [يس : ١٤ - ١٧] . ولو كان هؤلاء من الخواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بئركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها (٣) اصطالحوا على اتخاذ البئركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة (٤) والشمامسة والرهايين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطدّه . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البئركة من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله (٥) ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم (٦) ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الخواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية

(١) فى ت ، س : « منها » .

(٢) فى أ : « غير » .

(٣) فى س : « تبق » .

(٤) فى ت ، س : « أخذتهم » .

(٥) فى ت : « رسلهم » .

(٦) فى ت ، س : « القساوسة » .

المذكورة في القرآن [العظيم] (١) قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني ، حدثنا حسين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن (٢) ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « السُّبُّ ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب » (٣) ، فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق (٤) حسين الأشقر ، وهو شيعي متروك ، [والله أعلم] (٥) .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد . وقال قتادة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ : أى يا حسرة العباد على أنفسهم ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت في جنب الله . قال : وفي بعض القراءة : « يا حسرة (٦) العباد على أنفسهم » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من (٧) قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر

(١) زيادة من ت .

(٢) فى ت : « رواه الحافظ الطبراني بإسناده إلى » .

(٣) المعجم الكبير (٩٣/١١) ورواه ابن مردويه فى تفسيره ، والعقيلي فى الضعفاء كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٦٢/٣) من طريق

حسين الأشقر ، به ، وأعله العقيلي بحسين الأشعري كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا وقال : « إنه شيعي متروك ولا يعرف هذا إلا

منجته ، وهو حديث منكر » .

(٥) زيادة من ت ، س .

(٤) فى أ : « حديث » .

(٦) فى أ : « مثل » .

(٦) فى ت ، س ، أ : « حسرة على » .

لحساب يوم القيامة بين يدي الله ، عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] .

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ؛ فمنهم من قرأ : « وَإِنْ كُلَّ لَمَّا » بالتخفيف ، فعنده أن « إِنْ » للإثبات ، ومنهم من شدد « لَمَّا » ، وجعل « إِنْ » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى « إِلَّا » تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ أى : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامة لا شىء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات . ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا

بضياته ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى : نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] . وقد ضعف ابن جرير قول قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج : الأخذ من هذا فى هذا ، وليس هذا مراداً فى هذه الآية . وهذا الذى قاله ابن جرير حق .

وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ، فى معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قولان : أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

قال البخارى : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم [التيمى] (٢) ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » .

حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى ، حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، قال : « مستقرها تحت العرش » (٣) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٤) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٥٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١١٠٠) من حديث عمر رضى الله عنه .

(٢) زيادة من ت ، س ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٩ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٥٩) وسنن أبى داود برقم (٤٠٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٠) .

(٦) فى ت : « وروى » .

ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت .
فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ (١) .

وقال سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : « أتدرى أين هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال فى قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى إلا يؤذن لى لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت » . قال : « فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٣) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمسقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .
قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلاً ونهاراً ، لا تفر ولا تقف . كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] أى : لا يفران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى : الذى لا يخالف ولا يمانع ، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقتنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية (٤) « حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى : جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور ، كما أن

(١) المسند (١٥٢/٥) .

(٢) رواية سفيان فى صحيح البخارى برقم (٣١٩٩) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (١١٥/٢) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٦٢٨) من طريق عبد الرزاق .

(٤) فى ت : « ختم آخر آية » .

الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ ﴾ الآية [يونس : ٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوِنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر ^(١) له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهي كوكب نهاري . وأما القمر ، فقدرة منازل ، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ، ويرتفع ^(٢) منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره ^(٣) في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العذق .

وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس .

يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا يبيده الله جديداً في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ^(٤) ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفُل » ، واللواتى بعدها « تُسَع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عَشْر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض » ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرْع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود ^(٥) ؛ لتأخر القمر في أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث « حَنَادَس » ، وثلاث « دَادِئ » ^(٦) ، وثلاث « مُحَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عبيد ^(٧) ينكر التُسَع والعَشْر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى ^(٨) صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا ^(٩) .

(٣) فى أ : « ضوءه » .

(٦) فى أ : « درارى » .

(٨) فى ت ، س : « أبو » .

(٢) فى ت : « فترفع » .

(٥) فى ت ، أ : « أسود » .

(١) فى س : « وللقمر » .

(٤) فى ت : « ثلاثة » وهو خطأ .

(٧) فى أ : « أبو عبيدة » .

(٩) فى س : « لا يدرك هذا ضر هذا ولا هذا ضر هذا » .

وقال عكرمة [فى قوله] (١) : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : يعنى : أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجىء النهار من هاهنا . وأوماً بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطْلُبَانِ حَيْثُ ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى (٢) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلَكَةٍ كَفَلَكَةِ الْمَغْزَلِ .

وقال مجاهد : الْفَلَكُ كحديدة الرِّحَى ، أو كفلكة المغزل ، لا يدور المغزل إلا بها ، ولا تدور إلا به .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخير البحر ليحمل (٣) السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : آبائهم ، ﴿ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة [الموقرة] (٤) المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس : المشحون : الموقر . وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبي ، وقتادة ، [والضحاك] (٥) ، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة - فى رواية - وعبد الله بن شداد ، وغيرهم (٦) .

وقال السدى - فى رواية - : هى الأنعام .

(٣) فى أ : « ليحمل فيه » .

(٢) فى ت : « قاله ابن عباس وغيره » .

(١) زيادة من أ .

(٦) فى ت : « عكرمة وغيره » .

(٥) زيادة من أ .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير^(١) ، عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا . قال : هي السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وكذا قال [غير واحد و]^(٢) أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : [المراد بقوله]^(٣) : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن .

ويُقوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ، ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴾ أى : بما أصابهم ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ . وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها ، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون^(٤) بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به : ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين^(٥) وردوا عليهم ، فقال لهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٦) ، وفى هذا نظر .

(٣) زيادة من أ .

(٢) زيادة من ت .

(٥) فى أ : « المؤمنين » .

(١) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .

(٤) فى أ : « ولا يشعرون » .

(٦) تفسير الطبرى (٩/٢٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ [إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] ﴾ (١)؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون (٢) إلا صيحة واحدة ، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها - وهى (٣) صفحة العنق - يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر (٤) ، ثم تكون (٥) بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (٥١) قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هى النفخة الثالثة (٦) ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ، والنسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : [من] (٧) قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

فلذلك يقولون : ﴿ مِنْ بَعْثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من

(٣) فى أ : « وهو » .

(٢) فى أ : « ما ينظرون » .

(١) زيادة من أ .

(٤) عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٧) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « الثانية »

(٥) فى ت ، س ، أ : « ثم يكون » .

السلف - : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ^(١) ، وذلك كقوله تعالى في الصفات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصفات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال [الله] ^(٢) تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ^(٣) ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى : من عملها ، ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ^(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ^(٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا فى روضات الجنات : أنهم ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ [فَكِهُونَ] أى : فى شغل ^(٤) عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى : وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : ﴿ فَكِهُونَ ﴾ : أى فرحون .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمي ، والأوزاعى فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ قالوا : شغلهم اقتضاى الأ Bakar .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى أ : « وهو صحيح » .

(٤) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى ت : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » وهو خطأ .

وقال ابن عباس - فى رواية عنه ^(١) - : ﴿ فِي شُغْلٍ فَآكِهِونَ ﴾ : أى بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو اقتضاض الأبكار .

وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ : قال مجاهد : وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسدّى ، وخُصَيْف ^(٢) : ﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ : هى السرر تحت الحجال .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت ^(٣) تحت البشاحين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَآكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنواعها ، ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافرى ، عن سليمان ^(٤) بن موسى ، حدثنى كُريب ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول ^(٥) : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مُشْمَرٌ إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَر لها ، هى - ورب الكعبة - نوركلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مُطَرَّد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحبيرة ونعمة ، ومحلة عالية بهيئة » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : « قولوا : إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مهاجر ، به ^(٦) .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ : قال ابن جريج : قال ابن عباس فى قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فى إسناده نظر ، فإنه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العبادانى ، حدثنا الفضل الرقاشى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ » . قال : « فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

(١) فى ت : « وفى رواية عن ابن عباس » .

(٢) فى ت : « ومحمد بن كعب وغيرهم » .

(٤) فى أ : « سليم » .

(٥) فى ت : « روى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد قال » .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول وسليمان الأموى مختلف فيه وباقي رجال الإسناد ثقات » .

ورواه ابن ماجه فى « كتاب السنة » من سننه ^(١) ، عن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ^(٢) ،

به .

وقال ^(٣) ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حرملة ، عن سليمان بن حميد قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظلل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام - قال القرظي : وهذا فى كتاب الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ - فيقول : سلونى . فيقولون : ماذا نسألك أى رب ؟ قال : بلى سلونى . قالوا : نسألك - أى رب - رضاك . قال : رضائى أحلكم دار كرامتى . قالوا : يا رب ، فما الذى نسألك ، فوعزتكم وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه . قال : ثم تأتيتهم التحف من الله ، عز وجل ، تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه . وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق ^(٤) .

﴿وَأَمَّا زَوْا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى ^(٥) : يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ [الروم : ١٤] ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدعين فرقتين ، ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ : هذا تقرير من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتهم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ ، يقال : «جبالاً» بكسر الجيم ، وتشديد اللام . ويقال : «جبالاً» بضم الجيم والباء ، وتخفيف اللام . ومنهم من يسكن الباء . والمراد

(١) فى ت : « رواه ابن ماجه فى سننه » .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (١٨٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٦/١) : « هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشى » .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (١٥ / ٢٣) .

(٥) فى ت : « يعنى » .

بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسدّي ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ أى : أفما (١) كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته (٢) وحده لا شريك له ، وعدوكم إلى اتباع الشيطان ؟!

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن إسماعيل بن رافع ، عن حدثنا عن محمد بن كعب القرظى (٣) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، يقول (٤) : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويبحثون ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) [الجاثية : ٢٨] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾ .

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريبا وتوبيخا : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى : هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ، ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموا فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنتق جوارحهم بما عملت .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث التميمى ، حدثنا أبو عامر الأسدى ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المكتب ، عن الفضيل بن عمرو ، عن الشعبي (٦) ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب (٧) ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى على إلا شاهداً من نفسى .

(١) فى ت ، س : « عباد الله » .

(٤) فى ت ، س ، أ : « ثم يقول » .

(٧) فى ت ، س : « يا رب » .

(١) فى ت ، س : « أما » .

(٣) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .

(٥) تفسير الطبرى (١٦/٢٣) .

(٦) فى ت : « روى النسائى ومسلم » .

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيياً ، وبالكرام الكاتين (١) شهوداً . فيختم علي فيه ، ويقال لأركانه : انطقي . فتتطق بعمله ، ثم يخلو بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل .

وقد رواه مسلم والنسائي ، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر ، عن أبي النضر ، عن عبيد الله ابن عبد الرحمن الأشجعي ، عن سفيان - هو الثوري - به (٢) . ثم قال النسائي : [لا أعلم (٣) أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي ، وهو حديث غريب ، والله تعالى أعلم .

كذا قال ، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي - وهو العقدي - عن سفيان . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بهز (٤) بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ قال : « إنكم تدعون مقدمة (٥) أفواهكم بالفدأ ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذوه وكتفه » . رواه النسائي [(٦) عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، به (٧) .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقي (٨) الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت - ويثنى بخير ما استطاع - قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهداً (٩) ؟ قال : فيفكر في نفسه ، من الذي يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي . فتتطق (١٠) فخذوه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المناق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذي سخط الله عليه » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به بطوله (١١) .

ثم قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضمضم بن زُرعة عن شريح بن عبيد (١٢) ، عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذوه من الرجل اليسرى (١٣) » . ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد الله بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله (١٤) .

وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد ، رحمه الله ، فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زُرعة ، عن شريح بن عبيد الحضرمي ، عن حذثه عن عقبة بن عامر ؛ أنه

(١) في ت : « الكاتين عليك » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣) .

(٣) في س : « ما أعلم » . (٤) في ت ، س : « يزيد » ، وفي أ : « زيد » . (٥) في س : « مفدما » .

(٦) زيادة من ت ، س ، والسنن الكبرى .

(٧) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٦٩) .

(٨) في ت : « يأتي » . (٩) في ت ، أ : « شاهداً » . (١٠) في ت ، س : « قال فتتطق » .

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) وسنن أبي داود برقم (٤٧٣٠) .

(١٢) في ت : « وروى الإمام أحمد » .

(١٣) في ت : « الشمال » .

(١٤) تفسير الطبري (١٧/٢٣) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذ من الرجل الشمال » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَية ، حدثنا يونس بن عُبيد ، عن حميد ابن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى (٢) - هو الأشعري ، رضى الله عنه - : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرضُ عليه (٣) ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف (٤) فيقول : نعم أى رب ، عملتُ عملتُ عملت . قال : فيغفر الله له ذنوبه ، ويستره منها . قال : فما على الأرض خَلِيقَة ترى (٥) من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أى رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أى رب ما عملته . فإذا فعل ذلك خُتم على فيه . قال أبو موسى الأشعري : فإننى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ (٦) اليمنى ، ثم تلا : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى تفسيرها : يقول : ولو شاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة (٨) : أعميناهم .

وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عمياً يترددون .

وقال السدى : لو شئنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعنى : الطريق .

وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ [يقول] (٩) : لا يبصرون الحق .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ : قال العوفى عن ابن عباس : أهلكناهم .

وقال السدى : يعنى : لغيرنا خلقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أى : إلى أمام ، ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

(١) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٥١/١) : « إسناده جيد » .

(٢) فى ت ، أ : « على » .

(٣) وروى ابن جرير بإسناده عن أبى موسى .

(٤) فى ت : « فيعرف » .

(٥) فى ت ، س : « لفخذه » .

(٦) فى ت : « يرى » .

(٧) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

(٨) زيادة من أ .

(٩) فى أ : « غيره » .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ .

يخبر تعالى عن ابن آدم^(١) أنه كلما طال عمره ردّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى [نفس] الشَّيْبَةِ ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خلُقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ (٣) : أنه ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ؛ ولهذا وردَّ أنه ، عليه الصلاة والسلام ، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحَّفه أو لم يتمه .

وقال أبو زرعة الرازى : حدثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه ، عن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله ﷺ . ذكره ابن عساكر فى ترجمة « عتبة بن أبى لهب » الذى أكله السبع بالزرقاء (٤) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن (٥) - هو البصرى - قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :
كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر ، أو عمر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (٦) . وهكذا روى البيهقى فى الدلائل : أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى : « أنت القائل :
أتجعل نهى ونهْب العبيد بين الأقرع وعيينة » .
فقال : إنما هو : « بين عيينة والأقرع » فقال : « الكل سواء » (٧) .

(١) فى أ : « بنى » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) لم أجد ترجمته فيما بين يدى من تاريخ دمشق ، ولا فى المختصر لابن منظور .

(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الحسن » .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات (١ / ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن على بن زيد عن الحسن به مراسلاً .

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (١٨١ / ٥) .

يعنى : فى المعنى ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد ذكر السهيلي فى « الروض الأنف » لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ، عليه السلام ، فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عيينة بن بدر الفزارى ؛ لأنه ارتد أيام الصديق ، بخلاف ذاك ، والله أعلم .

وهكذا روى الأموى فى مغازيه : أن رسول الله ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر ، وهو يقول : « نُفْلِقْ هَامًا » .

فيقول الصديق ، رضى الله عنه ، متمماً للبيت :

..... مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له ، وهى فى الحماسة (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْمٌ ، حدثنا مغيرة ، عن (٢) الشعبى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله إذا استراث الخير ، تمثل فيه بيت طرفة :

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

وهكذا رواه النسائي فى « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر ، عن الشعبى (٣) ، عنها . ورواه الترمذى والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، كذلك . ثم قال (٤) الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار :

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

ثم قال : رواه (٦) غير زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن عائشة (٧) .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ، فى معلقته المشهورة ، وهذا المذكور [هو عجز بيت] (٨) منها ، أوله :

سَتَبْدَى لَكَ الْإَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبْعَ لَهُ بَتَاتَا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ (٩)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن

(١) الحماسة لأبى تمام (١٠٧/١) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٣) المسند (٣١/٦) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٤) .

(٤) فى ت : « وقال » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٤٨) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٦) فى س : « ورواه » .

(٧) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣٨٣/١) من طريق الوليد بن أبى ثور عن سِمَاك عن عكرمة قال : سئلت عائشة فذكره نحوه .

(٨) زيادة من أ .

(٩) انظر ديوان طرفة بن العبد ص (٦٦) .

نعيم - وكيل المتقى ببغداد - حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة (١) ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحداً (٢) .

تَفَاعُلٌ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لَشَيْءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقَّقَا (٣)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، فيجعل أوله آخره ، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : « إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (٤) .

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سألت : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طرفة :

سَبَّيْ لَكَ الْإَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

فجعل يقول : « من لم تُزَوِّدْ بالأخبار » . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إني لست بشاعر ، ولا ينبغي لى » (٥) .

وثبت فى الصحيحين أنه ، عليه الصلاة والسلام ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ (٦) مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَبَتَّ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنْ الْأَلْسَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَبِينَا

ويرفع صوته بقوله : « أينا » ويمدها (٧) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ (٨)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه . وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جندب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار

(١) فى س : « حاشية بخط جمال الدين المزى هذا موضوع على ابن عيينة » . (٢) فى أ : « واحداً فقال » .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٤٣/٧) وقال : « لم أكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيهم من يجهل حاله » .

(٤) تفسير الطبرى (١٩/٢٣) .

(٥) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (١١٧/٢) عن معمر عن قتادة ، به .

(٦) فى ت : « لولا الله » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦) .

فَنَكَبْتُ أَصْبَعَهُ ، فَقَالَ :

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ^(١)

وسألتني عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] إنشاد^(٢)

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَآيَ عَبْدَ لَكَ مَا أَلَمَّا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عُلِّم شعراً ولا ينبغي له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ،
﴿الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو^(٣)
بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت
فيه أقوال الضُّلَّال^(٤) وآراء الجهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه
أبو داود قال :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا شرحبيل
ابن يزيد المَعافري ، عن عبد الرحمن^(٥) بن رافع التَّوْخِي قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول^(٦) :
[سمعت رسول الله ﷺ يقول] ^(٧) : « ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت ترياقاً ، أو تعلقت تميمة ، أو
قلت الشعر من قبل نفسي » . تفرد به أبو داود ^(٨) .

وقال ^(٩) الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن الأسود بن شيبان ،
عن أبي نوفل قال : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض
الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين
ذلك^(١٠) .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن
أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ : « لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفَ أَحَدِكُمْ قِيحاً ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ
شِعْراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ^(١١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بريد ، حدثنا قَزَعَةُ بْنُ سُوَيْدٍ الْبَاهِلِيُّ ، عن عاصم بن مَخْلَدٍ ، عن أبي
الْأَشْعَثِ الصَّنَعَانِيِّ (ح) وحدثنا الْأَشْيَبُ فَقَالَ : عن ابن عاصم ، عن [أبي] ^(١٢) الْأَشْعَثِ ^(١٣) ، عن
شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قال رسول الله ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له ^(١٤)
صلاة تلك الليلة » ^(١٥) .

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .

(٢) فى أ : « إنشاده » . (٣) فى أ : « هذا » . (٤) فى ت : « أقوال أهل الضلال » .

(٥) فى أ : « عبد الله » . (٦) فى ت : « كما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال » .

(٧) زيادة من ت ، س ، وأبى داود .

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٦٩) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) المسند (١٤٨/٦) .

(١١) سنن أبى داود برقم (٥٠٠٩) .

(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (١٤) فى ت : « لم يقبل الله له » .

(١٥) المسند (١٢٥/٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة . والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضى الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه النبى ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه »^(١) . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطيعه ، فيزيده من ذلك^(٢) .

وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب ، وبريدة بن الحُصَيْب^(٣) ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً »^(٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ، ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما يصلح له ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أى : لينذر هذا القرآن البين كلَّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنى : عاقلاً ، ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ . قال قتادة : مطيقون^(٥) أى : جعلهم يقهرونها^(٦) وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بغير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطارُ مائة بغير أو أكثر ، لसार الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شأوا نحرروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

(١) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧/٤) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من حديث الشريد ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الحصىف » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠١٠ - ٥٠١٢) .

(٥) فى أ : « مطيعون » .

(٦) فى أ : « يرونها » .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يَتَغَوَّنَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْأَلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ وَتَقْرِبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر (١) عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدخر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خزيهم ، وأذل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام . وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك (٢) وكفرهم بالله ، ﴿ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم (٣) على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ تَوَقَّدُونَ (٨٠) ﴾ .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسدى . وقاتدة : جاء أبى بن خلف [لعنه الله] (٤) إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفْتَتُّ وَيَذَرِيهِ (٥) فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يمتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ ، إلى آخرهن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات ، عن هُشَيْم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبيرة (٦) ، عن ابن عباس ، أن العاصي (٧) بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيعبى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ (٨) فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يمتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال :

(١) فى أ : « نصرة » . (٢) فى أ : « ذلك » . (٣) فى أ : « ونقابلهم » .
(٤) زيادة من س ، أ . (٥) فى أ : « ويذروه » . (٦) فى ت ، س ، أ : « العاص » . (٧) فى أ : « أرم » .
(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » .

ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هُشَيْم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس » (١) .

وروى من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أبي بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ، أو [في] (٢) العاصم [بن وائل] (٣) ، أو فيهما ، فهي عامة في كل من أنكر البعث . والآلف واللام في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل (٤) منكر للبعث .

﴿ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ - ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال (٥) الإمام أحمد في مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حريز ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير بن نفير ، عن بسر ابن جحاش ؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أننى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَيْتَكَ وَعَدَلْتُكَ ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغْتَ التراقي قلت : أتصدق وأتئى أوان الصدقة ؟ » .

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حريز بن عثمان ، به (٦) . ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى - ذى القدرة العظيمة التى خلقت (٧) السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربيع قال : قال عتبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : « إن رجلاً حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً

(١) تفسير الطبرى (٢٣/٢١) .

(٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من م . (٤) فى م : « لكل » . (٥) فى ت : « كما روى » .

(٦) المسند (٤/٣١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/٣٦٤) : « إسناده حديثه صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « الذى خلق » . (٨) فى ت : « روى » .

جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] ^(١) لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحتشت ، فخذوها فذرّوها في اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نبأشاً ^(٢) .

وقد أخرجاه في الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة ^(٣) ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذرّوا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم رائج ^(٤) ، أي : كثير الهواء — ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك سرح المرخ والعفار ، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قذح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح ^(٥) أحدهما بالآخر ، فتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ^(٦) . وفي المثل ^(٧) : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ^(٨) . وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا الغاب ^(٩) .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٨٣) .

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير ^(١٠) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ

(١) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(٢) المسند (٣٩٥/٥) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .

(٤) في س ، أ : « راج » . (٥) في أ : « فيحك » . (٦) في ت ، س : « عنه » . (٧) في أ : « الراجز » .

(٨) مجمع الأمثال للميداني برقم (٢٧٥٢) .

(٩) في أ : « الغاب » .

(١٠) تفسير الطبرى (٢١/٢٣) .

عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى : يأمر بالشئ أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :
إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ « كُنْ » قَوْلُهُ فَيَكُونُ (١)

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب ، عن شهر ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقول : يا عبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعال ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .
ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد (٥) ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضى الله عنه ، قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقرأ السبع الطوّل (٧) فى سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده » . ثم قال : « الحمد لذى (٨) ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى (٩) .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى حمزة - مولى الأنصار - عن رجل من بنى عبس ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من [ركوعه ، يقول : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من] (١٠) قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع

(١) انظر البيت عند تفسير الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) المسند (١٧٧/٥) .

(٤) فى ت ، س : « الأجسام » .

(٥) فى ت : « قل من بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون » وهو خطأ .

(٦) فى ت ، س : « الله » .

(٧) فى ت : « الطوال » .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) المسند (٣٨٨/٥) .

(١٠) زيادة من ت ، وأبى داود .

رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى ، رب اغفر لى » . فصلّى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة - أو الأنعام^(١) - شك شعبة - هذا لفظ أبى داود^(٢) .

وقال النسائي : « أبو حمزة عندنا : طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة » . كذا قال . والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم فى رواية الإمام أحمد ، [والله أعلم]^(٣) . فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها فى صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال^(٤) أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم بن حميد ، عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة . ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائي ، من حديث معاوية بن صالح ، به^(٥) .

[آخر تفسير سورة « يس » ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً]^(٦)

(١) فى ت : « والأنعام » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٨٧٤) والشمائل للترمذى برقم (٢٦٠) وسنن النسائي (١٩٩ / ٢) .

(٣) زيادة من س . (٤) فى ت : « وروى » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٨٧٣) والشمائل للترمذى برقم (٢٩٦) وسنن النسائي (١٩١ / ٢) .

(٦) زيادة من س .

فهرس السور

٥	سورة النور
٩٢	سورة الفرقان
١٣٥	سورة الشعراء
١٧٨	سورة النمل
٢٢٠	سورة القصص
٢٦٣	سورة العنكبوت
٢٩٧	سورة الروم
٣٣٠	سورة لقمان
٣٥٨	سورة السجدة
٣٧٥	سورة الأحزاب
٤٩٤	سورة سبأ
٥٣٢	سورة فاطر
٥٦١	سورة يس

